

إِتْحَافُ ذِي الشَّوْقِ وَالْحَاجَةِ إِلَى قِرَاءَةِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهَ

تأليف
محمد الحفيد بن عبد الصمد كنون
الحسيني الإدريسي

الجزء التاسع

قابله وصححه على النسخة الأصلية
الأستاذ محمد عبد الحفيظ كنون

1426 هـ . 2005 م

منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية

اتِّخَافُ ذِي الشَّوْقِ وَالْحَاجَةِ إِلَى قِرَاءَةِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهَ

تأليف
محمد الحفيد بن عبد الصمد كنون
الحسني الإدريسي

قابله وصحّحه على النسخة الأصلية
الأستاذ محمد عبد الحفيظ كنون

الجزء التاسع

1426 هـ . 2005 م

منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية

عنوان الكتاب :

إتحاف ذي التشوق والحاجة :

إلى قراءة سنن ابن ماجة

المؤلف :

محمد الحفيد بن عبد الصمد كنون الحسني الإدريسي :

الناشر :

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية :

الطبع :

مطبعة فضالة :

زنقة ابن زيدون - ص.ب. 57 - المحمدية

32.46.45 (023) الفاكس : 32.46.43 (023)

رقم الإيداع القانوني :

2000/1649 :

أبواب الفتن

أهل السنة، وأما عند المعتزلة فهو ظاهر، لأن الحساب عندهم واجب عقلا وفيه دليل على قبول الأعمال الظاهرة والحكم بما يقتضيه الظاهر والاكتفاء في قبول الإيمان بالاعتقاد الجازم، خلافا لمن أوجب تعلم الأدلة ويؤخذ منه ترك تكفير أهل البدع المقرين بالتوحيد الملتزمين للشرائع، وقبول الكافر من كفره من غير تفصيل بين كفر ظاهر أو باطن والله أعلم قال الرازي في كلامه على هذا الحديث : قد جعل الله تعالى العذاب عذابين : أحدهما السيف من يد المسلمين، والثاني عذاب الآخرة، والسيف في غلاف يرى والنار في غلاف لا ترى فقال لرسوله : من أخرج لسانه من الغلاف المرئي وهو الفم فقال : لا إله إلا الله محمد رسول الله، أدخلنا السيف في الغمد الذي يرى، ومن أخرج القلب من الغلاف الذي لا يرى وهو الشرك أدخلنا سيف عذاب الآخرة في غمد الرحمة هـ.

قوله : (فساره) أي تكلم معه سرا.

قوله : (إنهبوا به فاقتلوه الخ قال بعضهم : كأنه تكلم بكلام علم منه ﷺ أنه ما دخل الإيمان في قلبه فأمر بقتله ثم رجع إلى تركه حتى يتفكر في إسلامه أي إظهار الإيمان ظاهرا، وأن مدار العصمة عليه لا على الإيمان الباطني هـ.

قوله : هلكت على الخطاب.

قوله : (ما هلكت) ما نافية وهو على صيغة المتكلم.

قوله : (قالوا : قال الله : ﴿قاتلوهم حتى لا تكون﴾ لـخ)، أي وأنت تركت ذلك القتال المأمور به.

قوله : (فمنحوهم أكتافهم)، أي أعطوهم أكتافهم كأنه كناية عن التولي والإدبار أو المغلوبية، أي مكنوهم من أكتافهم حتى يضربوا أكتافهم أو يركبوا عليها.

قوله : (من لحمتي) يضم اللام أي قرابتي.
قوله : (تلك الشعاب)، بكسر الشين أي تلك الطرق التي بين الجبال، والحديث إسناده حسن، والسميط وثقه العجلي، وروى له مسلم في صحيحه وعاصم هو الأحول روى له مسلم أيضا في صحيحه وذكره ابن حبان في الثقات وسويد بن سعيد مختلف فيه، قاله في الزوائد هـ.

باب حرمة دم المؤمن وماله

قوله : (ألا إن أحرم الأيام)، أي أكثرها وأشدّها حرمة، وقد تقدم الحديث في أبواب الحج.

قوله : (لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك)، أي من حرمتك فإن حرمة البيت، إنما هي للمؤمنين قال تعالى : ﴿إِنْ أُولَ بَيْتٍ وَضَعِ لِلنَّاسِ﴾ إلى قوله : ﴿مُبَارَكًا وَهْدًى لِلْعَالَمِينَ﴾.

قوله : (ماله ودمه) وإن نظن به إلا خيرا مجرورة على أن الأول بدل من المؤمن والآخرين عطف عليه، أي حرمة ماله وحرمة دمه وحرمة أن نظن به ما عدا الخير. والحديث قال في الزوائد في إسناده مقال ونصر بن محمد شيخ ابن ماجه ضعفه أبو حاتم وذكره ابن حبان في الثقات هـ.

قوله : (المؤمن من أمنه الناس الخ) المراد به : الكامل - أو المهاجر - لخ قال بعضهم : المراد من الهجرة القرب إلى الله تعالى، ولا يتم ذلك بدون ترك الخطايا، فالمهاجر الحقيقي الواصل المطلوب الهجرة من ترك الخطايا.

باب النهي عن النهبة

قوله : (من انتهب) النهب الأخذ على وجه العلانية والقهر - نهبة - بفتح نون مصدر وبضمها اسم للمال المنهوب والمراد من وصفها بالشهرة كونها ظاهرة غير خفية، وهذا تقبيح وتشنيع (لها فليس منا) تقدم ما في هذا اللفظ في البيوع وغيرها.

قوله : (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن لـخ).

قال المازري : احتج به الخوارج على التكفير بالذنوب، والمعتزلة على أن الفاسق لا يسمى مؤمناً عياض : ولنا الرد على الجميع : قوله في حديث أبي ذر. وإن زنى وإن سرق، لأنه لا يدخل الجنة إلا مؤمناً، وهذا الحديث عندنا مؤول النووي، فيحتمل أنه لنفي الكمال أي لا يزني وهو كامل الإيمان من باب نفي الشيء بنفي صفته نحو: لا علم إلا ما نفع ولا مال إلا الإبل أو على المستحيل وقيل : المعنى وهو آمن من عقوبة الله، عياض تأوله الحسن والطبري على أنه لنفي اسم المدح أي وهو يقال له مؤمناً، بل زان أو شارب خمر أو سارق، وتأوله المهلب أنه لنفي النور أي وهو ذو نور وذكر في ذلك حديث : أنه ﷺ قال : من زنى نزع الله نور الإيمان من قلبه، فإن شاء رده إليه رده وقيل : أنه نهى لا خبر وهو بعيد لا يساعده اللفظ ولا الرواية وقال ابن شهاب : أنه من التشابه، فيترك تأويله إلى الله تعالى وقال أجروا هذه الأحاديث كم أجراها من كان قبلكم، فإن أصحاب رسول الله ﷺ أجروها ورأوها من المشكل، وذكر الطبري عن محمد بن زيد ابن واقد بن عمر بن الخطاب : أنه أنكر الحديث وغلط الرواة قال : وإنما قال النبي ﷺ : لا يزني المؤمن ولا يسرق، النووي، وأحسن تأويل فيه الأول هـ.

أنظر الأبى على مسلم قال بعضهم : ونبه في هذا الحديث على جميع ضروب المخالفة، فنبه بالزنا على جميع ما حرم من الشهوات وبالخمر على جميع ما يشغل عن الله تعالى، وبالسرقة على الرغبة في الدنيا، وأخذ الشيء من غير وجهه خفية، وبالنهب عن احتقار الناس وأخذ الشيء من غير وجهه علانية والله أعلم هـ.

باب سباب المسلم فسوق وقتالة كفر

قوله : (سباب) بكسر المهملة وتخفيف الموحدة، مصدر ساب كقتال مصدر قاتل، ثم يحتمل أنه بمعنى سب وبالإضافة حينئذ تصح أن تكون للفاعل وأن تكون للمفعول، ويحتمل أنه على بابه من المفاعلة أي تشاتمهما فسق، فيعارض حديث المتسابان ما قالوا : فعلى البادىء ما لم يعتد المظلوم، لأنه نص في أن إثم تشاتمهما إنما هو على البادىء ويجب أن حديث السباب محتمل فيرد النص، وإنما كان على البادىء لأنه المتسبب، والآخر إنما هو مكافئ، ولهذا قال : ما لم يعتد المظلوم لأنه إذا اعتدى خرج عن حد المكافأة، وإثم المظلوم إنما هو تقديم وإلا فلا إثم إذا لم يعتد قال عياض : والفسوق لغة الخروج ومنه فسقت الرطوبة إذا خرجت عن قشرها، وهو شرعا الخروج عن الطاعة هـ.

قال النووي : ولا خلاف في حرمة سب المسلم بغير حق وفسق فاعله هـ.

قال الأبى : وعقوبته الأدب، لأنه إذاية وقال مالك : من أذى مسلما أدب، وفي المدونة ومن قال : لرجل يشارب الخمر أو يا أكل

الربا أو يا خائن أو يا حمار أو يا ثور أو يا خنزير أو يا فاسق أو
يا فاجر أو يا ابن الفاجرة نكل، وإن قال : يا فاجرا بفلانة حد إلا
أن يدعي مخرجا مثل أن يجد له حقا فيحلف أنه أراد ذلك وينكل،
وجعل ابن عرفة الهجاء من السب، ويستثنى من السب ما كان
للأدب وهو ما أشار إليه النووي بغير حق هـ.

قوله : (وقتاله) كفر قال عياض : هو أيضا من نوع ما تقدم في
الحاجة إلى التأويل، فيحتمل على المستحل أو أنه فعل كفر أو أنه
كفر نعمة الله أو أنه الكفر لغة أي جحد حق أخيه، إذ من حقه أن
لا يقاتله والله أعلم هـ.

باب لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض

قوله : (إستنصت الناس) أي قل لهم ليسكتوا حين يسمعون
قولي، وفيه اهتمام وتعظيم بما يقوله.

قوله : (ولا ترجعوا بعدي كفارا)، هذا مما تمسك به الخوارج
أيضا في التكفير بالذنوب، وأجيب بأجوبة الأول أن كفارا معناه
مكفرين أي مستترين بالسلاح بضرب بعضهم رقاب بعض، وأصل
الكفر الستر والثاني : حمله على التشبيه أي أشباه الكفار بضرب
بعضهم رقاب بعض كقوله تعالى : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾، أي
كيف تتشبهون بالكفار؟ نزلت في لبس الأنصار السلاح بعضهم
لبعض لسعي يهود بينهم في ذلك والثالث : المراد الكفر اللغوي، أي
لا تجدوا ما علمتم من حرمة دمائكم والرابع : يعني كفر نعمة الله

تعالى عليهم في أن ألف بين قلوبهم والخامس : قال الخطابي :
المعنى لا يكفر بعضكم بعضا فتستحلوا لذلك ضرب
بعضكم رقاب بعض والسادس : المراد أهل الردة، أي لا تتردوا
وهذا كله على رواية الرفع في يضرب وهو في موضع الحال، ورواه
بعضهم بسكون الباء، وهو يحيل المعنى، لأن النهي في الحقيقة إنما
هو عن الضرب، وإنما يستقيم مع الرفع، وأما على الجزم فيصير
النهي إنما هو الكفر، والضرب جواب وجزاء على ذلك قاله
عياض هـ.

وقوله بعدي قال الطبري : يعني بعد موقفي هذا، ويحتمل أن
يريد بعد موتي لعلمه أن ذلك لا يقع في حياته هـ.

قوله : (ويحكم أو ويلكم) قيل : المراد بهما الدعاء بالهلاك، بل
هما كلمتان إستعملتهما العرب للتعجب والترحم قال سيبويه :
ويل لمن وقع في هلاك، وويح زجر لمن أشرف عليه وعنه
أيضا إنهما للترحم وقال الهروي : ويح لمن وقع في هلكة لا
يستحقها فيترحم عليه، وويل لمن وقع فيها ويستحقها فلا يترحم
عليه وعن ابن عباس : الويل المشقة وقال الحربي : ويل للهالك والله
أعلم .

قوله : (إني فرطكم) بفتحين أي متقدمكم الذي يهيب لكم ما
تحتاجون إليه، والحديث إسناده صحيح ورجاله ثقات، وقيس هو
ابن أبي حازم وإسماعيل هو ابن أبي خالد وليس للصنابحي سوى
هذا الحديث، وليس له شيء في بقية الكتب الستة قاله في
الزوائد هـ.

باب المسلمون في ذمة الله

قوله : (من صلى الصبح)، أي في جماعة كما في رواية مسلم فهو مقيد لبقية الروايات المطلقة - فهو في ذمة الله - بكسر المعجمة عهده، أو أمانه أو ضمانه - فلا تخفروا لله - من أخفره إذا نقض عهده وفي رواية : فلا يتبعنكم الله بشيء من ذمته، والمراد النهي عن أذيته أي فلا تتعرضوا له بالأذى.

قوله : (حتى يكبه) أي قلبه وصرعه من باب نصر، والحديث رجال إسناده ثقات، إلا أنه منقطع وسعد ابن إبراهيم لم يدرك حابس ابن سعد قاله في التهذيب هـ.

قوله : (المؤمن أكرم على الله الخ)، قال بعضهم : هذه قضية مهملة وهي في قوة الجزئية والمراد : بعض المؤمنين، وهذا موافق لمذهب أهل السنة أي خواص البشر أفضل من خواص الملائكة، وعوام البشر أفضل من عوام الملائكة قالوا : المراد بالعوام الأولياء والأتقياء والصلحاء هـ.

وقال المناوي : لأن الملائكة لا شهوة لهم تدعو إلى قبيح والمؤمن سلطت عليه الشهوة والشيطان والنفس، فهو أبدا في مقاساة وشدائد، فلذلك كان أكرم والمراد المؤمن الكامل هـ.

والحديث في إسناده يزيد ابن سفيان أبو المهزم وتقدم أنه ضعيف.

باب العصبية

قوله : (تحت راية عمية)، هي بكسر العين وضمها والميم مكسورة مشددة والياء مشددة أيضا قال ابن حنبل : هو الأمير الأعمى الذي لا يتبين وجهه وقال إسحاق بن راهويه : هذا في تهارج القوم، وقتل بعضهم بعضا، وكأنه من التعمية والتلبيس وقال الأبي : وقيل : هو كناية عن تقاتل القوم دون بصيرة على أمر مجهول، كتقاتل الجاهلية لا يعرف الحق من المبطل، وإنما تقاتل عصبية لا لنصرة الدين هـ.

قوله : (يدعو إلى عصبية أو يغضب لعصبية)، أي يدعو إلى عصبية أو ينصر عصبية فيه أن من قاتل تعصبا لا لإظهار دين ولا لإعلاء كلمة الله هو على باطل، وهذا كقتال الأعراب بعضهم بعضا، وكتقاتل أهل القرى فيما بينهم ويتناولهما أيضا حديث : إذا اصطف المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار، قاله الأبي في شرح مسلم هـ.

قوله : (فقتلته جاهلية)، أي مات على هيئة كانت الجاهلية تموت عليها في كونهم فوضى لا إمام لهم لأنهم كانوا لا يرجعون إلى طاعة أمير ولا يتبعون هدى إمام، بل كانوا مستنكفين مستبدين في الأمر، لا يجتمعون في شيء ولا على رأي والله أعلم.

باب السواد الأعظم

قوله : (إن أمتي لا تجتمع على ضلالة)، في الكفر أو الفسق أو الخطأ في الاجتهاد.

قوله : (بالسواد الأعظم)، أي بالجماعة الكثيرة، فإن اتفاقهم أقرب إلى الإجماع قال السيوطي في تفسير السواد الأعظم : أي جماعة الناس ومعظمهم الذين يجتمعون على سلوك المنهج المستقيم، والحديث يدل على أن الإجماع حجة، وفي إسناده أبو خلف الأعمى واسمه حازم بن عطاء وهو ضعيف، وقد جاء الحديث بطرق في كلها نظر قاله العراقي في تخريج أحاديث البيضاوي والله أعلم.

باب ما يكون من الفتن

قوله : (إني صليت صلاة رغبة ورهبة)، أي صلاة دعوت فيها راغباً في الإجابة راهباً عن ردها.

قوله : (سألته أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم)، أي من فرق الكفر والمراد لا يسلط عليهم العدو. بحيث يستأصلهم. قوله : غرقا بفتحتين أي بأن يعمهم الغرق.

قوله : (وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم)، أي محاربتهم - فردها علي - فيه أن الإستجابة إعطاء عين المدعو به ليست كلية، بل قد تتخلف مع توفر شرائط الدعاء.

قوله : (زويت) بالبناء للمفعول من زوى كرمى، أي جمعت وضم بعضها إلي بعض قيل : يحتمل أن يكون حقيقة ويحتمل أنه الإدراك، فيكون مجازاً، فإنه لما أدرك جميعها صار كأنه جمعت له حتى رآها، والمراد من الأرض ما سيبلغها ملك أمته، لا كلها يدل عليه ما بعده.

قوله : (وأعطيت الكنزين الخ) قال عياض : الظاهر أنهما الذهب والفضة، وهما كنزا كسرى وقيصر ملكي الشام والعراق وهي مملكة كسرى، والدينار إلى الشام وهي مملكة قيصر هـ.

قوله : (وقيل لي إن ملكك إلى حيث روي لك قال عياض : الحديث من أعلام نبوته ﷺ لظهور الأمر كما قال : وإن ملك أمته اتسع بالمشارك والمغرب من بحر طنجة عمارة المغرب إلى أقصى المشرق مما وراء خراسان والنهر والهند والسند والصين ، ولم تتسع الاتساع من جهة الجنوب والشمال هـ.

قوله : (فيهلكهم به عامة)، أي حال كون الجوع سنة عامة، أي شاملة لكل الأمة، بل يكون في ناحية يسيرة بالنسبة إلى ما بقي من بلاد الإسلام.

قوله : (وأن لا يلبسهم)، أي يخلطهم - شيئا ويذيق بعضهم بأس بعض بالمحاربة أي لا يجمعهم متحاربين.

قوله : (من بين أقطارها)، أي أقطار الأرض عدوا من غيرهم.

قوله : (وإذا وضع السيف الخ)، أي إذا ظهرت الحرب فيهم تبقى إلى يوم القيامة، وقد وقع ذلك بقتل عثمان رضي الله عنه فلم يزل إلى الآن كما أخبر ﷺ.

قوله : (أئمة مضلين)، أي داعين الخلق إلى البدع والخروج عن الطريق المستقيم.

قوله : (وستلحق قبائل من أمتي بالمشركين). وقع هذا في زمن أبي بكر رضي الله عنه.

قوله : (وإن بين يدي الساعة دجالين الخ)، جمع دجال من الدجل، وهو المكر والتلبيس والتمويه.

قوله : (قريبا من ثلاثين)، ولأحمد في رواية سبعة وعشرون منهم أربعة نسوة كلهم يزعم أنه رسول الله، ولأبي داود : لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون كذابا دجالا كلهم يكذب على الله وعلى رسوله قال إبراهيم لعبيدة السليمانى : أترى المختار الثقفي منهم قال إنه من الرؤوس، ورواية المؤلف لا تنافي حديث ثلاثين، فإن هذا يجبر الكسر، أو أن الزائد على سبعة وعشرين لم يدعوا النبوة، وإن كانوا دجالين، وقد وجد من هؤلاء خلق كثيرون في الأعصار وأهلكهم الله تعالى منهم : العنسي اليمني ومسيلمة وابن صياد وهؤلاء ظهوروا في زمنه ﷺ وهلكوا ومنهم : المختار الثقفي والمسيح الدجال سيظهر ويهلك وغيرهم.

قوله : (ولن تزال طائفة من أمتي على الحق منصورين)، أي غالبين قاهرين لعدوهم، واختلف ممن هذه الطائفة وأين هم ؟ فقال ابن المديني : هم العرب وقال أحمد : إن لم يكونوا أهل الحديث، فلا أدري من هم قال الأبى ويعني بأهل الحديث أهل السنة وقال البخاري : هم العلماء قال النووي : ويحتمل أن تكون هذه الطائفة مؤلفة من أنواع المؤمنين منهم شجعان ومنهم فقهاء ومنهم محدثون وغير ذلك من أنواع أهل الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في قطر واحد، بل يصح أن يكونوا مفترقين في أقطار، وهو أصح ما يحتج به على كون الإجماع حجة هـ.

قوله : (لا يضرهم من خالفهم)، وفي رواية : من خذلهم أي من لم ينصرهم من الخلق - حتى يأتي أمر الله - وفي رواية : حتى تقوم الساعة قال الطبري : لا يعارض حديث : لا تقوم الساعة على أحد يقول : الله الله، ولا حديث : لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، لأن هذا مخصص لذلك، أي لا تقوم على أحد يوحد الله إلا

في ذلك الموضع الذي فيه تلك الطائفة، أو المراد بقيام الساعة قربها وهو الوقت الذي تخرج فيه الريح لقبض أرواح المؤمنين الذي فيه تلك الطائفة والله أعلم هـ.

قوله : (من شر قد اقترب) قيل : أشار به إلى قتل عثمان، وما وقع بعده بين علي ومعاوية.

قوله : (فتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج) قال القرطبي : الردم السد الذي بناه ذو القرنين، وياجوج يهمزان ولا يهمزان فمن همز جعلهما من أجيح النار، وهو ضوؤها وحرارتها وقيل من الأجاج وهو الماء الشديد الملوحة وسموا بذلك لكثرتهم وشدتهم. أما كثرتهم فقد ذكر القزويني في كتابه المسمى بعيون المعاني أن النبي ﷺ قال : يا جوج وماجوج أمة لها أربعمئة أمير وكذا وإذا خرجوا فمقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية ويأكلون كل فيل وخنزير، ومن مات منهم أكلوه، وأما شدتهم فصنف منهم كالأرز طول أحدهم مائة وعشرون ذراعاً، وصنف منهم في طول شبر لهم مخالب وأنياب كأنياب السباع، وتداعب الحمام وتسافد البهائم في الطرق وعواء الذئاب وشعورهم تقيهم من الحر والبرد، ولهم آذان عظام إحدى آذن الواحد منهم مؤبرة يشتى فيها، والأخرى جلدة يصيف فيها. واختلف في نسبهم فالأكثر على أنهم من ولد يافث بن نوح وقال الضحاك : هم من الترك وقال كعب : احتلم آدم فاختلط ماؤه بالتراب فأسقي فخلقوا منه، وفي هذا نظر لأن الأنبياء لا يحتلمون هـ.

قوله : (وعقد بيده عشرة)، أي ليريهم مقدار ذلك الموضع المفتوح، وفي رواية لمسلم : وحلق بأصبعه الإبهام والتي تليها، وفي

أخرى له عقد تسعين قال عياض : فالأولى والثانية متفقان في المعنى، والثالثة مخالفة لأن عقدها أضيق من العشرة، فلعلها متقدمة فزاد الفتح بعدها، أو يكون المراد التقريب في التمثيل، لا التحديد حقيقة لما روى أنهم يفتحون حين يروا الضوء فيقولون غدا نفتحه فيصبح على حالته الأولى، حيث إذا أراد الله خروجهم قالوا غدا نفتحه إن شاء الله فيصبح كما تركوه فيفتحونه والأظهر في الخبر أنه على ظاهره وقيل إنه ضرب مثلاً للإبتداء هـ.

قوله : انهلك على بناء الفاعل من الهلاك أو بناء المفعول من الإهلاك.

قوله : إذا كثر الخبث أي يقع الهلاك وإن كان هناك الصالحون والخبث بفتح الخاء والباء الفجور والعرب تسمى الزنا خبثاً وقيل الخبث أولاد الزنا وفيه دليل على أن البلاء قد يرفع عن غير الصالحين إذا كثر الصالحون وقد يعم الصالحين إذا كثر المفسدون لعدم أمرهم لهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وهذا معنى قوله تعالى : **والله أعلم ﴿وانتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾** أي بل يعم شؤمها من تعاطاها ومن رضيها هذا بفساده وهذا برضاها.

قوله : يصبح الرجل فيها مومناً الخ قال القرطبي لا يمتنع حمل الحديث على ظاهره لأن الفتن إذا تراكمت أفسدت القلوب وأورثتها القسوة والغفلة التي هي الشقاء هـ.

والحديث إسناده ضعيف قال ابن معين علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة هي ضعاف كلها وقال البخاري وغيره في علي بن يزيد منكر الحديث قاله في الزوائد هـ.

قوله : أيكم يحفظ يحتمل أنه استفهام حقيقة وأنه كان سمع في الفتنة حديثا لم يحفظه ويحتمل أنه عرفه ولكن أراد أن يعلمه الحاضرون.

قوله : إنك لجريئ أي لجسور والجسارة الجراءة.

قوله : (فتنة الرجل في أهله وولده وجاره)، الفتنة لغة : الإختبار وعرفا : كل أمر كشف الإختبار عن سوءه قال أبو زيد: فتن الرجل إذا وقع في الفتنة، وتحول عن حالة حسنة إلى سيئة، وفتنة الأهل والمال والولد ضروب من فرط محبته لهم، وشحه عليهم وشغله بهم عن كثير من الخير وتفريطه فيما يلزمه من تأديبهم وتعليمهم كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ﴾ الآية، وقال عليه السلام : «الولد مبخلة مجبنة» وقال : «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته والرجل راع على أهله» هـ.

قوله : (تكفرها الخ)، أي الذنوب التي تصدر عنه في شأن الأهل والمال والجار، تكفرها صالح الأعمال من الصلاة وغيرها قال تعالى: ﴿إِن الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾.

قوله : (ليس هذا)، أي هذا الحديث - أريد إنما أريد التي تموج - أي حديث الفتنة التي تموج - كموج البحر -.

قوله : (إن بينك وبينها)، أي بين الوقت الذي أنت فيه، وبينها وجودك الذي يمنزلة الباب المغلق، أي لا يخرج منها شيء في حياتك. **قوله :** (فيكسر ذلك الباب أو يفتح الخ)، وفي رواية لمسلم : إن بينك وبينها بابا مغلقا يوشك أن يكسر الخ، وقد فسر الباب المغلق بدخول الفتن على الإسلام وكسره قتله هـ.

قوله : (ليس بالأغاليط) واحدها أغلوطة وهي : التي يغالط بها، فالمعنى كلاما محققا لا غلط فيه ليس عن رأي، ولا من صحف

أهل الكتاب، وإنما عن رسول الله ﷺ وقال الداودي : معناه ليس بالأمر اليسير الرؤية، والصواب الأول والله أعلم.

قوله : (فسأله فقال عمر)، أي فإن بموته انكسر باب الفتن وتولى عثمان فابتدأت وعظمت واشتعلت نارها، وهكذا وستبقى مرة بالحسام، ومرة بالكلام ما دامت الدنيا.

قوله : (ومنا من ينتضل) من المناضلة وهي المرامات بالسهام.
قوله : (ومنا من هو في جشرة) ضبط بضم الجيم وشين معا أي في إخراج الدواب إلى الرمي.

قوله : (الصلاة جامعة) هو بنصب الصلاة على الإغراء وجامعة على الحال قال الأبي : الأظهر أن المراد بالصلاة، الصلاة لغة أي الدعوة جامعة، وهو كلام جرى العرف به في نداء القوم لأمرهم، وكان ابن عرفة يحمله على أنها صلاة الفرض، فأخذ منه ما يفعله المؤذنون اليوم من التحضير عند فراغهم من الأذان، وأنه ليس ببدعة خلاف ما ذهب إليه بعض متأخري التونسيين من أنه بدعة، وكان أيضا يستحسن هذا الأخذ وفيه نظر لأنه وإن سلم أنها صلاة الفرض، فإنه لم يتكرر ذلك، وإنما يستعمل في الدعاء لأمر مهم هـ.

قوله : (وإن أمتكم هذه جعلت عافيتها في أولها الخ)، هذه معجزة ظاهرة لأنه كذلك وقع وهو بين من حال الصدر الأول، فإن العافية واجتماع الكلمة وسلامة الحال واستقامة الطريق كان من خلافة أبي بكر إلى زمن عثمان رضي الله عنهما.

قوله : (ثم تجيء فتنة يرفق بعضها بعضا) قال النووي : هذه اللفظة رويت على أوجه : أحدهما وهو الذي نقله القاضي عن جمهور الرواة بضم الياء وفتح الراء بقافين، أي يصير بعضها

رفيقا ضعيفا أي خفيفا لعظم ما بعده، فالثاني يجعل الأول رفيقا وقيل : معناه يشبه بعضها بعضا وقيل : يدور بعضها في بعض ويذهب ويجيء به وقيل : يشوق بعضها إلى بعض بتحسينها وتسديلها الثاني : بفتح الياء وإسكان الراء وبعدها فاء مضمومة الثالث : يرفق بالdal المهملة الساكنة وبالفاء المكسورة أي يدفع ويصب والدفع الصب هـ.

قوله : (وهو يؤمن بالله الخ)، هو إرشاد لعدم التلبس بالفتنة، لأن الإيمان إنما يحصل بتحصيل خصاله والتلبس بخصاله مناف للفتنة.

قوله : (وليات إلى الناس الخ)، هو من جوامع كلمه ﷺ وبديع حكمه قال النووي : وهذه قاعدة مهمة وهو معيار يعير به الإنسان فعله ويميز قبيحه من حسنه هـ.

قوله : (فأعطاه صفقة يمينه وثمره قلبه)، يعني بصفقة يمينه عهده وميثاقه، لأن المتعاقدين يضع أحدهما يده في يد الآخر كما يفعل المتبايعان، ويعني بثمره قلبه صدق نيته في البيعة.

قوله : (فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر) قال عياض : ذهب بعضهم إلى أن المراد بقتله خلع وإماته ذكره. والظاهر أنه القتل حقيقة لا سيما مع قوله : فاضربوا عنق الآخر، ولكن هذا إذا لم يجب إلى الخلع وأماته الذكر بغير حرب، وإن لم يجب إلى الخلع إلا بقتال فإن دعت الضرورة إلى قتله في محاربته قتل هـ.

قال النووي : معنى فاضربوا عنق الآخر ادفعوا الثاني، لأنه خارج عن الإمام، فإن لم يندفع إلا بقتال قوتل فإن دعت المقاتلة إلى قتله جاز قتله ولا ضمان فيه لأنه متعدد هـ.

باب التثبت في الفتنة

قوله : (يغربل الناس فيه) على بناء المفعول أي يذهب خيارهم ويبقى شرارهم وأرذلهم.

قوله : (حثالة) بضم الحاء المهملة والثاء المثناة، الرديء من كل شيء والمراد أرذلهم.

قوله : (قد مرجت)، بكسر الراء على بناء الفاعل أي اختلفت وفسدت.

قوله : (على خاصتهم)، أي على ما يختص بكم من الأهل والخدم، أو على إصلاح الأحوال المختصة بأنفسهم.

قوله : (كيف أنت وموتا يصيب الناس؟)، أي بالمدينة لا الحمى كما في بعض الروايات.

قوله : (حتى يقوم البيت بالوصيف)، أي بالعبد قيل : المراد بالبيت القبر أي يباع موضع القبر بعبد وصيف لارتفاع مواضع القبور من كثرة الأموات وقيل : المراد بالبيت المتعارف والمعنى : أن البيوت تصير رخيصة لكثرة الموت وقلة من يسكنها، فيباع البيت بعبد مع أن البيت عادة يكون أكثر قيمة.

قوله : (كيف أنت؟ وقتلا يصيب الناس حتى تغرق حجارة الزيت بالدم) حجارة الزيت موضع بالمدينة، في الحرة سمي بها سواد الحجارة كأنها طليت بالزيت أي الدم يعلو حجارة الزيت ويسترها لكثرة القتلى قيل : هذا إشارة إلى وقعة الحرة التي كانت زمن يزيد.

قوله : (الحق بمن أنت منه)، أي بأهلك وعشيرتك الذين خرجت من عندهم أي ارجع إليهم.

قوله : (فإن دخل بيتي) على بناء المفعول قال : (إن خشيت أن يبهرك شعاع السيف فالق طرف رداءك الخ)، قيل المراد : الإخبار بهذه الوقائع على احتمال أن أبادر، لعله يدركها وإلا فأبو ذر مات قبل وقعة الحرة، فإنه مات في خلافة عثمان، وأما وقوع الجوع والموت بالمدينة فيحتمل إن أدركها أبو ذر لأنه وقع قحط وموت بها في عام الرمادة وغيره هـ.

هذا وقد قال القاضي رحمه الله : اختلف السلف فقالت طائفة : لا يدخل في فتن المسلمين، ومن دخلت عليه فئة يطلبون قتله، فلا يدافع عن نفسه، لأن الطالب متناول وهو مذهب أبي بكره الصحابي وقال : لو دخلوا عليّ ما بهشت بقصبة فكيف أقاتل وقال ابن عمر وعمران بن حصين : لا يدخل فيها، ولكن إن قصد فليدافع عن نفسه وقال معظم الصحابة والتابعين : يجب نصر المحق في القتال والقيام معه، ومقاتلة الباغي كما قال تعالى : ﴿فقاتلوا التي تبغي﴾ الآية، وهذا هو الصحيح، وتحمل أحاديث النهي على من لم يظهر له الحق والمصيب من الفئتين، أو يحمل على طائفتين مبطلتين، لا تأويل لواحدة منهما فهذه الصورة هي التي يحرم الدخول فيها، وفي الصورة الأولى يجب الكف حتى يتبين الحق، فإذا تبين وجبت نصره أهله، ولو وجب الكف وعدم الدخول كما قال الأولون لم يقدّم الله بحق، ولا أبطل باطل، ولوجد أهل البغي السبيل وظهر الفساد هـ.

قوله : (فبيوء بإثمك وإثمك) يبيء لدخوله في الفتنة، وإثمك في قتله إياك أو بإثمك في إكراهه إياك، وفيه أنه لا حرج على المكره في هذه المسألة، والمكره من لا يملك نفسه ولم يختلف أن الإكراه على القتل أو على الظلم للغير لا يعذر به، واختلف في الإكراه على المعاصي

التي بين العبد وربّه هل يعذر بها في أمر الدنيا والآخرة أو لا يعذر؟
قاله عياض هـ.

قوله : (ويخلف له هباء من الناس)، أي ناس بمنزلة الغبار.
قوله : (كقطع) جمع قطعة أي كان كل واحدة من تلك الفتن
قطعة من الليل في الظلمة والإلتباس.

قوله : (القاعد فيها الخ)، أي القاعد في زمانها عنها والمراد
بالقائم : الذي لا يستشرفها، وبالماشي من يمشي في أسبابه لأمر
سواها، فربما يقع سبب مشيه في أمر يكرهه، وحكى ابن التين عن
الداودي : أن الظاهر أن المراد من يكون مباشرا لها في الأحوال كلها،
يعني أن بعضهم في ذلك أشد من بعض فأعلاهم في ذلك الساعي
فيها، بحيث يكون سببا لإثارتها ثم من يكون قائما بأسبابها وهو
الماشي، ثم من يكون مباشرا لها وهو القائم، ثم من يكون مجتنباً لها
ولا يباشر ولا ينظر، وهو المضطجع اليقظان، ثم من لا يقع منه
شيء من ذلك، ولكنه راض وهو النائم والمراد بالأفضلية في هذه
الخيرية : من يكون أقل شراً فمن فوقه على التفصيل المذكور قاله
في الفتح هـ.

قوله : (فكسروا قسيكم) القسي بكسر القاف وتشديد الياء جمع
قوس، والقوس يذكر ويؤنث.

قوله : (وقطعوا أوتاركم) جمع وتر كسبب، ما يشد في القوس.
قوله : (كخير آبنى آدم وهو هابيل حين استسلم للقتل وقال
لأخيه قابيل : لئن بسطت إلي يدك لتقتلني، ما أنا بباسط يدي إليك
لأقتلك، إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك، يريد الصبر على الموت فيها
أحسن من الحركة، لكون الحركة تزيد في الفتنة والمسألة مختلف
فيها كما تقدم.

قوله : (فأت بسيفك أحدا) بضمّتين الجبل المعروف (فاضربه حتى ينقطع) قيل المراد : كسر السيف ليسد عن نفسه باب الفتنة وقيل : هو مجاز وكناية عن ترك القتال.

قوله : (يد خاطئة) أي يد نفس خاطئة، والمراد حتى يأتيك من يقتلك.

قوله : (أو منية) أي موت، والحديث إسناده صحيح إن ثبت سماع حماد بن سلمة عن ثابت البناني قاله في الزوائد هـ.

باب إذا التقى المسلمان بسيفيهما

قوله : (إذا التقى المسلمان بسيفهما)، أي ونحوهما قال المناوي: وفيه حذف تقديره متقاتلين قال عياض : هذا في القتال عصبية، أو في دنيا لا في قتال التأويل الواقع في الصدر الأول ولغير أهل الحق فيه غلو واضطراب ومغالاة شنيعة بشيعة، والذي عليه أهل الحق حسن الظن بهم والإمساك عما شجر بينهم وطلب أحسن التأويل لفعلهم، وهو أنهم مجتهدون غير قاصدين العصبية وبهجة الدنيا، والمصيب منهم في اجتهاده له أجران، والمخطيء غير آثم كالاجتهاد في فروع الدين، ووقف الطبري وغيره عن تعبير المصيب المحق منهم، والمصيب عند الجمهور علي وأصحابه لذبحهم عن الإمامة بعد عقدها، وقتالهم من نازع فيها إذ كان علي أحق بالإمامة، وأفضل أهل الأرض حينئذ وغيره متأول في وجوب القيام بتغيير المنكر في قتلة عثمان الذين في عسكر علي، وأنهم لا يبائعون عليا، ولا يعتقدون الإمامة حتى يقضي بذلك، ولم يطلبوا سوى ذلك، ولم ير على دفعهم لهم، لأن الحكم فيهم للإمام، وكان الأمر لم يستقر، ولم

تجتمع الكلمة، وكان القتلة أهل عصبية ولهم عدد وشركة، فلو أسلمهم أو اقتص هو منهم لاضطرب الأمر وتوقف جماعة عن الدخول في شيء من ذلك محتجين بظاهر هذا الحديث، كما احتج به أبو بكر قال القرطبي : توقف من توقف في هذا الحديث، إنما هو لعدم تيقنه الصواب، ولو تيقنه لم يتوقف هـ.

قوله : (فالقاتل والمقتول في النار) قال العلقمي : قال العلماء معنى كونهما في النار أنهما يستحقان ذلك، لكن أمرهما إلى الله تعالى إن شاء عاقبهما، ثم أخرجهما من النار كسائر الموحدين، وإن شاء عفا عنهما فلم يعاقبهما أصلاً وقيل : هو محمول على المستحل ذلك هـ.

قوله : (هذا القاتل) قال العلقمي : مبتدأ وخبره محذوف أي هذا القاتل يستحق النار.

قوله : (فما بال المقتول)، أي فما ذنبه (قال إنه أراد قتل صاحبه) أي بلا تأويل فيه حجة للقاضي أبي بكر أن العزم على الذنب معصية يؤاخذ بها بخلاف الهم، ومن يخالفه يقول : هذا أكثر من العزم وهو المواجهة والقتال هـ.

قوله : (فهما على جرف جهنم) وفي رواية فهما في حر جهنم، وفي رواية : في حرف بالحاء المهملة وكلها متقاربة والمعنى : أن حالهما مفضية إلى قتل أحدهما الآخر فحالهما حال من حل على حرفها أو جرفها قريب من السقوط فيها والله أعلم.

قوله : (أذهب آخرته بدنياه غيره) أي قتل غيره ليأخذ دنياه، فأذهب بذلك آخرته أو أنه أعان ظالماً وجر إليه الدنيا فذهب به دينه والله أعلم.

باب كف اللسان في الفتنة

قوله : (تستنظف العرب)، أي تستأصلهم هلاكاً - قتلاً في النار - مبتدأ وخبر، وإنما كانوا في النار، لأنهم ما قصدوا بالقتال إعلاء كلمة الله، ودفع ظلم أو إغانة أهل حق، وإنما قصدوا التباهي والتفاخر فعلوا ذلك طمعاً في المال والملك.

قوله : (أشد من وقع السيف) بسكون القاف، والقصد منع اللسان من الوقوع في الباطل.

قوله : (إياكم والفتن)، أي تباعدوا عن أهل الفتن، فلا تخالطوهم فإن كلامهم بين أهل الفتن يجر إلى السيف والقتال، ولذا كان بعض الصحابة يأكل من طعام معاوية ويصلي خلف علي ويجلس على المزابل فيسأل عن ذلك فيقول: طعام معاوية أدمم وعلي أعلم والجلوس على المزابل أسلم أي التباعد عن الفتنة الواقعة بينهم أسلم، والحديث في إسناده محمد بن عبد الرحمان وهو ضعيف وأبوه لم يسمع من ابن عمر قاله في الزوائد هـ.

قوله : (إن الرجل ليتكلم بالكلمة)، أي الواحدة واللام للجنس، فالمراد الكلام المشتتم على ما يفهم الخير أو الشر طال أو قصر كما يقال : كلمة الشهادة وكما يقال : للقصيدة كلمة فلان.

قوله : (من رضوان الله)، أي كلام فيه رضاه تعالى، يدفع به مظلمة أو يجر به منفعة.

قوله : (ما يظن أن تبلغ ما بلغت)، أي تلك الكلمة من الرضوان لقلتها - فيكتب الله عز وجل - له بها رضوانه إلى يوم القيامة - الغاية به عبارة عن كونه لا يسخط عليه أبداً.

قوله : (من سخط الله) مصدر بمعنى إسم الفاعل أي من الكلام المسخط أي المغضب لله الموجب عقابه.

قوله : (ما بلغت) أي من المؤاخذة بها - فيكتب الله عليه بها خطه الخ - ثم إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه قال ابن عيينة : هي الكلمة عند السلطان، فالأولى ليرد بها عن ظلم والثانية ليجره بها إلى ظلم قال أبو عمر : لا أعلم خلافاً في تفسيره بذلك، وإن كان لا يتعين قصره عليه، فقد روى الحاكم : كان رجل يدخل على الأمراء فيضحكهم فقال له علقمة : ويحك لم تدخل على هؤلاء فتضحكهم؟ سمعت بلال بن الحارث فذكره قال مالك : قال بلال بن الحارث : لقد منعني هذا الحديث من كلام كثير.

قوله : (لا يرى بها بأساً)، وفي رواية : وما يلقي بضم الياء وكسر القاف في جميع الروايات لها بالاً، أي لا يتأملها بخاطره ولا يتفكر في عاقبتها، ولا يظن أنها تؤثر شيئاً وهو من نحو قوله تعالى: ﴿وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم﴾.

قوله : (فيهوى) بفتح الياء وسكون الهاء وكسر الواو - بها في نار جهنم - قال عياض : أي ينزل فيها ساقطاً وجاء بلفظ ينزل بها في النار، لأن النار إلى أسفل فهو نزول سقوط وقيل : أهوى من قريب وهوى من بعيد هـ.

قوله : (سبعين خريفاً)، أي قدراً من المسافة يقطع في سبعين سنة زاد في رواية لمالك في الموطأ : وأن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بالاً يرفعه الله بها في الجنة، زاد في رواية البخاري درجات قال ابن عبد البر : الكلمة الأولى هي التي يقولها عند سلطان جائر، زاد بن بطلال بالبغي أو بالسعي على المسلم، فتكون سبباً لهلاكه، وإن لم يرد القائل ذلك. لكنها ربما أدت إليه فيكتب على القائل

إثمها، والكلمة التي يرفع بها الدرجات ويكتب لها الرضوان هي التي يدفع بها عن المسلم مظلمة أو يفرج بها عنه كربته أو ينصر بها مظلوما وقال غيره: الأولى هي الكلمة عند ذي سلطان يرضيه بها فيما يسخط الله قال ابن التين : هذا هو الغالب وربما كانت عند غير السلطان ممن يتأتى منه ذلك، ونقل عن ابن وهب : أن المراد بها التلفظ بالسوء والفحش ما لم يرد بذلك الحجة لأمر الله في الدين وقال عياض : يحتمل أن تكون الكلمة من الخنا والرفث، وأن يكون في التعريض بالمسلم بكبيرة أو مجون أو إستخفاف بحق النبوة والشرعية، وإن لم يعتقد ذلك وقال العز بن عبد السلام : هي الكلمة التي لا يعرف قائلها حسننها من قبحها قال : فيحرم على الإنسان أن يتكلم بما لا يعرف حسنه من قبحه وقال النووي : فيه حفظ اللسان، فينبغي لمن أراد أن ينطق أن يتدبر ما يقول قبل أن ينطق فإن ظهرت فيه مصلحة تكلم وإلا أمسك وقال الغزالي : عليك بالتأمل والتدبر في كل قول وفعل فقد يكون في جزع وتسخط فتظنه تضرعا وابتهاالا، ويكون في رياء محض وتحسبه حمدا وشكرا أو دعوة للناس إلى الخير، فتعد المعاصي طاعات، وتحسب الثواب العظيم في موضع العقوبات فتكون في غرور شنيع وغفلة قبيحة مغضبة لله موقعة في النار هـ.

قوله : (من كان يؤمن بالله)، إي إيماننا كاملا - واليوم الآخر - أي الذي إليه معاده وفيه جزاؤه فهو إشارة إلى المبدأ والمعاد، وهذا من خطاب التهيينج من قبيل، (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) أي إن ذلك من صفات المؤمن، وإن خلافه لا يليق بمن يؤمن بذلك ولو قيل : لا يحل لأحد لم يحصل هذا الغرض.

قوله : (فليقل خيراً)، أي يثاب عليه بعد التفكير فيما يريد التكلم به، فإذا ظهر له أنه خير لا يترتب عليه مفسدة قاله - أو ليست - أي عن الشر فيسلم لحديث : «من صمت نجا» قال القرطبي : معناه أن المصدق بالثواب والعقاب المترتبين على الكلام في الدار الآخرة لا يخلو إما أن يتكلم بما يحصل له ثواباً أو خيراً فيغنم أو يسكت عن شيء يجلب له عقاباً أو شراً فيسلم، فأو للتقسيم والتنويع فيسن له الصمت حتى عن المباح لأدائه إلى محرم أو مكروه، ويفرض خلوه عن ذلك فهو ضياع الوقت فيما لا يعني، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه قال : وأفاد الحديث أن قول الخير أفضل من الصمت لتقديمه عليه، وإنما أمر به عند عدم قول الخير، وقد أكثر الناس في تفصيل آفات الكلام، وهي أن تدخل تحت حصر وحاصله: إن آفات اللسان أسرع الآفات للإنسان وأعظمها في الهلاك والخسران، فالأصل ملازمة الصمت حتى تتحقق السلامة من الآفات والحصول على الخيرات فحينئذ تخرج تلك الكلمة مخطومة بأزمة التقوى مزمومة، وهذا من جوامع الكلم، لأن الكلام كله خير أو شر أو آثل إلى أحدهما، فدخل في الخير كل مطلوب من فرض أو نفل، فأذن فيه على اختلاف أنواعه ودخل فيه ما يؤول إليه وما عدا ذلك مما هو شر أو يؤول إليه، فأمر بالصمت عنه فكل من آمن بالله حق الإيمان خاف وعيده ورجا ثوابه، ومن آمن باليوم الآخر استعد واجتهد في فعل ما يدفع به أهواله، فيأتمر بالأوامر وينهى عن النواهي، ويتقرب لمولاه بما يقربه إليه ويعلم أن ما عليه ضبط جوارحه، ومن أكثر المعاصي عدا وأيسرها فعلاً معاصي اللسان، وقد استقرأ المحاسبون لأنفسهم آفات اللسان، فزادت على العشرين وأرشد ﷺ إلى ذلك جملة فقال في حديث معاذ الآتي (وهل

يكب الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم) إلى غير ذلك، فمن آمن بذلك حق إيمانه إتقى الله في لسانه وقد قال ابن مسعود وسلمان : ما شيء أحق بطول السجن من اللسان.

قوله : (حدثني بأمر أعتصم به)، وفي رواية لمسلم قال : قلت يارسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا غيرك قال : قل ربي الله، وفي رواية : قل آمنت بالله أي ويجمع ما يجب الإيمان به من المعتقدات - ثم استقم - أي على أداء الطاعات وانتهاء المخالفات ثم لعظم أمر الاستقامة قال ﷺ : شيبطني هود، لأنه نزل فيها : (فاستقم كما أمرت) وهي جامعة لجميع أنواع التكاليف قال عياض فهو من جوامع كلمه ﷺ هـ.

وقال الأبي : كان من جوامعه، لأنه أجمل فيه ما فصله في ثلاث وعشرين سنة أو العشرين على الخلاف كم بقي بعد البعثة وعطف الاستقامة بثم لبعدها من رتبة الإقرار، فهي للبعد في الرتبة لا في الزمان، وكانت رتبة الاستقامة أعلى لأن الاستقامة هي الدوام على الطاعة والوقوف على قدم الصدق، فعن ابن عباس : لم يكن أشد علي رسول الله ﷺ ولا أشق من قوله تعالى : (فاستقم كما أمرت)، ولذا قال ﷺ لأصحابه حين قالوا : أسرع إليك الشيب يا رسول الله قال : شيبطني هود وأخواتها وقال ﷺ : استقيموا ولن تحصوا وجعلها بعضهم للبعد في الزمان وانتزع من الحديث أن الكفار غير مخاطبين بالفروع قال لأنه لم يأمره بالاستقامة إلا بعد الإيمان هـ.

قوله : (بعمل) التنوين فيه للتعظيم أو النوعية، أي عمل عظيم أو معتبر في الشرع فلا يراد ما قيل أنه إذا جعل يدخلني جواب الأمر يبقى بعمل غير موصوف والنكرة غير موصوفة لا تفيد.

قوله : (يدخلني الجنة)، أي أخبرني بعمل إن عملته يدخلني الجنة الخ. وفي رواية أحمد أني أريد أن أسألك عن كلمة قد مرضتني واسقمتني وأحزنتني قال : سل عما شئت قال : أخبرني بعمل يدخلني الجنة لا أسألك غيره. وفيه دليل على شدة اعتناؤه بالأعمال الصالحة وعظيم فصاحته فإنه أوجز وأبلغ، ولهذا حمد ﷺ مسألته واستعظمها وأن الأعمال سبب لدخول الجنة ويشهد له قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ولا ينافية حديث البخاري : «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا : ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته» وفي رواية : لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله، لأن العمل نفسه لا يستحق أحد به الجنة، ما لم يكن مقبولا، والقبول إنما يحصل برحمة الله أو المراد به جنة خاصة، أي تلك الجنة الخاصة الرفيعة بسبب الأعمال، وإنما الدخول فبالرحمة وإن الباء في بما كنتم للملابسة أي أورثتموها ملابسة لأعمالكم أي لثواب أعمالكم أو للعوض والمقابلة والمعطى لعوض قد يعطى مجانا لا للسببية، لأن المسبب لا يوجد بدون سبب خلافا للمعتزلة القائلين بأن العمل سبب لدخولها، وأما الباء في حديث : «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله» فهي سببية ولا كلام والله أعلم.

قوله : (لقد سألت عظيما)، أي والله لقد سألت عن أمر عظيم، لأن عظم الشيء بعظم الأسباب والنجاة من النار أمر عظيم فكيف مع دخول الجنة؟

قوله : (وإنه ليسير على من يسره الله عليه)، أي بتوفيقه وتهيئته أسباب الطاعة وشرح صدره للسعي فيما يؤديه إلى السعادة الأبدية، ﴿فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ الآية :

قوله : (تعبد الله لخ)، عدل عن صيغة الأمر تنبيهاً على أن المأمور كأنه مسارع إلى الامتثال وهو يخبر عنه إظهاراً لرغبة في وقوعه والمراد بالعبادة : النطق بالشهادتين، ولما عبر بالعبادة احتاج أن يوضحها بقوله : لا تشرك به شيئاً وتقيم لخ.

قوله : (ألا أدلكم)، أي أرشدكم - على أبواب الخير - أي طرقه وأسبابه الموصلة إليه، وفيه التشويق إلى ما سيذكر قبل ذكره ليكون أوقع في النفس على حضوره. شبه الخير بدار فيها كل ما تتمناه النفس وتهواه، والمراد أنواعه من جنس عبادة مولاه، فإن الصوم والصدقة والتهجد شديد على النفس غاية الشدة، فمن اعتادها يسهل عليه كل صنف من العبادة، لأن الأعمال إما بدنية أو مالية، فالصدقة طاعة مالية والصوم وصلاة الليل عبادة بدنية نهارية وليلية.

قوله : (جنة) بضم الجيم أي ستر من سورة الشهوة في الدنيا ووقاية من النار في العقبى كالترس قال الطيبي : إنما جعل الصوم جنة من النار، لأن الجوع سد مجاري الشيطان كما في الحديث : «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فسدوا مجاريه بالجوع، فإذا سد مجاريه لم يدخل فيه، فلم يكن سبب العصيان الذي هو سبب دخول النار، وفي خبر النسائي: الصوم جنة من النار كجنة أحدكم من القتال.

قوله : (تطفئ الخطيئة)، أي تمحو أثرها وتذهب أمرها، إذا كانت صغيرة متعلقة بحق الله تعالى، وأما إذا كانت من حقوق العباد فيدفع تلك الحسنة إلى خصمه عوضاً عن المظلمة واستعير الإطفاء لمحو الخطيئة بقرينة قوله : كما يطفئ الماء، ما مصدرية أي إطفاء مثل إطفاء الماء النار، لتنافي أثرهما بإيجاد الله فيهما، إذ

الأشياء لا تعمل بطبيعتها فلا الماء يروي ولا الخبز يشبع ولا النار تحرق ولا الماء يفرق، والحديث مستفاد من قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، إلا أن من القواعد المقررة أن الأمور المكفرة إنما هي شرط للصغيرة من حقوق الله تعالى، وأما الكبيرة فلا بد لها من التوبة بشروطها، وأما الحقوق المتعلقة بالعباد فلا بد من إرضائها بعد التوبة.

قوله : (ألا أخبرك برأس الأمر)، أي الدين أو العبادة أو الأمر الذي سألت عنه.

قوله : (وعموده أي الذي يعتمد عليه كعمود الخيمة).

قوله : (وذروة) بتثنية الذال المعجمة والكسر أفصح سنامه بفتح السين أعلاه، لأن سنام البعير ما ارتفع في ظهره أي بما هو للدين بمنزلة ذروة السنام للجمال في العلم والارتفاع وقد جاء بيان هذا بأن رأس الأمر الإسلام أي الإيتيان بالشهادة وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، لكن رواية المصنف مختصرة.

قوله : (ألا أخبرك بملاك، ذلك الأمر كله)، أي بما يملكه ويضبطه أو بمقصوده وجماعه، أو بما يقوم به بمعنى : إذا وجدت كانت تلك الأعمال كلها على غاية من الكمال ونهاية من صفاء الأحوال، لأن الجهاد وغيره من أعمال الطاعات غنيمة وكف اللسان عن المحارم سلامة، والسلامة في نظر العقلاء مقدمة على الغنيمة.

قوله : (تكف) من كفه منعه وفي رواية : أكف وفي رواية : أمسك (عليك) أي عنك أو ضمن تكف معنى تحبس (هذا) أي عن الشر فإن آفته عظيمة كما تقدم.

قوله : (ثكلتك) بمثابة وكاف مكسورة ولام مفتوحة أي فقدتك، والثكل بسكون الكاف وفتحها فقد المرأة ولدها، وليس المراد حقيقته

من الدعاء بالموت، بل هو الألفاظ التي تجري عليها الألسن في المحاورات للتأديب والتنبيه من الغفلة كتربت يداك أو أن الموت لما كان يعم كل أحد كان الدعاء به عليه كلا دعاء، وأن المراد إن قلت : هذا كأن الموت خير لك من الحياة.

قوله : (يكب) بفتح الياء وضم الكاف وتشديد الباء قال الطيبي: مضارع كبه بمعنى صرعه على وجهه، فانكب سقط على وجهه.

قوله : (إلا حصائد ألسنتهم) جمع حصيدة، بمعنى محصودة من حصد الزرع إذا قطعه أي ما تكلمت به من الإثم كالكبر والقذف والسب والنميمة وغير ذلك، شبه ما يتكلم به الإنسان بالزرع المحصود بالمنجل، فكما أن المنجل يقطع من غير تمييز بين رطب ويابس وجيد ورديء، كذلك اللسان المكثار في الكلام من غير تمييز بين ما يحسن وما يقبح والله أعلم.

قوله : (كلام ابن آدم عليه)، أي وباله عليه، ولو كان مباحا، فإن أقله تطويل الحساب، وقد يجر إلى المكروه أو المحرم فيصير سببا للعذاب أو يورث الغفلة عن الذكر فيكون وسيلة إلى نقص الثواب.

قوله : (إلا الأمر بالمعروف لـخ) قال تعالى : ﴿ولا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف﴾ لـخ.

قوله : (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)، بفتح أوله من عناه كذا إذا تعلق عنايته به، وكان من قصده يعني ترك الفضول على اختلاف أنواعه قال ابن العربي : لأن المرء لا يقدر أن يشتغل باللازم فكيف يتعداه إلى الفاضل؟ هـ.

وفي إفهامه أن من قبح إسلام المرء أخذه ما لا يعنيه، لأنه ضياع للوقت النفيس الذي لا يمكن تعويض فائته فيما لم يخلق لأجله، فإن الذي يعنيه الإسلام والإيمان والعمل الصالح، وما تعلق بضرورة حياته في معاشه من شبع وري وستر عورة وعفة فرج ونحو ذلك. مما يدفع الضرورة دون مزيد النعم، وبهذا يسلم من جميع الآفات دنيا وأخرى، فمن عبد الله على استحضار قربه من ربه أو قرب ربه منه، فقد حسن إسلامه قال الطيبي : من تبعيضية، ويجوز أنها بيانية وأثر التعبير بالإسلام على الإيمان، لأن الأعمال الظاهرة والفعل والترك، إنما يتعاقبان عليها، وزاد حسن إيماء إلى أنه لا يتميز بصورة الأعمال فعلا وتركها، إلا إن اتصف بالحسن بأن توفرت شروط مكملاتها، فضلا على المصححات وجعل ترك ما لا يهم من العلوم، وترك الأهم منه، كمن ترك تعلم العلم الذي فيه صلاح نفسه، واشتغل بتعلم ما يصح به غيره كعلم الجدل ويقول في اعتذاره نيتي نفع الناس ولو كان صادقا لبدأ باشتغاله بما يصلح به نفسه وقلبه من إخراج الصفات المذمومة من نحو حسد ورياء وكبر وعجب وتراؤس على الأقران، وتناول عليهم ونحوها من المهلكات قال ابن عبد البر: هذا الحديث في الكلام الجامع للمعاني الكثيرة الجليلة في الألفاظ القليلة، وهو مما لم يقله أحد قبله عليه السلام، لكن روى معناه عن صحف إبراهيم مرفوعا، ثم أخرج بسنده عن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله : ما كانت صحف إبراهيم؟ قال : كانت امتثالا كلها الحديث. وفيه على العاقل أن يكون بصيرا بزمانه مقبلا على شأنه حافظا للسانه، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه.

وقيل للقمان الحكيم : ما الذي بلغ بك ما نرى؟ أي من الفضل قال : قدر الله وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعنيني وروى أبو عبيدة عن الحسن : من علامة إعراض الله عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه وقال أبو داود : أصول السنن في كل فن أربعة أحاديث، هذا وحديث الأعمال بالنيات والحلال بين وازهد في الدنيا وقال الباجي : قال حمزة الكناني : هذا الحديث ثلث الإسلام والثاني الأعمال بالنيات والثالث الحلال بين والحرام بين وقال غيره : هو نصف الإسلام وقيل كله هـ.

باب العزلة

قوله : (خير معاش الناس لهم رجل ممسك بعنان فرسه لخ)، أي خير طرق الكسب الجهاد، لكن إذا كان أصل النية في الجهاد إعلاء كلمة الله قال عياض : فيه أن نية الكسب وأخذ الغنيمة لا تؤثر في الأجر، ولكن إذا كان الباعث له قصد الجهاد هـ.

قوله : (ممسك بعنان فرسه)، أي ملازم له كثير الركوب عليه للحرب والجهاد، وليس المراد الدوام على ظهر الفرس إذ لا بد من النزول.

قوله : (ويطير أو يجري على متنه)، أي ظهره - كلما سمع هيعة - قال المازري : الهيعة الصوت الذي يفزع منه يقال : هاع يهيع هيوعا وهيئانا إذا حبن وهاع يهاع، إذا جاع وإذا تهوع.

قوله : (يبتغي الموت أو القتل مظانه)، أي يطلبه في موطنه التي يرجى فيها لشدة رغبته في الشهادة.

قوله : (في رأس شعفة) بفتح الشين والعين واحدة الشعف وهي رؤوس الجبال ومعناه يفر بنفسه من الفتن.

قوله : (في الآخر أي الناس أفضل قال رجل مجاهد في سبيل الله لخ قال عياض : ليس هو على عمومه، لأن الأنبياء والصديقين أفضل وكذا العلماء كما شهدت به الأحاديث الصحيحة، والمراد من أعمال البر غير ما ذكره.

قوله : (ثم امرؤ في شعب)، بكسر الشين وضمها وهو ما انفرج بين جبلين وليس المراد الشعبة خصوصاً، بل المراد الانفراد عن الناس، وذكر الشعب مثلاً، لأنه خال عن الناس في الغالب عياض، فيه فضل العزلة وكأنه يشير إلى ما بعده من الفتن، حيث تكون الفتنة أفضل من الدخول فيما الناس فيه أوفى حق من لا قدرة له على الجهاد، أو في غيره زمن الجهاد، وهو ممن لا ينتفع بعلمه ونظره في مصالح المسلمين فهو مخصوص ببعض الناس هـ.

قال النووي : فيه دليل لمن قال بتفضيل العزلة على الاختلاط، وفي ذلك خلاف مشهور ومذهب الشافعي و أكثر العلماء أن الاختلاط أفضل بشرط السلامة من الفتن، ومذهب طوائف أن الاعتزال أفضل وأجاب الجمهور عن الحديث : بأنه محمول على زمن الفتن، أو فيمن لا يسلم الناس منه، وقد كانت الأنبياء وجماهير الصحابة والتابعين والعلماء والزهاد مخالطين، فيحصلون مصالح الاختلاط كشهود الجماعة والجمعة والجنائز وعبادة المرضى وحلق الذكر هـ.

قوله : (ويدع الناس من شره) قال بعضهم : فيه إشارة إلى أن صاحب العزلة ينبغي له أن ينظر في العزلة إلى ترك الناس عن شره،

لا إلى خلاصه من شرهم، ففي الأول تحقير النفس وفي الثاني تحقيرهم هـ.

قوله : (دعاة) بضم الدال المهملة جمع داع إلى غير الحق (على أبواب جهنم) أطلق عليهم ذلك باعتبار ما يؤول إليه حالهم كما يقال لمن أمر بفعل محرم وقف على شفير جهنم.

قوله : (هم قوم من جلدتنا)، أي من قومنا ومن أهل لساننا وملتنا قال في الفتح : وفيه إشارة إلى أنهم من العرب وقال الداودي: أي من بني آدم وقال القاسبي : معناه أنهم في الظاهر على ملتنا، وفي الباطن مخالفون وجلدة الشيء ظاهره وفي الأصل غشاء البدن قيل : ويؤيد إرادة العرب أن السمرة غالبية عليهم، واللون إنما يظهر في الجلد ووقع في رواية أبي الأسود : فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس.

قوله : (جثمان) بضم الجيم وسكون المثناة هو الجسد، ويطلق على الشخص هـ.

قوله : (فالزم جماعة المسلمين وإمامهم)، بكسر الهمزة أي أميرهم قال في الفتح : زاد في رواية أبي الأسود تسمع وتطيع، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك، وكذا في رواية خالد بن سبيع عند الطبراني : فإن رأيت خليفة فالزمه، وإن ضرب ظهرك فإن لم يكن خليفة فالهرب هـ.

قوله : (ولو أن تعض) بفتح العين المهلة وتشديد الضاد المعجمة أي ولو كان الاعتزال بالعض فلا تعدل عنه.

قوله : (وأنت كذلك) هو كناية عن لزوم جماعة المسلمين وطاعة سلاطينهم ولو عصوا قال البيضاوي : المعنى إذا لم يكن في الأرض

خليفة فعليك بالعزلة والصبر على تحمل شدة الزمان، وعض أصل الشجرة، كناية عن مكابدة المشقة كقولهم : فلان يعض الحجارة من شدة الألم، أو المراد اللزوم كقوله : عضوا عليها بالنواجذ قال في الفتح قال الطبراني : اختلف في هذا الأمر، وفي الجماعة فقال قوم : هو للوجوب والجماعة السواد الأعظم، ثم ساق عن محمد بن سيرين عن أبي مسعود أنه وصى من يسأله لما قتل عثمان عليك بالجماعة، فإن الله لم يكن ليجمع أمة على ضلالة فإن الله لم يكن ليجمع أمة محمد على ضلالة وقال قوم: المراد بالجماعة الصحابة دون من بعدهم وقال قوم : المراد بهم أهل العلم، لأن الله جعلهم حجة على الخلق والناس تبع لهم في أمر الدين قال الطبري : والصواب أن المراد من الخبر لزوم الجماعة الذين في طاعة من اجتمعوا على تأميره، فمن نكث بيعته خرج عن الجماعة قال : وفي الحديث أنه متى لم يكن للناس إمام، فافترق الناس أحزابا، فلا يتبع أحدا في الفرقة ويعتزل الجميع إن استطاع ذلك خشية من الوقوع في الشر، وعلى ذلك يتنزه ما جاء في سائر الأحاديث، وبه يجمع بين ما ظاهره الاختلاف منها هـ.

وأول الحديث على ما في الصحيحين عن حذيفة قال : كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت : يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال : نعم قلت : فهل بعد ذلك الشر من خير قال : نعم وفيه دخن قلت : وما دخنه؟ قال : قوم يستنون بغير سنتي ويهدون بغير هدي، تعرف منهم وتنكر فقلت : فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال : نعم دعاة على أبواب جهنم الحديث، قال في الفتح : قال ابن حمزة : في الحديث : حكمة الله في

عباده كيف أقام كلا منهم فيما شاء؟ فحبب إلى أكثر الصحابة السؤال عن وجوه الخير ليعلموا بها ويبلغوها غيرهم وحبب لحذيفة السؤال عن الشر ليجتنبه ويكون سببا في دفعه عمن أراد له النجاة، وفيه سعة صدر النبي ﷺ ومعرفته بوجوه الحكم كلها، حتى كان يجيب كل من سأل به بما يناسبه، ويؤخذ منه أن كل من حبب إليه شيء فإنه يفوق فيه غيره حتى خص بمعرفة أسماء المنافقين، وبكثير من الأمور الآتية ويؤخذ منها أن من آداب التعليم أن يعلم التلميذ من أنواع العلوم ما يراه مائلا إليه من العلوم المباحة، فإنه أجدر أن يسرع إلى تفهمه والقيام به، وإن كل شيء يهدي إلى طريق الخير يسمى خيرا، وكذا بالعكس، ويؤخذ منه ذم من جعل للدين أصلا خلاف الكتاب والسنة وجعلهما فرعاً لذلك الأصل الذي ابتدعه، وفيه وجوب رد الباطل وكل ما خالف الهدى النبوي، ولو قاله من قاله من رفيع أو وضع هـ.

قوله : (يوشك لـخ)، قال في الفتح : هو بكسر الشين المعجمة أي يسرع وزنه ومعناه : ويجوز يوشك بفتح الشين وقال الجوهري : هي لغة رديئة وقوله : أن يكون خير مال المسلم يجوز في خير الرفع والنصب، فإن كان غنم بالرفع فالنصب، وإلا فالرفع، ثم قال : والأشهر في الرواية غنم بالرفع وقد يجوز بعضهم رفع خير مع ذلك على أن يقدر في يكون ضمير الشأن وغنم وخير مبتدأ وخبر، ولا يخفى تكلفه وقوله : شعث الجبال بفتح الشين المعجمة والعين المهملة بعدها فاء رؤوس الجبال والمرعى فيها والماء، ولا سيما المعجمة والعين المهملة بعدها فاء رؤوس الجبال والمرعى فيها والماء، ولا سيما في بلاد الحجاز أيسر من غيرها، ووقع عند بعض رواة الموطأ بضم أوله وفتح ثانيه، وبالموحدة بدل الفاء جمع شعبة

وهي : ما انفرج بين جبلين ولم يختلفوا في أن الشين معجمة ووقع لغير مالك كالأول، ولكن السين مهملة.

قوله : يفر بدينه من الفتن قال الكرمانى : هذه الجملة حالية وذو الحال الضمير المستتر في يتبع أو المسلم، إذا جوزنا الحال من المضاف إليه، فقد وجد شرطه وهو شدة الملابس وكأنه جزء منه واتحاد الخير بالمال واضح، ويجوز أن تكون استئنافية وهو واضح هـ.

والخبر دال على فضيلة العزلة لمن خاف على دينه وتقدم الخلاف في ذلك.

قوله : (في الآخر وأنت عاض على جذل شجرة، (الجذل بكسر الجيم وسكون المعجمة بعدها لام) عود ينصب لتحتك به الإبل.

قوله : (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)، قال ابن بطال : هذا الكلام مما لم يسبق إليه ﷺ، وأول ما قاله لأبي عزة الجمحي، وكان شاعرا فأسر ببدر فشكا عائلة، وفقرا فمن عليه النبي ﷺ وأطلقه بغير فداء، فظفر به بأحد فقال : مَنْ علي فقال : وذكر فقرا وعائلة فقال : لا تمسح عارضيك بمكة تقول : سخرت بمحمد مرتين وأمر به فقتل، أخرج قصته ابن إسحاق في المغازي بغير إسناد وقال ابن هشام في تهذيب السيرة : أن النبي ﷺ قال حينئذ : لا يلدغ فذكره، وقوله : لا يلدغ المؤمن هو بالرفع على صيغة الخبر قال الخطابي : هذا لفظه خبر ومعناه أمر، أي ليكن المؤمن حازما حذرا لا يؤتى من ناحية الغفلة فيخدع مرة أخرى، وقد يكون ذلك في أمر الدين، كما يكون في أمر الدنيا وهو أولاهما بالحدز وقال أبو عبيدة : معناه لا ينبغي للمؤمن إن نكب من وجه أن يعود إليه قلت : وهذا لا يفهمه الأكثر ومنهم الزهري راوي الخبر. وقال أبو داود الطيالسي : لا

يعاقب في الدنيا بذنب فيعاقب به في الآخرة، وحمله غيره على غير ذلك قلت : إن أراد قائل هذا أن عموم الحديث يتناول هذا فيمكن وإلا فسبب الحديث يأبى ذلك قيل : المراد بالمؤمن في هذا الحديث الكامل الذي أوقفته معرفته على غوامض الأمور حتى صار يحذر مما سيقع، وأما المؤمن المغفل فقد يلدغ مرارا من جحر قال ابن بطال : وفيه أدب شريف أدب به النبي ﷺ أمته ونبههم كيف يحذرون مما يخافون سوء عاقبته هـ.

وقال المناوي : هو تمثيل أي المؤمن الكامل يندم على خطيئته ويأخذه القلق ويتلوى كاللديغ بخلاف المؤمن المخط فإنه يلدغ مرات هـ

باب الوقوف عند الشهاب

قوله : (وأهوى بأصبعيه إلى أذنيه) قال عياض : العراقيون يصححون سماع النعمان من النبي ﷺ، والمدنيون لا يصححونه، والحديث حجة للعراقيين، وذكر البخاري الحديث من طرق وفي بعضها : قال النبي ﷺ وفي بعضها : سمعت رسول الله ﷺ هـ.

قوله : (الحلال بين) الحلال هو كالحل ما انحلت عنه التبعات ضد الحرام، وهو من باب ضرب يضرب، وأما الحل بالمكان فهو من باب نصر ينصر قال الأبي : ويعني بالبين من كل منهما ما استقر الشرع على حليته أو تحريمه كحلية لحم الأنعام وتحريم لحم الخنزير قال الغزالي : ولا يظن الجاهل أن الحلال مفقود، وأن السبيل إلى الوصول إليه مسدود حتى لم يبق من الطيب إلا الماء والحشيش النابت في الموات، وما عدا ذلك فقد خربته الأيدي العادية وأفسدته المعاملات الفاسدة، فإنه ليس الأمر كذلك، بل قال ﷺ :

الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهة، ولا تزال هذه الثلاث مفترقات كيف كانت الحال وإنما الذي فقد العلم بالحلال وكيفية الوصول إليه حتى صار لغموض علمه سببا لانذار العمل به، وتفصيل كل منهما مذكور في كتب الفقهاء هـ.

قوله : (وبينهما مشتبهات)، بضم الميم وسكون الشين المعجمة وفتح المثناة الفوقية وكسر الباء الموحدة على وزن منفعلات جمع مشتبهة، وهو ما ليس بواضح الحل ولا الحرمة، وقد اختلف فيها على أقوال الأول ما اختلف فيه العلماء كالخيل، فإنها محرمة عندمالك، لأن لام العلة في قوله تعالى : ﴿لَتَرْكَبُوها وَزِينَةً﴾، تفيد الحصر عنده ومباحة عند غيره الثاني المكروه وبه قال المارودي، لأن عقبه بين الحلال والحرام، فالورع تركه الثالث : معاملة الإنسان من في ماله شبهة أو خالطه حرام، وبه قال الخطابي الرابع: ما لم يرد فيه نص من الشارع بتحليل ولا تحريم (لا يعلمها كثير من الناس) قال المازري : يدل أن القليل يعلمها فإذا علمها ألحقها بأحد الوجهين عياض، لأنها خرجت من المشتبه إلى البين.

قوله : (استبرأ لدينه وعرضه)، أي حصلت له البراءة من ذم الشرع له وصان عرضه من كلام الناس فيه قاله النووي.

قوله : (ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام) عياض اختلف فقييل : تجنب الشبهات واجب لقوله : فقد وقع في الحرام وقيل : ليس بواجب والمعنى : قد يقع في الحرام ويشهد له قوله : يوشك أن يقع فيه ولم يقل يرتع فيه، وأيضا فإنما جعل اجتنابها استبراء للدين والعرض، والاستبراء يشير إلى أنها ليست نفس الحرام والذي يجب أن يجتنب هـ.

قوله : (كالراعي حول الحمى يوشك أن يرتع فيه) قال الأبى:
الحمى في عرف الفقه ما قصر الإمام الانتفاع بما تنبته أرض معينة
على حيوان معين لمصلحة دينه، كما حمى ﷺ لخیل المهاجرين،
وحمى الخلفاء بعده لإبل الغزاة، وحمى عمر لإبل الصدقة، ولكن
إنما يجوز ذلك بشرطين أن تدعو الحاجة إلى ذلك، كما فعل ﷺ
والخلفاء بعده والثاني : أن لا يضيق على الناس، إنما يأخذ ما فضل
عنهم وصح أن عمر رضي الله أوصى من ولاه النظر في الحمى
فقال : أدخل رب الصريمة والغنيمة وإياك ونعم ابن عفان وابن
عوف واتفق دعوة المظلوم، فإنها مجابة، والذي نفسي بيده لولا أنى
أحمل عليه في سبيل الله ما حميت عليهم من أرضهم شيئاً والله
إنهم ليزعمون أنى قد ظلمتهم هـ.

قال المازري : قوله كالراعي لخ هو مثال ضربه ﷺ للبعد عن
الشبهات وأصله أن ملوك العرب كانت تحمي لماشيتها الخاصة بها،
وتخوف بالعقوبة على من يتعدى عليها، فكانوا يبعدون عن ذلك
البعد الذي يمنع الشادة والفاذة من الوقوع في الحمى، لأنهم إذا
رعوا قريباً منه فالغالب الوقوع فيه وإن كثر الحذر، لأن الشادة لا
تنضبط وكذلك محارم الله تعالى، وهي حماه لا ينبغي أن يحام
حولها خوف الوقوع فيها هـ.

قوله : (ألا وإن لكل ملك حمى)، يدل على ما تقدم عن الأبى من
أن للإمام أن يحمى لمصلحة دينه.

قوله : (ألا وإن في الجسد مضغة)، أي قطعة لحم قدر ما
يمضغ في الفم، لكنها وإن صغرت في الحجم والصورة عظمت في
القدر والرتبة، ومن ثم كانت (إذا صلحت) أي بالإيمان والعلم
والعرفان وهو بفتح اللام وضمها، والفتح أفصح وأشهر (صلح

الجسد كله) بالأعمال والإخلاص وإذا فسدت بالجحود والكفران، وهو بفتح السين وضمها أيضا والفتح أفصح وأشهر كذلك (فسد الجسد كله) بالفجور والعصيان ومن ثم قيل : إن القلب كالملك والجسد والأعضاء كالرعية، ولا شك أن الرعية تصلح بصلاح الملك وتفسد بفساده، وأيضا هو كالأرض وحركات الجسد كالنبات والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا، وأيضا هو كالعين والجسد كالرعية إن عذب ماء العين عذب الزرع وإن ملح ملح قال بعضهم : صلاح القلب في خمسة أشياء قراءة القرآن بالتدبر وخلاء البطن وقيام الليل والتضرع عند السحر ومجالسة الصالحين ونظمها من قال :

دواء قلبك خمس عند قسوته

فدم عليها تفز بالخير والظفر

خلاء بطن وقرآن تدبره

كذا تضرع باك ساعة السحر

كذا قيامك جنح الليل أوسطه

وأن تجالس أهل الخير والخبر

وزاد بعضهم العزلة والصمت وترك خوض الناس، وزاد آخر أكل الحلال وهو رأسها فإنه ينور القلب ويصلحه فتزكو بذلك الجوارح وتدرأ المفسد، وتكثر المصالح وأكل الحرام والشبهات عند تصديه وتظلمه وتقسيه.

قوله : (ألا وهي القلب) وهو مضغة في الفؤاد معلقة بالنياط، فهو أخص من الفؤاد كما قاله الواحدي، وقال البدر الزركشي : والأحسن قول غيره : الفؤاد غشاء القلب، والقلب حبه وسويداؤه ويؤيد الفرق قوله ﷺ : (ألين قلوبا وأرق أفئدة)، وفي الصحاح أنهما

مترادفان، فإن القلب يعبر عنه بالصدر كما في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ
نُشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، ويعبر عنه بالثياب كما في قوله : ﴿وَتِيَابِكَ
فَطَهَّرَ﴾، أي قلبك على أحد التفاسير، وقد يطلق القلب على العقل
مبالغة كما في قوله تعالى : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ)، أي
عقل فلقيامه به وعدم انفكاكه عنه صار كأنه هو، وسمي القلب
قلبا لفرط تقلبه، ولذا ورد في الحديث : أن القلب كريشة بأرض
فلاة تقلبها الرياح بطنا لظهر وقال بعضهم :

وما سمي الإنسان إلا لنسيانه
ولا القلب إلا أنه يتقلب

أو لأنه خالص ما في البدن وخالص كل شيء قلبه وقيل غير
ذلك.

قوله : (العبادة في الهرج) قال المناوي : والمراد بالهرج هنا
الفتنة واختلاط أمور الناس.

قوله : (كهجرة إلى)، أي في كثرة الثواب قال النووي : سبب
كثرة فضل العبادة فيه أن الناس يغفلون عنها ويشغلون عنها، ولا
يتفرغ لها إلا الأفراد والله أعلم هـ.

باب بدأ الإسلام غريبا

قوله : (بدأ) قال القرطبي : بدون همزة قاصر وبها متعد، ومنه
يبدأ الله الخلق، والرواية في الحديث : بالهمز ويشكل لأنه لم يذكر
له مفعولا، فيضمن معنى ظن أو التضمنين في اللسان جائز وأنكر

بعض شيوخنا همزه وقال : إنما هو بدأ بمعنى ظهر، وفي إنكاره بعد من ناحية الرواية لأنها صحت بالهمز ومن جهة المعنى، لأن المقصود الإخبار بأن الإسلام نشأ في آحاد وقلة وبدأ بمعنى ظهر يبعده عن المعنى هـ.

وقيل : (لا يبعده إذ ليس بمناف له قاله الأبي).

قوله : (غريباً) أصل الغربة البعد، ومنه سمي الغريب لبعد داره، وسمي النفي تغريباً وحمل مالك الحديث على أن المعنى به المدينة، وأن الإسلام بدأ غريباً وسيصير بها كذلك.

قوله : (فطوبى للغرباء) قال الأبي : طوبى هي من الطيب قلبت فيه الياء واوا لانضمام ما قبلها، فالمعنى لهم طيب العيش وقيل : المعنى لهم الجنة لأنها تستلزم طيبه وللمفسرين فيها أقوال غير هذا هـ.

والغرباء وقع تفسيره في الحديث الآخر قد قيل ومن الغرباء قال: النزاع من القبائل والنزاع جمع نازع أو نزيع، وهو الذي نزع عن أهله أي بعد الهروي ويعني به المهاجرين لأنهم تغربوا عن أهلهم لله ورسوله هـ.

وقد جاء عن بعض السلف أنهم أهل الحديث وجاء في رواية قيل: ومن الغرباء قال : الذين إذا فسد الناس صلحوا، وفي أخرى قيل : ومن الغرباء قال قوم : يكونون في آخر الزمان يقولون كلمة الحق ولا يجدون عليها معينا، كما ورد والله أعلم.

باب من ترجى له السلامة من الفتن

قوله : (إن أيسر الرياء شرك)، أي قليل الرياء فضلاً عن كثيره.
قوله : (من عادى لله ولها)، أي من أجل كونه ولياً لله، فإنه جرى بين الصديق والفاروق خصومة، وبين العباس وعلي وكثير من الصحابة ما جرى، والولي مأخوذ من الولي بسكون اللام وهو القرب والدنو ومنه كل مما يليك، وهو فعيل بمعنى فاعل، لأنه وإلى الله بالطاعة والتقوى من غير تخلل عصيان، أو بمعنى مفعول لأن الله والاه بالحفظ ومزيد الإمداد، ولم يكله إلى نفسه لحظة وضابط الولي أنه المواظب على فعل الطاعات واجتناب المنهيات المعرض عن الإنهماك في اللذات، فإن قلت المعادة لا تكون إلا من جانبين ومن شأن الولي الحلم والصفح عمن يجهل عليه، وأجيب بأن المعادلة لا تنحصر في الخصومة والمعاملة الدنيوية، بل قد تقع من بغض ينشأ عن التعصب كالرافضي في بغضه لأبي بكر، والمبتدع في بغضه لسني فتقع المعادة من الجانبين، أما من جانب الولي فله وفي الله، وأما من جانب الآخر فلما تقدم وكذا الفاسق المتجاهر ببغضه الولي في الله وببغضه الآخر لإنكاره عليه وملازمته لنهيهِ عن شهواته، وأيضاً المفاعلة قد تأتي للواحد كسافر وعافاه الله قال علي بن أبي طالب : أولياء الله قوم صفر الوجوه من السهر عمش العيون من العبر، غمض البطون من الجوع لخ.

قوله : (فقد بارز الله بالمحاربة)، وفي رواية فقد آذنته بالحرب أي أعلمته بأنى محارب له، فإذا قلت المحاربة مفاعلة، وهي لا تكون إلا من الجانبين مع أن المخلوق في أسر الخالق أجيب بأن هذا من باب المخاطبة بما يفهم، فإن الحرب ينشئ العدواة، والعدواة تنشئ المخالفة، وغاية الحرب الهلاك والله تعالى لا يغلبه غالب،

فكان المعنى فقد تعرض لإهلاكي إياه، فأطلق الحرب وأراد به لازمه أو أعمل به معاملة المحارب من التجلي عليه بمظاهرة القهر والجلال والعدل والانتقام، وإذا ثبت هذا في جانب المعادة ثبت ضده في جانب الموالاة، فمن وإلى أولياء الله أكرمه الله، وفي الحديث القدسي : «أين المتحابون لجلالي اليوم أظلمهم تحت ظلي يوم لا ظل إلا ظلي».

قوله : (الأخفياء) جمع خفي وهو المعتزل عن الناس الذي يخفى عليهم مكانه.

قوله : (لم يفتقدوا على بناء المفعول أي ما يلتفت أحد إلى معرفة حالهم ومكانهم ولا ينظر أحد إلى أنهم أحياء أو أموات).

قوله : (لم يدعوا على بناء المفعول أي إلى المجالس والأموال المهمة، والحديث في إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف كما تقدم).

قوله : (كأبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة)، يعني أن المؤمنين المنتخبين من الناس في عزة وجودهم كالمنتخب من الإبل القوية على الأحمال والأسفار الذي لا يوجد في كثير من الإبل قال الزهري : الذي عنده فيه أن الله تعالى ذم الدنيا وحذر العباد وضرب لهم منها الأمثال ليعتبروا ويحذروا، كأنه ﷺ يحذرهم ما حذرهم الله تعالى ويزهدهم فيه فرغبت الناس بعده فيها، وتنافسوا عليها حتى كان الزهد في النادر القليل منهم فقال : تجدون الناس بعدي كأبل مائة ليس فيها راحلة أي أن الكامل في الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة قليل كقلة الراحلة في الإبل، والراحلة هي البعير القوي على الأسفار والأحما ، النجيب التام الخلق الحسن النظر، ويقع على الذكر والأنثى، والهاء للمبالغة ذكره السيوطي، وإسناده صحيح ورجاله ثقات إن ثبت سماع زيد بن أسلم من عبد الله بن عمر.

باب افتراق الأمم

قوله : (وتفترق أمتي) قالوا : المراد أمة الإجابة وهو أهل القبلة، فإن إسم الأمة مضافا إليه ﷺ يتبادر منه أمة الإجابة والمراد: تعرفهم في الأصول والعقائد دون الفروع والعمليات قال العلقمي : قال شيخنا : ألف الإمام أبو منصور عبد القاهر ابن طاهر التميمي في شرح هذا الحديث كتابا قال فيه : قد علم أصحاب المقالات أنه ﷺ لم يرد بالفرق المذمومة المختلفين في فروع الفقه من أبواب الحلال والحرام، وإنما قصد بالذم من خالف أهل الحق في أصل التوحيد، وفي تقديم الخير والشر، وفي شروط النبوة والرسالة، وفي موالاته الصحابة وما جرى مجرى هذه الأبواب لأن المتخلفين فيها قد كفر بعضهم بعضا بخلاف النوع الأول فإنهم اختلفوا فيه من غير تكفير ولا تفسيق للمخالفة فيه، فيرجع تأويل الحديث في افتراق الأمة إلى هذا النوع من الاختلاف، وقد حدث في آخر أيام الصحابة خلاف القدريّة من معبد الجهني وأتباعه وتبرأ منهم المتأخرون من الصحابة كعبد الله بن عمر وجابر وأنس ونحوهم، ثم حدث الخلاف بعد ذلك شيئا فشيئا إلى أن تكاملت الفرق الضالة اثنتين وسبعين فرقة والثالثة والسبعون هم أهل السنة والجماعة وهي الفرقة الناجية، فإن قيل : هذه الفرق معروفة، فالجواب أنا نعرف الافتراق وأصول الفرق، وإن كل طائفة من الفرق انقسمت إلى فرق، وإن لم نحط بأسماء تلك الفرق ومذاهبها، وأصول الفرق الحرورية والقدريّة والجهمية والمرجئة والرافضة والجبرية، وقد قال بعض أهل العلم : أصل الفرق الضالة هذه الست، وقد انقسمت كل فرقة منها إثنتي عشرة فرقة فصارت إلى اثنتين وسبعين فرقة

وقيل : إن تفصيلها عشرون منهم روافض وعشرون منهم خوارج وعشرون قدرية وسبعة مرجئة وفرقة كرامية، فهذه ثنتان وسبعون فرقة هـ.

قوله : (قال الجماعة : أي الموافقون لجماعة الصحابة الآخذون بعقائدهم المتمسكون برأيهم، والحديث قال في الزوائد : إسناده حديث عوف بن مالك فيه مقال وراشد بن سعد قال فيه : أبو حاتم صدوق وعباد بن يوسف لم يخرج له أحد سوى ابن ماجة، وليس عنده سوى هذا الحديث قال بن عدي : روى أحاديث تفرد بها وذكره ابن حبان في الثقات وباقي رجال الإسناده ثقات هـ.

قوله : (لتتبعن سنة)، وفي رواية : لتركبن سنن بفتح السين أي طريق.

قوله : (باعا بباع وذراعا بذراع وشبرا بشبر كناية عن شدة الموافقة لهم في المخالفات والمعاصي، لا الكفر قال المناوي : ثم إن هذا لفظ خبر معناه النهي عن اتباعهم ومنعهم عن الالتفات لغير دين الإسلام، لأن نوره قد بهر الأنوار وشريعته نسخت الشرائع وذا من معجزاته ﷺ فقد اتبع كثير من أمته سنن فارس في شيمهم ومراكبهم وملابسهم وإقامة شعارهم في الحروب وغيرها، وأهل الكتابين في زخرفة المساجد وتعظيم القبور حتى كاد أن يعبدها العوام، وقبول الرشا وإقامة الحدود على الضعفاء دون الأقوياء، وترك العمل يوم الجمعة والتسليم بالأصابع وعدم عيادة المريض يوم الجمعة، وأن الحائض لا تمس عجينا إلى غير ذلك مما هو أشنع وأبشع هـ.

قوله : (حتى لو دخلوا في جحر ضب لدخلتم، فيه مبالغة في الاتباع فإذا اقتصروا في الذي ابتدعوه فستقصرون، وإن بسطوا فستبسطون حتى لو بلغوا إلى غاية لبلغتموها حتى كانت تقتل أنبياءها، فلما عصم الله رسوله قتلوا خلفاءهم تحقيقا لصدق الرسول ﷺ وخص جحر الضب لشدة ضيقه، ومع ذلك فإنهم لاقتفائهم آثارهم وأتباعهم مناهجهم، لو دخلوا في مثل ذلك الضيق الرديء لوافقوهم، زاد في رواية : وحتى لو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه قال ابن تيمية : هذا خرج مخرج الخبر عن وقوع ذلك، والذم لمن يفعله كما كان يخبر عما يفعل الناس بين يدي الساعة من الأشرار والأمور المحرمة قال الحرالي وجمع ذلك أن كفر اليهود أضل من عدم العمل بعملهم فهم لا يعلمون الحق، ولا يتبعونه عملا ولا قولاً، وكفر النصاري من جهة عملهم بلا علم يجتهدون في أصناف لعبادة بلا شريعة من الله، ويقولون ما لا يعلمون، ففي هذه الأمة من يحذو حذو الفريقين، ولهذا كان السلف كسفيان بن عيينة يقولون : من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصاري، قضاء الله نافذ بما أخبر رسوله ﷺ بما سبق في علمه، لكن ليس الحديث إخبار عن جميع الأمة لما تواتر عنه أنها لا تجتمع على ضلالة، ثم أنه فسر هنا باليهود والنصاري، وفي خبر البخاري بفارس والروم ولا تعارض لاختلاف الجواب بحسب اختلاف المقام بحيث قيل : فارس والروم كان ثم قرينة تتعلق بالحكم بين الناس وسياسة الرعية، وحيث قيل اليهود والنصاري كان هناك قرينة تتعلق بأمر الديانات أصولها وفروعها والله أعلم هـ. من المناوي على الجامع الصغير.

باب فتنة المال

قوله : (من زهرة الدنيا) بفتح الزاي وسكون الهاء، زاد في رواية وزينتها وهو عطف تفسيري والزهرة مأخوذة من زهرة الشجرة وهو نورها بفتح النون والمراد : ما فيها من أنواع المتاع والعين والنبات والزرع وغيرها مما يغتر الناس بحسنه مع قلة بقاءه.

قوله : (أيأتى الخير بالشر)، أي هل تصير النعمة عقوبة؟ لأن زهرة الدنيا نعمة من الله فهل تعود هذه النعمة نقمة والاستفهام للإرشاد.

قوله : (إن الخير لا يأتى إلا بخير أو خيرهـو)، أي المال على الإطلاق يريد أنه خير من وجه دون وجه، وقد يعرض له الشر بعارض البخل به عمن يستحقه والإسراف في إنفاقه فيما لم يشرع.

قوله : (إن كل ما ينبت الربيع) قيل : هو الفصل المشهور بالإنبات وقيل : المراد الجدول وهو النهر الصغير وإسناد الإنبات إليه مجازاً، زاد المنبت حقيقة هو الله تعالى.

قوله : (يقتل حبطاً) بفتح الحاء المهملة والموحدة والطاء المهملة، المنونة انتفاخ بطن من كثرة الأكل يقال: حبطت الدابة تحبط حبطاً إذا أصابت مرعى طيباً فأمعنت في الأكل حتى تنتفخ فتموت.

قوله : (أو يلم) بضم التحتية وكسر اللام وتشديد الميم يقرب من الهلاك، والمعنى يقتل أو يقارب القتل.

قوله : (إلا) بتشديد اللام استثنائية (أكلت الخصرة) أي من بهيمة الأنعام قال القسطلاني في شرح البخاري وشبه بها لأنها التي ألف المخاطبون أحوالها في سوما ورعيها، وما يعرض لها من

البشم وغيره، وأكلة بمد الهمزة وكسر الكاف والخضرة بفتح الخاء وكسر الضاد المعجمتين ضرب من الكلاً تحبه الماشية وتستلذه فتستكثر منه قال في المصاييح : أن الاستثناء منقطع أي لكن أكلة الخضرة لا يقتلها أكل الخضرة ولم يلم بقتلها، وإنما قلنا : إنه منقطع لفوات شرط الاتصال ضرورة كون الأول غير شامل له على تقدير عدم الثنيا، وذلك لأن من فيه تبعية، فكأنه يقول إن شيئاً مما ينبت يقتل خطباً أو يلم، وهذا لا يشمل مأكول أكلة الخضرة ظاهراً، لأنه نكرة في سياق الإثبات، نعم في هذا اللفظ الثابت في الطريق المذكورة هنا وهو قوله : وإن كل ما أنبت الربيع يقتل خطباً أو يلم يتأتى جعل الاستثناء متصلاً لدخول المستثنى في عموم المستثنى منه، وليس المستثنى في الحقيقة هو الأكلة نفسها، وإلا كان منقطعاً، وإنما المستثنى محذوف تقديره مأكول أكلة الخضرة فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه هـ.

وفي رواية الخضرة بضم الخاء وسكون الضاد، وفي بعض النسخ ألا بتخفيف اللام وفتح الهمزة على أنها استفاحية كأنه قال: ألا أنظروا أكلة الخضرة واعتبروا بشأنها والله أعلم.

قوله : (حتى إذا امتلأت خاصرتها بالتننية)، أي جنبها أي امتلأت شبعاً وعظم جنبها (استقبلت الشمس) فتحمى فيسهل خروج ما ثقل عليها مما أكلته (فتلطت) بالمثلثة واللام والطاء المهملة المفتوحات وضبط بكسر اللام أي ألقت ما في بطونها سهلاً رقيقاً (وبالت) فارتاحت بما ألقت وسلمت من الهلاك (ثم اجترت) بالجيم الساكنة والتاء الفوقية المفتوحة والراء المشددة استرجعت ما أدخلته في بطنها من العلف فمضغته ثانياً ليزداد نعومة وسهولة لإخراجه.

قوله : (ومن يأخذ مالا بغير حقه) بأن جمعه من الحرام أو من غير احتياج إليه (فمثله كمثل الذي يأكل ولا يشبع) أي كذي الجوع الكاذب بسبب سقم الأخذ ويسمى جوع الكلب كلما ازداد أكلًا ازداد جوعًا، وكان مآله إلى الهلاك قال ابن المنير في هذا الحديث : وجوه من التشبيهات بديعة تشبيه المال ونموه بالنبات وظهوره وتشبيه المنهمك في الاكتساب والأسباب بالبهايم المنهمكة في الأعشاب وتشبيه الاستكثار منه والادخار له بالشره في الأكل والامتلاك وتشبيه المال مع عظمته في النفوس حتى أدى إلى المبالغة في البخل به بما تطرحه البهيمة من السلاح، ففيه إشارة بديعة إلى استقذاره شرعا وتشبيه التقاعد عن جمعه وضمه بالشاة إذا استراحت وحطت جانبها مستقبلة الشمس، فإنها من أحسن حالاتها سكونا وسكينة، وفيه إشارة إلى إدراكها لمصالحها وتشبيه المال بالصاحب الذي لا يومن أي ينقلب عدوا فإن المال من شأنه أن يحرز ويشد وثاقه حباله، وذلك يقتضي منعه من مستحقه فيكون سببا لعقاب مقتنيه وتشبيه أخذه بغير حق بالذي يأكل ولا يشبع فهو ثمانية هـ.

قوله : (نقول كما أمرنا الله)، أي نكون كما أمرنا الله.

قوله : (تتنافسون ثم تتحاسدون الخ) قال عياض : أصل التنافس التسابق إلى الشيء أيهم يأخذه أولا وكأنه كثرة الرغبة في الشيء وهو أول التحاسد ومعنى: تتدابرون تتقاطعون ثم قال : ثم تتباغضون فالمبادرة والإعراض مع بقاء بعض المودة ثم تكون المباغضة بعدها هـ.

قوله : (ثم تنطلقون في مساكن الخ) قال عياض : وعند السمرقندي فتحملون في مساكن المهاجرين ولا أدري ما الذي

ساقه إلى تغيير الرواية إلى مالا يتوجه معه الكلام وترك ما يتوجه معه، والأشبه أن يبقى الكلام على وجهه وأراد أن مساكين المهاجرين تفتح عليهم الدنيا حتى يكون بعضهم أميرا على بعض هـ.

قوله : (بمال من البحرين)، وكان مائة ألف وثمانين ألف درهم وقيل : ثمانين ألفا.

قوله : (ابشروا) بقطع الهمزة وكسر المعجمة (وأملوا) بقطع الهمزة وكسر الميم المشددة.

قوله : (فوالله ما الفقر أخشى عليكم) بنصب الفقر بتقدير ما أخشى وحذف لا أخشى عليكم مفسر له، ويجوز الرفع بتقدير ضمير أي ما الفقر أخشاه عليكم قال في الفتح : والأول هو الراجح وقال في التنقيح : والرفع ضعيف لأنه يحتاج إلى ضمير يعود عليه، وإنما يجوز ذلك في الشعر هـ.

وتعقبه في المصابيح فقال : ضعف ذلك مذهب كوفي قال في التسهيل : ولا يختص بالشعر خلافا للكوفيين وقال في شرح المشكاة : فائدة تقديم المفعول هنا الاهتمام بشأن الفقر، لأن الوالد المشفق إذا حضره الموت كان اهتمامه بحال ولده في المال، فأعلم ﷺ أصحابه أنه وإن كان لهم في الشفقة عليهم كالأب، لكن حاله في أمر المال يخالف حال الوالد وأنه لا يخشى عليهم الفقر كما يخشاه الوالد، لكن يخشى عليهم من الغنى الذي هو مطلوب الوالد لولده هـ.

قوله : (فتهلككم)، وفي رواية للبخاري : وتلهيكم أي عن الآخرة كما ألهمهم عنها.

باب فتنة النساء

قوله : (أضر) وفي رواية مسلم هي أضر (على الرجال من النساء) قال المناوي : لأن المرأة في الغالب لا تأمر زوجها إلا بشيء ولا تحته إلا على شر وأقل فسادها أن ترغبه في الدنيا ليتها لك فيها وأي فساد أضر من هذا مع ما هنالك من مظنة الميل بالعشق وغير ذلك من فتن وبلايا ومحن يضيق عنها نطاق الحصر قال ابن عباس رضي الله عنه: لم يكفر من كفر ممن مضي إلا من قبل النساء وكفر من بقي من قبل النساء، وأرسل بعض الخلفاء إلى الفقهاء بجوائز فقبلوها وردها الفضيل فقالت له امرأته : ترد عشرة آلاف وما عندنا قوت يومنا فقال : مثلي ومثلكم كقوم لهم بقرة يحرثون عليها، فلما هرمت ذبحوها وكذا أنتم أردتم ذبحي على كبر سني موتوا جوعا قبل أن تذبحوا فضيلا، وكان سعيد بن المسيب يقول : وقد أتت عليه ثمانون سنة منها خمسون يصلي فيها الصبح بوضوء العشاء وهو قائم على قدميه يصلي ما شيء أخوف عندي علي من النساء وقيل إن إبليس لما خلقت المرأة قال : أنت نصف جندي وأنت سهمي الذي أرمي بك فلا أخطئ أبدا وقال في الحديث : بعدي لأن كونهن فتنة صار بعده أظهر وأشهر وأضر قال في المطامح : فيه أنه يحدث بعده فتن كثيرة فهو من معجزاته، لأنه إخبار عن غيب وقد وقع هـ.

قوله : (ويل للرجال من النساء لـخ)، في إسناده خارجة ابن مصعب وهو ضعيف.

قوله : (إن الدنيا خضرة حلوة)، أي مشتة مونة تعجب الناظرين، فمن استكثر منها أهلكته كالبهيمة، إذا أكثر من رعي

الزعر الأخضر أهلكها، ففي تشبيه الدنيا بالخضرة التي ترعاها
الأنعام إشارة إلى أن المستكثر منها كالبهائم.

قوله : (وإن الله مستخلفكم لخ)، الإستخلاف إقامة الغير مقام
النفس أي جعل الله الدنيا مزية لكم ابتلاء لكم فينظر هل
تتصرفون فيها بغير ما يرضاه.

قوله : (فاتقوا الدنيا الخ)، أي احذروا من الاغترار بما فيها،
فإنه في وشيك الزوال (واحدروا النساء وقبول قولهن فإنهن
ناقصات عقل) زاد مسلم : فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في
النساء.

قوله : (ترفل) من رفل في ثيابه كنصر وفرح إذا أطالها وجرها
متبخرًا أي تتبخر، والحديث قال في الزوائد في إسناده داوود بن
مدرك قال فيه الذهبي في كتاب الطبقات : نكرة لا يعرف وموسى
ابن عبيدة الربوي ضعيف هـ.

قوله : (يا أمة الجبار) نادها بهذا الاسم تخويفا.

قوله : (وله) أي للمسجد (تطيت).

قوله : (حتى تغتسل) أي تزيل أثر ريح الطيب بغسل أو غيره
أي أنها لا تثاب على الصلاة ما دامت متطية، لكنها صحيحة مغنية
عن القضاء مسقطه للفرض فعبر عن نفي الثواب بنفي القبول
إرعابا وزجرا، والحديث في إسناده عاصم بن عبد الله وقد ضعفه
جمع.

قوله : (يا معشر النساء) قال النووي : المعشر الجماعة المشتركة
في أمر، فالإنسان معشر والجن معشر والشياطين معشر.

قوله : (تصدقن) قال القرطبي : يعني بالصدقة غير الواجبة
لقوله في بعض الطرق، ولو من حليكن - (وأكثرن من الإستغفار)

هو طلب المغفرة وقد يكتفى به عن التوبة، لأنه إنما يكون عن ندم وهو دون توبة جدير بالرد وتكثر للوزر، لأنها حالة المنافق المستهزء هـ.

قوله : (فإني رأيتكن)، أي رأيت صنفكن لا المخاطبات وأكثريتهن هو السبب في أمرهن بالإكثار قال الأبى : فإن قلت أكثريتهن مع قوله في حديث أهل الجنة لكل منكم زوجتان تدل على أن صنف النساء أكثر من صنف الرجال قلت : أكثريتهن حينئذ لا تستلزم أكثريتهن دائماً أو يقال الزوجتان إنما بعد الخروج من النار، أو أنهما ليستا بآدميتين، وهو دليل قوله تعالى : ﴿وزوجناهم بغير عین﴾ هـ.

قوله : (فقلت امرأة منهن جزلة)، أي ذات عقل قال ابن دريد : الجزالة العقل، وفي كتاب العين امرأة جزلة أي ذات عجيذة عظيمة والجزل العظيم من كل شيء، ومنه عطاء جزل هـ.

وقيل : ومن جزالتها أنها لم تسأل إلا عن السبب لتحترز منه هـ.

قوله : (تكثرن اللعن)، اللعن لغة الطرد عن رحمة الله، ففيه أن اللعن وكفران العشير من الذنوب قال النووي : كفران العشير كبيرة للعقوبة عليه بالنار، وأما اللعن فمن المعاصي الصغائر لا أنه كبيرة لقوله : وتكثرن اللعن والصغيرة إذا كثرت صارت كبيرة واتفقوا أنه لا يجوز لعن المعين، وإن كان كافراً لأن اللعن. إبعاد عن رحمة الله، ولا يبعد عنها من لا تعرف خاتمة، إلا أن يعلم بنص أنه مات أو يموت كافراً كأبي لهب وإبليس، وأما اللعن بصفة كالحالقة وأكل الربا والظالم فجائز لوروده هـ.

قوله : (وتكفرن العشير)، العشير الزوج والزوجة لأنه من المعاشرة وكل منهما معاشر الآخر والعشير أيضا الخليط والصاحب عياض، كفران العشير من الذنوب، وقال الداودي : كفران النعمة من أكبر المعاصي قال : ولو كان كفرا حقيقة لم يمكن منها الزوج ولم يتوارثا هـ.

قوله : (ما رأيت من ناقصات عقل) قال القرطبي : هو صفة لمحذوف أي ما رأيت أحدا من ناقصات وأغلب تعجب من الرجال كيف يغلبهم من قصرت درجته عنهم قال الأبي : الرجال في معنى المفعولين، ولا يجوز التعجب من فعل المفعول، فالصواب أنه تعجب من كثرة غلبتهن الرجال هـ.

قوله : (أما ناقصات العقل لخ) قال المازري : نقصان شهادتهن لا يستقل دليلا على نقصان عقلهن حتى يتم بما نبه الله سبحانه عليه من عدم ضبطهن بقوله تعالى : ﴿فَتَذَكَّرْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾، وقد اختلف في العقل فقليل : هو العلم وقيل : هو بعض العلوم الضرورية وقيل : هو قوة يفرق بها بين حقائق الأشياء المعلومة، فالأول تبع فيه اللغة إذ لا فرق بين علمته وعقلته فنقص عقلهن عليه حقيقة، لأن الضبط من العلم فنقصه نقص عقل وعلى أنه قوة فنقص الضبط يدل على نقص تلك القوة هـ.

قوله : (فهذا من نقصان الدين) قال المازري : نقص دينها بذلك صحيح إذا قلنا العبادات الدين، لأن من نقص عبادة نقص دينه، ولا يعترض بالمسافر فيقال : إنه يقصر ولا يقال : إنه ناقص الدين، لأن تركهن الصلاة إنما هو تنزيه لله تعالى أن يعبدنه مستقذرات بخلاف المسافر فجاء النقص فيهن من هذا الوجه وأيضا فالنقص للمسافر غير لازم، لأن له أن لا يسافر فلا يسقط عنه وهو لهن

لازم إذ ليس أن لا يحضن وقد لا يحتاج إلى هذا لأن المسافر إنما يغير العدد وهن يتركن العدد جملة هـ.

قال الأبى فرقه الثانى ينتج له العكس، لأن الذى وقعت به المعارضة، إنما هو مسافر قصر، فإذا قصر وكان له أن لا يسافر فهو أولى بالنقص والصواب الفرق بأن المسافر إنما غير العدد هـ.

قال النووى : والحديث بين في أن الحائض لا تثاب على تركها الصلاة وقالوا في المسافر والمريض : يتركان النوافل لعذرهما أنهما يكتب لهما ثواب ذلك الذى كان في الصحة والحضر، وفرق بأنه كانت نيتهما الدوام ولولا العذر والحائض لم تكن نيتها الدوام، وإنما نظير الحائض من كان ينتقل مرة ويترك أخرى، فهذا لا يكتب له، لأنه لم تكن نيته الدوام هـ.

باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قوله : (مروا بالمعروف)، أي بكل ما عرف من الطاعة من الدعاء إلى التوحيد والأمر بالعبادة والعدل بين الناس (وانهوا عن المنكر أي المعاصي والفواحش وما خالف الشرع من جزئيات الأحكام وعرفهما إشارة إلى تقررهما وثبوتهما، وفي رواية : عرف الأول ونكر الثاني قال المناوي : ووجهه الإشارة إلى أن المعروف معهود مألوف، والمنكر مجهول كمعدوم قال القاضي : الأمر بالمعروف يكون واجبا ومندوبا على حسب ما يؤمر به، والنهي عن المنكر واجب كله، لأن جميع ما أنكره الشرع حرام هـ.

قوله : (قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم)، زاد الطبراني وأبو نعيم في روايتهما عن ابن عمر : يرفعه وقبل أن تستغفروا فلا يغفر

لكم إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يدفع رزقا، ولا يقرب أجلا وإن الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى لما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لعنهم الله على لسان أنبيائهم ثم عمهم البلاء هـ.

وأخذ الذهبي من هذا الوعيد أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الكبائر قال ابن العربي : والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل في الدين وعمدة من عمد المسلمين وخلافة رب العالمين، والمقصود الأكبر من فائدة بعث النبيئين وهو فرض على جميع الناس مثنى وفردى بشرط القدرة والأمن هـ.

والحديث قال الهيثمي في إسناده لين، قال المناوي في شرح الجامع الصغير وأقول فيه معاوية بن هشام قال ابن معين : صالح وليس بذلك وهشام بن سعد قال في الكاشف : قال أبو حاتم : لا يحتج به وقال أحمد : لم يكن بالحافظ هـ.

قوله : (أوشك أن يعمهم الله بعقابه)، أي فعلم أن ليس المراد في القرآن بيان عدم لزوم الأمر والنهي، بل المقصود بيان أن معصية الغير لا تضر إذا أتى بما عليه، ومن جملة ما عليه هو الأمر والنهي، فلا بد منها، نعم إذا لم يقبل المأمور ذلك فلا يضر ذلك وقيل : الآية خطاب لمن سقط عنهم الأمر والنهي بسبب عدم قبول الناس ذلك والله أعلم، والحديث رواه أيضا أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح ورواه أيضا النسائي وابن حبان في صحيحه ولفظ النسائي : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن القوم إذا رأوا المنكر، فلم يغيروه عمهم الله بعقاب.

قوله : (أن يكون أكيله) الأكيل من يصاحبك في الأكل فعيل بمعنى فاعل وكذا الشريب والخليط.

قوله : (فضرب الله)، أي جعل قلوب الذين تركوا النهي والإنكار مثل قلوب من ارتكبوا المنكر.

قوله : حتى يأخذوا على يد الظالم)، أي حتى لا يتمكن من الظلم (فتأطروه لخ) أي فتصرفوه عن ظلمه إلى الحق وتلزموه باتباعه.

قوله : (يعمل فيهم بالمعاصي)، أي وهم ممن لم يعمل بها، بل عمل بها غيرهم.

قوله : (هم أعز)، أي أمتع من الفاعلين.

قوله : (إلا عمهم الله بعقاب، لأن من لم يعمل إذا كانوا أكثر ممن يعمل كانوا قادرين على تغيير المنكر غالباً فتركهم له رضا بالمحرمات وعمومها، وإذا كثر الخبيث عم العقاب الصالح والطارح (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) الآية :

قوله : (قال فتية بكسر الفاء أي جماعة.

قوله : (تحمل على رأسها) قلت بضم قاف وتشديد لام أنية معروفة.

قوله : (يا غدر) بضم غير معجمة وفتح دال مهملة.

قوله : (كيف يقدر الله أمة لخ) استخبار فيه إنكار وتعجب أي أخبروني كيف يطهر الله قوما ينصرون الظالم القوي على العاجز الضعيف؟ مع تمكنهم من ذلك، أي لا يطهرهم الله أبداً فما أعجب حالكم إن ظننتم أنكم مع تماديكم في ذلك يطهركم، ولأن التقديس من قدس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد ويقال : قدس إذا ظهر لأن مطهر الشيء يبعده عن الأقدار والله أعلم.

قوله : (أفضل الجهاد)، أي من أفضل أنواع الجهاد بالمعنى اللغوي العام (كلمة عدل) هكذا عند الترمذي أيضا، وفي رواية كلمة حق، وأراد بالكلمة الكلام وما يقوم مقامه كالخط (عند سلطان جائر) أي ظالم لأن مجاهد العدو مترددين بين رجاء وخوف وصاحب السلطان إذا أمره بمعروف تعرض للتلف فهو أفضل من جهة غلبة خوفه، ولأن ظلم السلطان يسري إلى جم غفير، فإذا كفه أوصل النفع إلى خلق كثير بخلاف قتل كافر، والمراد بالسلطان من له سلاطة وقهر قال الدميري دخل النور البكري على محمد بن قلاوون فقال : قال رسول الله ﷺ : أفضل الجهاد وذكر الحديث ثم قال له : وأنت ظالم، فأمر بقطع لسانه فجزع واستغاث فيه بعض الأمراء فقال السلطان : ما أردت إلا امتحان إخلاصه ثم نفاه هـ.

والحديث رواه أيضا أحمد والطبري والبيهقي عن أبي أمامة وأحمد أيضا والنسائي والبيهقي أيضا عن طارق بن شهاب وأبو داود والترمذي، ثم إن فيه عند الكل عطية الكوفي قال في الكاشف ضعفه.

قوله : (وضع رجله في الغرز)، بفتح العين المعجمة وسكون الراء بعدها زاي، هو ركاب كور الجمل إذا كان من جلد أو خشب وقيل : لا يختص بهما.

قوله : (أين السائل لخ)، في إسناده أبو غالب وهو مختلف فيه ضعفه ابن سعد وأبو حاتم والنسائي ووثقه الدارقطني وقال ابن عدي : لا بأس به وراشد ابن سعيد قال فيه أبو حاتم : صدوق وباقي رجال الإسناد ثقات والله أعلم.

قوله : (فليغيره بيده لـخ) قال عياض : الحديث أصل في كيفية التغيير، فيجب أن يكون المغير عالماً بما هو منكر، وبكيفية التغيير فيغير بكل وجه يغلب على الظن زوال المنكر به. فالتغيير باليد أن يكسر آلات الباطل ويريق الخمر وينزع الغضب، أو يأمر بذلك فإن خاف من التغيير باليد مفسدة أشد غير بالقول فيعظ ويخوف ويندب إلى الخير، ويستحب أن يرفق بالجاهل وذو العزة الظالم المتقى شره فإنه أدعى للقبول، ولذا استحب في المغير أن يكون من أهل الصلاح فإن القول منه أنفع، ويغلظ على غيرهما، فإن خاف أيضاً من التغيير بالقول مفسدة أشد غير بالقلب، إلا أن يجد من يستعين به، إلا أن يؤدي إلى إشهار سلاح فليرجع إلى ذي الأمر وإن شاء اقتصر على التغيير بالقول، وكان في سعة هذا فقه الباب عند المحققين خلافاً لمن رأى أن يغير، وإن أدى إلى قتله قال النووي : والتغيير بالقلب أن يكره المعصية ويود أن لو قدر هـ.

قال الأبى : كان ابن عرفة يقول : إنه الدعاء بقطع المنكر وإن دعا على المتعاطي جاز هـ.

قوله : (وذلك أضعف الإيمان) أي خصاله، فالمراد به الإسلام أو آثاره وثمراته، فالمراد به حقيقة من التصديق وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل وصلاح وإيمان وجريان شرائع الأنبياء الكرام، إنما يستمر عند استحكام هذه القاعدة في الإسلام قال بعضهم : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أقوى شعب الإسلام بوجه وأضعفها بوجه فتغييره باليد واللسان أقوى وتغييره بالقلب أضعف الإيمان هـ.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

باب قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾

قال بعض العلماء : هذا أمر من الله ومعناه : احفظوا أنفسكم من ملابسات الذنوب والإصرار على المعاصي لأنك إذا قلت عليك زيدا معناه : ألزم زيدا وقيل معناه : عليكم أنفسكم فأصلحوها واعملوا في خلاصها من عذاب الله، وانظروا لها ما يقربها من الله تعالى لا يضركم من ضل إذا اهتديتم يعني لا يغرركم من كفر إذا كنتم مهتدين وأطعتم الله تعالى فيما أمركم به، ونهاكم عنه قال سعيد بن جبير ومجاهد : نزلت هذه الآية في أهل الكتاب : فخذوا منهم الجزية واتركوها وقيل : لما قبلت الجزية من أهل الكتاب قال بعض الكفار : كيف تقبل الجزية من بعض دون بعض؟ فنزلت هذه الآية وقيل : إن المؤمنين كان يشتد عليهم بقاء الكفار على كفرهم ف قيل لهم : (عليكم أنفسكم) واجتهدوا في صلاحها لا يضركم ضلال الضالين، ولا جهل الجاهلين إذا كنتم أنتم مهتدين، فإن قلت : هل يدل ظاهر هذه الآية على جواز ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قيل : لا يدل على ذلك والذي عليه أكثر الناس أن المطيع لربه عز وجل لا يكون مؤاخذا بذنوب أصحاب المعاصي، فأما وجوب الأمر والنهي فتأبى دليل الكتاب والسنة، وتقدم في الباب قبله بعض ما ورد في ذلك وقال قوم في معنى الآية : عليكم أنفسكم إذا أمرتم ونهيتم فلم يقبل منكم، قال ابن مسعود مروا بالمعروف وأنهوا عن المنكر ما قبل منكم، فإذا رد عليكم فعليكم أنفسكم ثم قال : إن القرآن نزل منه أي قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن، ومنه

أي وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ، ومنه وقع تأويلهن بعد رسول الله ﷺ بيسير، ومنه أي يقع تأويلهن في آخر الزمان، ومنه أي يقع تأويلهن يوم القيامة، وهو ما ذكر من الحساب والجنة والنار، فما دامت قلوبهم وأهواؤهم واحدة لم تلبسوا شيئا، ولم يذق بعضكم بأس بعض فأمروا بالمعروف وأنهوا عن المنكر، فإذا اختلفت أهواؤكم وقلوبكم وألبستم شيئا وأذيق بعضكم بأس بعض، فأمر نفسه فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية وقيل لابن عمر: لو جلست في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه، فإن الله يقول : ﴿عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾، فقال ابن عمر: إنها ليست لي ولأصحابي، لأن رسول الله ﷺ قال : «ألا ليبلغ الشاهد الغائب»، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا: لم يقبل منهم. وقيل : في معنى الآية إن العبد إذا عمل بطاعة الله واجتنب نواهيه لا يضره من ضل وقال ابن عباس : قوله عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، يقول : إذا ما العبد أطاعني فيما أمرته به من الحلال والحرام، فلا يضره من ضل بعده، إذا عمل بما أمرته به وقيل في الآية غير ذلك قال الطبري : وأولى هذه الأقوال وأصلح التأويلات عنده في هذه الآية ما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو العمل بطاعة الله وأداء ما لزم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأخذ على يد الظالم، لأن الله تعالى يقول : ﴿وتعانوا على البر والتقوى﴾، ومن التعاون على البر الأمر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على يد الظالم حتى يرجع عن ظلمه وقال عبد الله بن المبارك : هذه الآية أؤكد آية في وجوب الأمر بالمعروف والنهي، لأن الله تعالى قال : ﴿عليكم أنفسكم﴾، يعني أهل دينكم بأن يعظ بعضكم بعضا، ويرغبه في الخيرات

وينفره عن القبائح والمكروهات والذي يؤكد ذلك أن معنى قوله :
﴿عليكم أنفسكم﴾، أي إحفظوا أنفسكم، وهذا أمر بأن نحفظ
أنفسنا، ولا يتم ذلك إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والله
أعلم.

قوله : (سألت عنها خيرا، يحتمل أن يكون سألت على صيغة
الخطاب، ويحتمل أن يكون على صيغة المتكلم، وأما سألت الثاني
فعلى صيغة التكلم).

قوله : (شحا مطاعا)، الشح البخل والحرص (وهو متبعا) أي
يتبعه الرجل ويطيعه، فإذا لم يتبعه فلا يضره (ودنيا مؤثرة) من
الإيثار وهو الاختيار أي يختارها كل واحد على الدين، ويميل إليها
(إعجاب) كل ذي رأي برأيه أي كل واحد فعل نفسه حسنا، وإن
كان قبيحا ولا يراجع أهل العلم فيما فعل، بل يكون مفتي نفسه.

قوله : (لا يدان لك تثنية اليد، والمراد أنه لا قدرة لك في دفعه.
قوله : (فإن من ورائكم) دفع لما يستبعد من وقوع شدة الحالة
وبيان أنها متحققة قطعا (أيام الصبر) بالإضافة، أي أياما يعظمهم
فيها أجر الصبر.

قوله : (يعملون بمثل عمله في زمان آخر)، ثم حاصل هذا
الحديث أن العمل بالآية مقيد بوقت لا دائمي كما تقدم عن ابن عمر
والله أعلم.

قوله : (الملك في صغاركم)، أي أن الملوك صغار الناس سنا غير
مجربين للأمور أو صغارهم عقلا (والفاحشة في كباركم) لا بمعنى
الحصر فيهم، بل المعنى أنها تنشر وتفشوا إلى أن توجد في الكبار
أيضا، والمراد بالفاحشة : الزنى (والعلم في رذالتكم) أي فيمن لا
يعمل به ولا يريده إلا للدنيا.

قوله : (حتى يسأله ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره؟) قال المناوي : فمن رأى إنسانا يفعل معصية أو يوقع بمحترم محذورا ولم ينكر عليه مع القدرة، فهو مسؤول عنه في القيامة معذب عليه إن لم يدركه العفو الإلهي، وفي خبر أبي نعيم عن ابن عباس مرفوعا : لا يقفن أحدكم على أحد يضرب ظلما، فإن اللعنة تنزل من السماء على من حضره إذا لم يدفعوا عنه، ولا يقفن أحدكم على رجل يقتل ظلما، فإن اللعنة تنزل من السماء على من حضره إذا لم يدفعوا عنه هـ.

قوله : (فإذا لقن الله عبدا حجته) قال في النهاية : الحجة الدليل والبرهان أي ألهمه إياها.

قوله : (قال يا رب رجوتك)، أي أن تسامحني من الرجاء وهو التوقع والأمل وهمزته منقلبة عن واو (وفرقت) أي خفت (من الناس) أي أذاهم قال البيهقي : هذا فيمن يخاف سطوتهم ولا يستطيع دفعها عن نفسه، وإلا فلا يقبل له معذرتة بذلك قال الغزالي، فالعمل على الرجاء أغلب منه على الخوف، وفي أخبار يعقوب عليه السلام : أن الله أوحى إليه فرقت بينك وبين يوسف لقولك : وأخاف أن يأكله الذيب وأنتم عنه غافلون لم خفت الذيب؟ ولم ترجني ولم نظرت إلى غفلة إخوته؟ ولم تنظر إلى حظي له هـ.

والحديث رواه أيضا أحمد وابن حبان قال العلائي : إسناده لا بأس به وقال الحافظ العراقي : إسناده جيد والله أعلم.

باب العقوبات

قوله : (إن الله يملئ للظالم) قال القرطبي : أي يطيل مدته ويكثر ماله وولده، ليكثر ظلمه قال تعالى : ﴿إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾، قال ابن الأنباري : اشتقاق الإملاء من الملوثة بضم الميم وفتحها وكسرهما وهي المدة هـ.

قوله : (فإذا أخذه لم يفلته) النووي قيل : المعنى لم يطلقه منه وقيل : لم يتخلص منه يقال : انفلت الرجل وأفلته أنا هـ.

قوله : (إذا ابتليتكم على بناء المفعول).

قوله : (لم تظهر الفاحشة)، أي الزنا ولم ينكروا على فاعله.

قوله : (بالسنين)، أي بالقحط قال في الفردوس : يقال لعام المجاعة والقحط سنة وجمعها سنون.

قوله : (منعوا القطر) أي المطر.

قوله : (لم يمتطروا على بناء المفعول).

قوله : (يسمونها بغير اسمها)، أي يشربون النبيذ المطبوخ بالسكر ويسمونونه طلاً تخرجاً أي يسمونه خمرًا، وذلك لا يغني عنهم من الحق شيئاً وقيل : أراد يغيرون صفتها ويبدلون اسمها ويبقى معناها.

قوله : (يعزف على بناء المفعول، في الصحاح المعازف الملاحية والمعازف اللاعب بها هـ).

قوله : (والمغنيات)، وفي رواية : يضرب على رؤوسهم بالمعازف أي الدفوف ونحوها والفتيات أي الإماء المغنيات.

قوله : (يخسف الله بهم الأرض لخ)، فيه وعيد شديد على من يتحيل في تحليل ما يحرم اسمه، وأن الحكم يدور مع العلة في

تحريم الخمر وهي الإسكار، فمهما وجد الإسكار وجد التحريم، ولو لم يستمر الاسم قال ابن العربي : هو أصل في أن الأحكام إنما تتعلق بمعانى الأسماء لا بألقابها ردا على من جمد على اللفظ قال ابن القيم : فيه تحريم آية الله، فإنه قد تواعد مستحل المعازف بأنه يخسف به الأرض ويمسخهم قردة وخنازير، وإن كان الوعيد على جميع الأفعال، ولكل واحد قسط من الذم والوعيد هـ.

والحديث رواه أيضا ابن حبان والطبرانى والبيهقي قال ابن القيم: إسناده صحيح.

قوله : (ويلعنهم اللاعنون) قال : دواب الأرض في إسناده الليث وهو ابن سليم وهو ضعيف قاله في الزوائد هـ.
قوله : (لا يزيد في العمر إلا البر) وخ وتقدم الحديث في باب الإيمان بالقدر وسنده حسن.

باب الصبر على البلاء

قوله : (قال الأنبياء) والمراد بهم : ما يشمل الرسل وذلك لتضاعف أجورهم وتكامل فضائلهم ويظهر للناس صبرهم ورضاهم، فيقتدى بهم وليلا يفتتن الناس بدوام صحتهم فيبعدوهم.

قوله : (ثم الأمثل فالأمثل)، أي الأشرف فالأشرف والأعلى فالأعلى، لأن البلاء في مقابلة النعمة، فمن كانت نعمة الله عليه أكثر فبلاؤه أشد، ولهذا ضوعف حد الحر على العبد، فهم معرضون للمحن والمصائب وطرق المنغصات والمتاعب ولنبلونكم بشيء من

الخوف والجوع وقال بعضهم : جعل مقام المبتلى يلي مقام النبوة، ولم يفصل بين بلاء الأبدان وبلاء الأغراض، فيشتمل كل ما يتأذى به الإنسان قال الطيبي : وثم للتراخي في الرتبة والفاء للتعاقب على سبيل التوالي تنزلاً من الأعلى إلى الأسفل هـ.

قوله : (على حسب دينه)، أي بقدر قوة إيمانه وشدة إيقانه وضعف ذلك.

قوله : (صلبا) أي قويا.

قوله : (رقّة) أي ضعف ولين.

قوله : (ابتلي على حسب دينه)، أي ببلاء هين لين والبلاء في مقابلة النعمة كما مرومن ثم قيل لأمهات المؤمنين : ﴿يا نساء النبيء من يات منكن بفاحشة﴾ الآية.

قوله : (وما عليه خطيئة) كناية عن سلامته من الذنوب وخلاصه منها، كأنه كان محبوساً فأطلق وخلي سبيله فهو يمشي، وما عليه بأس قال المناوي : ومن ظن أن شدة البلاء هوان بالعبد فقد ذهب لبه وعمي قلبه فقد ابتلي من الأكابر ما لا يحصى، ألا ترى إلى ذبح نبي الله يحيى ابن زكرياء وقتل الخلفاء الثلاثة والحسين وابن الزبير وابن جبير وحمزة، وقد ضرب أبو حنيفة وحبس ومات بالسجن، وجرد مالك وضرب بالسياط وجذبت يده حتى انخلعت من كتفه، وضرب أحمد حتى أغمي عليه وقطع من لحمه وهو حي، وأمر بصلب سفيان فاخترق وفي البخاري من بلده إلى غير ذلك مما يطول ذكره هـ.

قوله : (وهو يوعك على بناء المفعول أي وهو محموم).

قوله : (ليبتلي بالفقر)، أي الدنيوي الذي هو قلة المال وعدم المرافق.

قوله : (يجوبها)، بجيم وواو فموحدة أي يخرقها ويقطعها وكل شيء قطع وسطه فهو محبوب .

قوله : (ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء)، لأن المعرفة كلما قويت بالمبتلى هان عليه البلاء وكلما نظر إلى الأجر الناشئ عنه سهل، فلا يسألون رفعه، بل يحصل الترقى لبعضهم حتى يتلذذ بالضراء فوق تلذذ أحدنا بالسراء ويعد عدمه مصيبة، والحديث رواه أيضا أبو يعلى والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي قاله المناوي في شرح الجامع الصغير.

قوله : (وهو يحكي نبيا)، أي يذكر حاله.

قوله : (وهو)، أي ذلك النبي الذي ضربه قومه - يمسح الدم عن وجهه ويقول رب اغفر لقومي بخ، فيه ما كانوا عليه صلوات الله وسلامه عليهم من الحلم والصبر والعفو والشفقة على قومهم ودعائهم لهم بالهداية والغفران وعذرهم في جنايتهم على أنفسهم بأنهم لا يعلمون، وهذا النبي المشار إليه من المتقدمين، وقد جرى لنبينا ﷺ مثل هذا يوم أحد كما يأتي، والمراد بالمغفرة المدعو بها : هدايتهم إلى الإيمان لا المغفرة الحقيقية، لأن الله لا يغفر أن يشرك به.

قوله : (نحن أحق بالشك من إبراهيم لخ)، قال النووي : اختلف العلماء في معنى نحن أحق بالشك من إبراهيم، على أقوال كثيرة أحسنها وأصحها ما قاله الإمام أبو إبراهيم المزني صاحب الشافعي وجماعات من العلماء معناه : أن الشك مستحيل في حق إبراهيم، فإن الشك في إحياء الموتى لو كان متطرقا إلى الأنبياء عليهم السلام لكنت أنا أحق به من إبراهيم، وقد علمتم أنني لم أشك فاعلموا أن إبراهيم لم يشك، وإنما خص إبراهيم عليه السلام لكون الآية قد

يسبق إلى بعض الأذهان الفاسدة، منها احتمال الشك، وإنما رجع إبراهيم على نفسه ﷺ تواضعا وأدبا أو قبل أن يعلم ﷺ أنه خير ولد آدم قال : قال صاحب التحرير: قال جماعة من العلماء : لما نزل قوله تعالى : ﴿أَو لَمْ تَوْمِنْ﴾ قالت طائفة : شك إبراهيم ولم يشك نبينا فقال ﷺ نحن أحق بالشك منه، فذكر نحو ما قدمته ثم قال : ويقع لي فيه معنيان : أحدهما أنه خرج مخرج العادة في الخطاب، فإن أراد المدافعة عن إنسان قال للمتكلم : فيه ما كنت قائلاً لفلان أو فاعلا معه من مكروه فقله لي وافعله معي، ومقصوده : لا تقل ذلك فيه والثاني : أن معناه أن هذا الذي تظنونه شكاً أنا أولى به فإنه ليس بشك، وإنما هو طلب لمزيد اليقين وقيل غير هذا من الأقوال فنقتصر على هذه لكونها أوضحها والله أعلم، وأما سؤال إبراهيم عليه السلام، فذكر العلماء في سببه أوجهاً أظهرها : أنه أراد الطمأنينة بعلم كيفية الإحياء مشاهدة بعد العلم بها استدلالاً، فإن علم الاستدلال قد تتطرق إليه الشكوك في الجملة بخلاف علم المعاينة ، فإنه ضروري، وهذا مذهب الإمام أبي منصور الأزهري وغيره والثاني : أراد اختيار منزلته عند ربه في إجابة دعائه، وعلى هذا قالوا معنى قوله : ﴿أَو لَمْ تَوْمِنْ﴾، أي تصدق بعظم منزلتك عندي واصطفائك وخلتك والثالث : سأل زيادة يقين وإن لم يكن الأول شكاً فسأل الترقى من علم اليقين إلى عين اليقين، فإن العلمين تفاوتا قال سهل بن عبد الله التستري سأل كشف غطاء العيان ليزداد بنور اليقين تمكناً الرابع : أنه لما احتج على المشركين بأن ربه سبحانه يحيى ويميت طلب ذلك من ربه ليظهر دليله عياناً وقيل : أقوال أخر كثيرة ليست بظاهرة قال الإمام أبو الحسن الواحدي : اختلفوا في سبب سؤاله، فالأكثر

على أنه رأى جيفة بساحل البحر يتناولها السباع والطير ودواب البحر فتفكر كيف يجتمع ما تفرق من تلك الجيفة؟ وتطلعت نفسه إلى مشاهدة ميت يحييه ربه، ولم يكن شاكا في إحياء الموتى، ولكن أحب رؤية ذلك، كما أن المؤمنين يحبون أن يروا النبي ﷺ والجنة، ويحبون رؤية الله تعالى مع الإيمان بكل ذلك وزوال الشكوك عنه قال العلماء : والهمزة في قوله تعالى : ﴿أَو لَمْ تَأْمَنُوا﴾ همزة إثبات كقول جرير أستم خير من ركب المطايا، والله أعلم هـ.

قوله : (ويرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد)، قال عياض : أراد لوط بالركن عشيرته يدفع بها على أضيافه على سنة الخلق في اعتصام بعضهم ببعض وأنساه ضيق صدره من قومه اللجأ إلى الله تعالى الذي هو أشد الأركان، فانتقد ﷺ هذا القول وترحم عليه منه قال الأبى : عقب كلام عياض هذا ما نصه لا يخفي عليك إيحاش هذا اللفظ مع عدم صحة معناه : إذ رسول الله ﷺ لم ينتقد ولوط عليه السلام لم ينس اللجأ إلى الله تعالى في القضية، وإنما قال ذلك لنفوس الأضياف، وإبداء العذر لهم بحسب ما ألف في العادة من أن الدفع، إنما يكون بقوة أو عشيرة، وهذا في الحقيقة محمداً وكرمه وأخلاقه يستحق صاحبها الحمد فقوله : يرحم الله لوطا ثناء لا نقد وهو جار على عرف العرب في خطابها، حيث يقولون أيد الله الملك وأصلح الأمير، وهو نظير ما لو قيل : يرحم الله خالد ابن الوليد، لقد كان يبلى في العدو، والمستند في هذا الأصل آية ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾، لأنه إنما أذن لهم رفقا بهم واستئلفا لهم وكرم أخلاق منه ﷺ فقل: عفا الله عنك أي لم شققت على نفسك وتكلفت الإذن من باب ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾، ولا تلتفت إلي عجلة الزمخشري حيث جعل في

الآية كناية عن الجناية، بل هو تल्प في الخطاب على طريقة العرب كما ذكرنا هـ.

قوله : (ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي)، هو ثناء على يوسف عليه السلام وبيان لصبره وتأليف قال النووي : والمراد بالداعي رسول الله الملك الذي أخبر الله تعالى أنه قال ﴿ائتوني به فلما جاءه الرسول قال : ارجع إلى ربك فاسأله : ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾، فلم يخرج يوسف عليه السلام مبادرا إلى الراحة ومفارقة السجن الطويل، بل تثبت وتوقر وراسل الملك في كشف أمره الذي يسجن بسببه لتظهر براءته عند الملك وغيره، ويلقاه هو اعتقاده براءته مما نسب إليه، فبين ﷺ فضيلة يوسف في هذا وقوة نفسه في الخير وكمال صبره وحسن نظره وقال ﷺ عن نفسه ما قاله تواضعا وإيثارا للإبلاغ في بيان كمال فضيلة يوسف عليه السلام والله أعلم هـ.

قوله : (كسرت رباعيته)، هي بتخفيف الياء وهي السن التي تلي الثنية من كل جانب وللإنسان أربع رباعيات.

قوله : (وشج) الذي شجه في وجهه عبد الله بن شهاب الزهري جد محمد بن شهاب شيخ مالك أي أبو أبيه والذي كسر رباعيته عتبة ابن أبي وقاص وجرح شفته وكان سعد بن أبي وقاص أخوه يقول : ما حرصت على قتل رجل قط، حرصي على قتل عتبة ابن أبي وقاص، وإن كان فيما علمت لسيء الخلق منقصا في قومه، ولقد كفاني منه قول رسول الله ﷺ اشتد غضب الله على من دمی وجهه رسوله وفيه وقوع الأسقام والابتلاء بالأنبياء عليهم السلام، لينالوا جزيل الأجر، ولتعرف أممهم وغيرهم ما أصابهم ويتأسوا بهم قال القاضي : وليعلم أنهم من البشر تصيبهم محن الدنيا ويطرأ على

أجسامهم ما يطرأ على أجسام البشر ليتيقنوا أنهم مخلوقون
مربوبون، ولا يفتتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات وتلبس
الشیطان من أمرهم ما لبسه على النصارى وغيرهم هـ.

قوله : (فأنزل الله ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ هذا أحد قولين
في سبب نزول الآية، واختلف القائلون بذلك فقليل : السبب ما وقع
من شجه وكسر رباعيته يوم أحد كما مر وقيل : إنه عليه السلام
لما رأى ما فعلوا بحمزة من المثلة قال : لأمتلن بسبعين منهم فنزلت
وقيل : أراد أن يدعو عليهم بالاستئصال فنزلت لعلمه أن أكثرهم
يسلمون قال القفال : وكل هذه الأشياء حصلت يوم أحد فنزلت
الآية عند الكل فلا يمتنع حملها على الكل وقيل : إنه عليه السلام
أراد أن يلعن المسلمين الذي خالفوه أمره، والذين انهزموا فمنعه الله
من ذلك بنزولها القول الثانى : أنها نزلت في قصة القراء الذين
بعثهم عليه السلام إلى بير معونة في صفر سنة أربع من الهجرة
على رأس أربعة أشهر من أحد ليعلموا الناس القرآن فقتلهم عامر
بن الطفيل وقتت عليه السلام شهرا يدعو على جماعة من تلك
القبائل باللعن، لكن قال في اللباب : أكثر العلماء متفقون على أنها في
قصة أحد والله أعلم.

قوله : (إن أريك آية)، أي تدل على جاهك وشرفك تخفف عنك
هذه المحن، حتى لا تبالي بأضعافها، والحديث إسناده صحيح إن
كان أبو سفيان واسمه طلحة بن نافع سمع من جابر والله أعلم.

قوله : (أحصوا لي كل من تلفظ بالإسلام) من الإحصاء، أي
عدوا واضبطوا الإحصاء أبلغ من العد في الضبط لما فيه من أعمال
الجهد في العد ومثل هذا السؤال غالبا يكون عند الخوف، ولذلك
قالوا ما قالوا.

قوله : (وكان بدء ذلك)، أي ابتدأؤه وسببه.
قوله : (ممره براهب) يدل على وجود الرهبان قبل زمان عيسى عليه السلام.

قوله : (فعلمها) أي الإسلام.
قوله : (أن لا تعلمه) من الإعلام أي لا تخبر أحدا بأن فلانا علمني هذا.

قوله : (فتزوج) أي الكاتم.
قوله : (تعس كسمع)، أي هلك وهو دعاء عليه بالهلاك،
والحديث قال في الزوائد في إسناد سعيد ابن بشير قال فيه البخاري : يتكلمون في حفظه، وهو يحتمل وقال أبو حاتم : سمعت أبي وأبا زرعة قالا محله الصدق عنده قلت : يحتج به قالا : لا وضعفه غيرهم هـ.

قوله : (عظم الجزاء)، بكسر العين المهملة وفتح الظاء أي كبره وزيادته (مع أعظم البلاء) أي فإذا عظم عظم الأجر وإذا خف خف.
قوله : (ابتلاهم)، أي لتمحيص ذنوبهم (فمن رضي فله الرضا) أي رضا الله عنه جزاء لرضاه أو فله جزاء رضاه، وكذا قوله : فله السخط ثم الظاهر أنه تفصيل لمطلق المبتلين، لا لمن أحبهم فابتلاهم، إذ الظاهر أنه تعالى يوفقهم للرضا، فلا يسخط منه أحد والله أعلم.

قوله : (المؤمن الذي يخالط الناس لـخ)، قال المناوي : ومن ثم عدوا من أعظم أنواع الصبر على مخالطة الناس، وتحمل آذاهم وأعلم أن الله تعالى لم يسلطهم عليك إلا لذنوب صدر منك فاستغفر الله من ذنبك وأعلم أن ذلك عقوبة منه تعالى وكن فيما بينهم سميعا لحقهم أصم عن باطلهم نطوقا بمحاسنهم صموتا عن مساويهم قال الذهبي في الزهد : مخالطة الناس إذا كانت شرعية فهي من

العبادة وغاية من العزلة التعبد، فمن خالطهم بحيث اشتغل بهم عن الله وعن السنن الشرعية، فذا بطلان فليفر منهم واستدل به البعض على أن حج التطوع أفضل من صدقة النفل، لأن الحج يحتاج لمخالطة الناس قال : حجة الإسلام وللناس خلاف طويل في العزلة والمخالطة أيهما أفضل مع أن كلا منهما لا ينفك عن غوائل تنفر عنها وفوائد تدعو إليها وميل أكثر العباد والزهاد إلى اختيار العزلة وميل الشافعي وأحمد إلى مقابله، واستدل كل مذهبه بما يطول والإنصاف أن الترجيح يختلف باختلاف الناس، فقد تكون العزلة لشخص أفضل، والمخالطة لآخر أفضل، فالقلب المستعد للإقبال على الله المشتهي لاستغراقه في شهود الحضرة العزلة له أولى، والعالم بدقائق الحلال والحرام مخالطته للناس ليعلمهم وينصحهم في دينهم أولى، وهكذا ألا ترى إلى تولية النبي ﷺ لخالد ابن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما من أمرائه وقوله لأبي ذر إني : أراك رجلا ضعيفا وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تتأمر على إثنين الحديث هـ.

قوله : (ثلاث) أي ثلاث خصال مبتدأ خبره جملة (من كن لخ) قوله : (وجد) أي أصاب (طعم الإيمان) بفتح فسكون في الصحاح، الطعم بالفتح ما يؤديه الذوق يقال : طعمه والطعم بالضم الطعام، وفي القاموس : طعم الشيء يعني بالفتح حلاوته ومرارته، وما بينهما يكون في الطعام والشراب هـ.

وفي رواية : وجد حلاوة الإيمان وحلاوته استلذاذه بالطاعات عند قوة النفس بالإيمان وانشراح الصدر له، بحيث يخالط لحمه ودمه، وهل هذا الذوق محسوس أو معنوي؟ وعلى الثاني فهو على سبيل المجاز والاستعارة وتسمى هذه الاستعارة تخيلية، وذلك أنه

شبه رغبة المؤمن في الإيمان بالعسل ونحوه، ثم أثبت له لازم ذلك وهي الحلاوة إضافة إليه والله أعلم.

قوله : (من كان يحب المرء)، أي أي امرئ كان (لا يحبه إلا لله) قال عياض : من ثمرة حب الله فيه، فلا يحب العبد إلا الله، لأنه من أحب شيئاً أحب ما هو من سببه كما قال ﷺ : «من أحب العرب فبحبي أحبهم» هـ.

قال الأبي : يريد أن الحب في الله لا ينشأ إلا عن حب الله، ولا يمتنع أن يكتسب الحب في الله سبحانه باستحضار ما أعد الله سبحانه للمتحابين فيه وحسبك ما صح من قوله عليه السلام : سبعة يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله فذكر منهم رجلين تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، عياض فإذا حصلت المحبة في الله وقعت الألفة الموجبة للتعاون على البر والتقوى وأمور الدنيا والآخرة هـ.

قوله : (ومن كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) بإفراد الضمير في أحب، لأنه أفعل تفضيل وهو إذا وصل بمن أفرد دائماً وعبر بالتثنية في سواهما، إشارة إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين لا كل واحدة منهما، فإنها وحدها لا غاية إذا لم ترتبط بالأخرى، فمن يدعى حب الله مثلاً، ولا يحب رسوله لا ينفعه ذلك، ولا يعارض تثنية الضمير هنا بقصة الخطيب حيث قال : ومن يعصهما فقد غوى فقال له عليه السلام : بيس الخطيب أنت، فأمره بالإفراد إشعاراً بأن كل واحد من العصيانين مستقل باستلزامه الغواية، إذا العطف في تقدير التكرير والأصل استقلال كل واحد من المعطوفين في الحكم فهو من قوة قلوبنا، ومن عصى الله فقد غوى، ومن عصى الرسول فقد غوى ويؤيد ذلك قوله تعالى :

﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾، لم يعد أطيعوا في أولي الأمر منكم، كما أعاده في أطيعوا الرسول ليؤذن بأنه لا استقلال لهم في الطاعة استقلال الرسول ﷺ وقيل : إنه من الخصائص فيمتنع من غيره عليه السلام، لأن غيره إذا جمع أوهم التسوية بخلافه هو عليه السلام، فإن منصبه لا يتطرق إليه إيهام ذلك وقال مما ولم يقل ممن ليعم العاقل وغيره، والمراد بهذا الحب كما قال البيضاوي والعقل هو إيثار ما يقتضي العقل، ورجحانه ويستدعي اختياره وإن كان على خلاف هواه ألا ترى أن المريض يعاف الدواء وينفر عنه طبعه، ولكنه يميل إليه باختياره ويهوى تناوله بمقتضى عقله لما يعلم أن صلاحه فيه هـ. من شرح البخاري للقسطلاني.

قوله : (ومن كان أن يلقي في النار لخ) هذا نتيجة دخول نور الإيمان في القلب بحيث يختلط باللحم والدم واستكشافه عن محاسن الإسلام وقبح الكفر وشينه، وفي هذا الحديث الإشارة إلى التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل والله أعلم.

قوله : (أن لا تشرك لخ)، يدل على أنه ينبغي اختيار الموت والقتل دون شك.

قوله : (فقد برئت منه الذمة)، أي صار كالكافر الذي لا ذمة له فعلا، فإن ترك الصلاة متعمدا من خصالهم.

قوله : (فإنها مفتاح كل شر)، أي أصله ومنبعه، ومن ثم كان شربها من أفجر الفجور وأكبر الكبائر، بل ذهب بعض الصحابة إلى أنها أكبرها بعد الشرك، وذهب جمع من المجتهدين إلى أن شاربها يقتل في الرابعة، وزعموا صحة الحديث بذلك من غير معارض وتقدم الكلام على ذلك في أبواب الأشربة والله أعلم.

باب شدة الزمان

قوله : (لم يبق من الدنيا إلا بلاء وفتنة) كما هو شأن آخر الشيء ونهايته عادة.

قوله : (سنوات) جمع سنة بعد ردها إلى الأصل، فإن أصلها سنوا بالواو (خداعات) بتشديد الدال للمبالغة قال السيوطي : أي تكثر فيها الأمطار ويقل الربيع فذلك خدعها، أي لأنها تطعمهم بالخير ثم تختلف وقيل: الخدعة القليلة المطر من خدع الريف إذا جف هـ.

قوله : (الروبيضة بالتصغير) قيل : وما الروبيضة قال : (الرجل التافه) الحقيّر قليل العقل، وهذا إخبار عن غيب، وقد وقع كما أخبر ﷺ، والحديث في إسناده إسحاق ابن بكر بن أبي الفرات قال الذهبي في الكاشف : مجهول وقيل : منكر وعده ابن حبان في الثقات قاله في الزوائد هـ.

قوله : (فيتمرغ)، آخره غين معجمة أي يتقلب (عليه ويقول : يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر) أي كنت ميتاً، وذلك عند ظهور الفتن وخوف ذهاب الدين لغلبة الباطل وأهله، وظهور المعاصي، أو لما يقع لبعضهم من المصيبة في نفسه أو لأهله أو دنياه، وإن لم يكن في ذلك شيء يتعلق بدينه، وعن ابن مسعود قال : سيأتي عليكم زمان لو وجد أحدكم الموت يباع لا اشتراه وعليه قول الشاعر:

وهذا العيش مالا خير فيه
ألا موت يباع فاشتريه

وسبب ذلك أنه يقع البلاء والشدة حتى يكون الموت الذي هو أعظم المصائب أهون على المرء فيتمنى أهون المصيبتين في اعتقاده، وذكر الرجل في الحديث للغالب وإلا فالمرأة يمكن أن تتمنى الموت، لذلك أيضا والله أعلم.

قوله : (لتنفقون)، بالتاء للمفعول والواو مضمومة والنون ثقيلة (كما ينتقى التمر) يعني لتنظف كما ينظف التمر الجيد من الرديء.

قوله : (فموتوا إن استطعتم، أي فإن كان الموت باستطاعتكم فموتوا، فإن الموت عن انقراض الأخيار خير من الحياة في هذه الدار، فإن قيل : ما فائدة الإخبار بهذا الحديث، فالجواب : إن كل أحد يكره أن يكون من الأشرار فكما طال عمره بعد علمه بهذا الحديث اجتهد في العمل خوفا من أن يكون من الأشرار، ففائدته التيقظ للعامل الصالح والله أعلم. والحديث رواه الحاكم أيضا وقال: صحيح وأقره الذهبي فيه وفي سنده عند المؤلف طلحة بن يحيى قال في الكاشف وثقه جمع وقال البخاري : منكر الحديث وأبو حميد قال في الزوائد : لم أر من جرحه ولا من وثقه، ويونس هو ابن يزيد الأيلي وباقي رجال الإسناد ثقات والله أعلم.

قوله : (لا يزداد الأمر) أي التمسك بالدين والسنة (إلا بشدة لقلة أعوانه وكثرة مخالفه).

قوله : (ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق) وذلك أنه تعالى يبعث الريح الطيبة فتقبض روح كل مؤمن فلم يبق إلا شرار الناس، وذلك إنما يقع بعد طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة وسائر الآيات العظام، وفي حديث مسلم أن الله يبعث ريحا طيبة فتوفي كل من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم، وفي حديث له آخر : (يرسل الله

ريحا من قبل الشام فلا تبقي على وجه الأرض أحدا في قلبه مثقال ذرة من خير إلا قبضته، وفيه فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرا، فيتمثل لهم الشيطان فيأمرهم بعبادة الأوثان ثم ينفخ في الصور.

قوله : (ولا المهدي إلا عيسى بن مريم)، قال المناوي : أخبار المهدي كثيرة شهيرة أفردتها غير واحد بالتأليف قال السمعاني : ويتحصل مما ثبت في الأخبار عنه أنه من ولد فاطمة، وفي أبي داود : أنه من ولد الحسن والسرف فيه ترك الحسن الخلافة له شفقة على الأمة فجعل القائم بالحق عند شدة الحاجة وامتلأ الأرض ظلما من ولده، وهذه سنة الله في عبادته، وأنه يعطي لمن ترك شيئا من أجله أفضل مما ترك أو ذريته، وقد بالغ الحسن في ترك الخلافة ونهى أخاه عنها، وتذكر ذلك ليلة مقتله فترحم على أخيه، وما روى من كونه من ولد الحسين فواه جدا هـ.

والحديث قال الحاكم في المستدرک بعد أن روى هذا المتن بهذا الإسناد : هذا حديث يعد في أفراد الشافعي وليس كذلك، فقد حدث به غيره ثم ذكر سند أبي يحيى بن السكن عن محمد بن محمد بن خالد الجندي به، وقد بسط السيوطي القول فيه وخلاصة ما نقل عن الحافظ بن كثير أنه قال : هذا حديث مشهور بمحمد ابن خالد الصغاني المؤذن شيخ الشافعي، وروى عنه غير واحد أيضا، وليس هو بمجهول كما زعمه الحاكم، بل روى عن ابن معين أنه ثقة، ولكن روى بعضهم عنه عن الحسن مرسلا وذكر المزي في التهذيب عن بعضهم : أنه رأى الشافعي في المنام وهو يقول : كذب علي يونس بن عبد الأعلى، ليس هذا من حديثي قال ابن كثير يونس بن عبد الأعلى الصدي من الثقات لا يطعن فيه بمجرد منام، وهذا

الحديث فيما يظهر ببيادى الرأي أنه مخالف للأحاديث الواردة في إثبات مهدي غير عيسى ابن مريم، وعند التأمل لا ينافيها، بل يكون المراد من ذلك أن المهدي حق المهدي هو عيسى ابن مريم ولا ينفي ذلك يكون غيره مهديا أيضا والله أعلم.

باب أشراف الساعة

قوله : (بعثت أنا والساعة) بالنصب مفعول معه، والرفع معطوف على ضمير بعثت قال المناوي : وقول أبي البقاء الرفع يفسد المعنى إذ لا يقال : بعثت الساعة اعترضوه هـ.

قال الأبي : وهل يعني بما بينهما في الطول أو العرض؟ والأرجح الأول وقال غيره : إن دينه متصل بقيام الساعة لا يفصله عنه دين آخر كما لا فصل بين السبابة والوسطى وقال القاضي : معناه أن نسبة تقدم بعثته على قيام الساعة كنسبة فضل إحدى الأصبعين على الأخرى، ومحصله : أنه كناية عن قربها وبه جاء التنزيل ﴿اقتربت الساعة﴾ قال المناوي : تنبيه قال القرطبي : لا منافاة بين هذا وبين قوله : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل؟ لأن مراده هنا أنه ليس بينه وبين الساعة نبي، كما ليس بين السبابة والوسطى أصبع ، ولا يلزم منه علم وقتها بعينه، لكن سياقه يفيد قربها وإن أشرافها متتابعة وقال الكرماني : لا معارضة بين هذا وبين أن الله عنده علم الساعة، لأن علم قربها لا يستلزم علم وقت مجيئها عينا والله أعلم هـ.

قوله : (حتى تكون عشر آيات لخ)، يأتي الكلام عليها قريبا في باب الآيات .

قوله : (وهو في خباء) بكسر الخاء المعجمة والمد بيت من جلد ونحوه، وفي رواية البخاري : وهو في قبة من آدم بفتحتين جلد مدبوغ.

قوله : (فقلت : بكلي يريد أن الخباء كان صغيرا بحيث، كان في محل التردد أنه يسع جسده كله أم لا؟)

قوله : (احفظ خلا لا ستا بين يدي الساعة)، أي لقيامها أو لظهور أشراتها المقتربة منها.

قوله : (فوجمت)، الواجم الذي اسكته الهم وغلبته الكآبة.

قوله : (قل إحدى)، أي قل تلك الخلعة إحدى خلال.

قوله : (ثم داء لخ)، وفي رواية البخاري : ثم موتان بضم الميم وسكون الواو آخره نون منونة الموت أو الكثير الوقوع، والمراد به الطاعون.

قوله : (يستشهد الله به لخ)، وفي رواية البخاري : يأخذ فيكم كقعاص الغنم بضم القاف بعدها عين مهملة، فألف فصاد مهملة أي يأخذ الدواب فيسيل من أنوفها فتموت فجأة قال في الفتح : ويقال : إن هذه الآية ظهرت في طاعون عمواس في خلافة عمر، وكان ذلك بعد فتح بيت المقدس هـ.

قوله : (ثم تكون الأموال فيكم)، وفي رواية البخاري : ثم استفاضة المال أي كثرته، ووقع ذلك في خلافة عثمان.

قوله : (فيظل ساخطا)، أي استقلالا لذلك المبلغ وتحقيرا له.

قوله : (وفتنة لخ) قال في الفتح : والفتنة المشار إليها افتتحت بقتل عثمان، واستمرت الفتن بعده والسادسة لم تجيء بعد هـ.

قوله : (وبين بني الأصفر)، هم الروم.

قوله : (هدنة) بضم الهاء وسكون المهملة بعدها نون، هي الصلح على ترك القتال بعد التحرك فيه.

قوله : (فيغدرون) بكسر الدال المهملة.

قوله : (في ثمانين غاية) بغين معجمة فألف فتحتية أي راية، وسميت بذلك لأنه غاية المتبع إذا وقفت وقف وإذا مشت تبعها.

قوله : (تحت كل غاية اثنا عشر ألفا)، فجملة ذلك تسعمائة ألف وستون رجل وفي حديث ذي مخبر بكسر الميم وسكون المعجمة وفتح الموحدة عند أبي داود نحو هذا الحديث راية بدل غاية، وفي أوله ستصالحون الروم صلحا آدم هذا الحديث راية بدل غاية، وفي أوله ستصالحون الروم صلحا آمنا، ثم تغزون أنتم وهم فتنصرون ثم تنزلون مرجا فيرفع رجل من أهل الصليب فيقول : غلب الصليب فيغضب رجل من المسلمين فيقوم إليه فيدفع، فعند ذلك تغدر الروم ويجتمعون للملحمة فيأتون فذكره قال المهلب فيه : أن الغدر من اشتراط الساعة، وفيه أشياء من علامات النبوة قد ظهر أظهرها وقال ابن المنير : أما قصة الروم فلم تقع إلى الآن، ولا بلغنا أنهم غزوا في البر في هذا العدد، فهي من الأمور التي لم يقع بعد، وفيه بشارة ونذارة، وذلك أنه دل على أن العاقبة للمؤمنين مع كثرة ذلك الجيش، وفيه إشارة إلى أن عدد جيوش المسلمين سيكون أضعاف ما هو عليه والله أعلم.

قوله : (حتى تقتلوا إمامكم)، وقد قتل عثمان رضي الله عنه (وتجتلدوا بأسيا فكم) أي تقتتلوا بها.

قوله : (إذا ولدت الأمة ربها لخ)، تقدم الحديث في كتاب الإيمان أول الكتاب.

قوله : (أن يرفع العلم)، أي من الأرض بموت حملته، وقبض نقلته، لا بمحوه من صدورهم.

قوله : (ويفشو الزنا)، أي يظهر قال القرطبي : هذا من أعلام النبوة، لأنه إخبار عن أمور ستقع وقد وقعت هـ.

قوله : (ويشرب الخمر بالبناء للمفعول)، أي يكثر شربه.

قوله : (ويذهب الرجال لـخ)، لفظ رواية البخاري : وتكثر النساء، وذلك أن الفتن تكثر القتل في الرجال، لأنهم أهل حرب دون النساء وقيل : هو إشارة إلى كثرة الفتوح فيكثر السبي، فيتخذ الرجل الواحد عدة موطئات قال ابن حجر : وفيه نظر لتصريحه بالقلة في حديث فقال : من قلة الرجال وكثرة النساء والظاهر أنها علامة محضة، لا بسبب آخر بل يقدر الله آخر الزمان أن يقل من يولد من الذكور، ويكثر من يولد من الإناث، وكون كثرة النساء من العلامات يناسب رفع العلم وظهور الجهل.

قوله : (حتى يكون خمسين امرأة قيم واحد)، لفظ رواية البخاري القيم الواحد ولامه للعهد إشعارا بما هو المعهود من كون الرجال قوامين على النساء، والقيم ما يقوم بأمرهن فكفى به عن إتيانهن له لطلب النكاح حلالا أو حراما قال المناوي : وخص هذه الأمور الخمسة بالذكر لإشعارها باختلاف الأمور التي يحصل صلاح المعاش والمعاد، وهي الدين لأن رفع العلم يخل به والعقل، لأن شرب الخمر يخل به والنسب، لأن الزنى يخل به والنفس والمال، لأن كثرة الفتن تخل بهما هـ.

قوله : (حتى يحسر هو بفتح الياء وكسر السين)، أي ينكشف لذهاب ما به، ومنه حسرت العمامة عن رأسي والحاسر الذي لا سلاح له، وفي رواية : ينحسر وقال بعضهم : يقال يحسر البحر ولا

يقال : ينحسر وفي رواية لأبي داود ومسلم : يوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب، فمن حضر فلا يأخذ منه شيئاً.

قوله : (فيقتل من كل عشرة تسعة)، وفي رواية مسلم : فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون ويقول كل رجل منهم : لعلي أكون أنا الذي أنجو.

قوله : (حتى يفيض المال)، أي يكثر.

قوله : (ويكثر الهرج) بفتح فسكون وقد فسره في الحديث بأنه القتل والله أعلم.

باب ذهاب القرآن والعلم

قوله : (عن زياد بن لبيد بن ثعلبة بن سنان بن عامر الأنصاري البياضي) ذكره موسى بن عقبة وغيره فيمن شهد العقبة وبدرا، وذكر الواقدي وغيره : أنه كان عامل النبي ﷺ على حضر موت وولاه أبو بكر قتال أهل الردة من كندة، وهو الذي ظفر بالأشعث بن قيس فسيره إلى أبي بكر رضي الله عنه.

قوله : (ثكلتك بكسر الكاف)، أي فقدتك وهو دعاء عليه بالموت ظاهراً والمقصود التعجب من الغفلة عن مثل هذا الأمر.

قوله : (لا يعملون بشيء مما فيهما)، أي ومن لا يعمل بعلمه هو، والجاهل سواء، والحديث إسناده صحيح، ورجاله ثقات، إلا أنه منقطع قال البخاري في التاريخ الصغير : لم يسمع سالم بن أبي الجعد بن زياد بن لبيد وتبعه على ذلك الذهبي في الكاشف وقال : ليس له شيء في بقية الكتب قال الحافظ وأخرجه الحاكم أيضاً من هذا الوجه وله شاهد أخرجه الطبراني في الأوسط من طريق أبي طوالة وزياد، وفي الترمذي والدارمي من طريق معاوية بن صالح

عن عبد الرحمان بن جبير بن نفيير عن أبيه عن أبي الدرداء قال :
كنا مع رسول الله ﷺ فقال : هذا أوان يختلس العلم فقال له زياد
بن لبيد الأنصاري : فذكر الحديث قال : فلقيت عبادة ابن الصامت
فقال : صدق، وأول ما يرفع الخشوع، وأخرجه النسائي وابن
حبان والحاكم من طريق الوليد بن عبد الرحمان عن جبير بن نفيير
قال : حدثني عوف بن مالك أن النبي ﷺ نظر إلى السماء فقال :
هذا أوان رفع العلم، الحديث وفيه : فلقيت شداد بن أوس فذكر
قصة الخشوع، ووقع في رواية النسائي لبيد بن زياد وهو مقلوب
هـ. من الإصابة.

قوله : (يدرس الإسلام) من درس الرسم دروسا إذا عفا وهلك
ومن درس الثوب درسا، إذا صار عتيقا باليا ويؤيد الثاني قوله :
وشى الثوب، وهو بفتح فسكون نقشه.

قوله : (يتقارب الزمان، بأن يعتد الليل والنهار، أو يدنو قيام
الساعة، أو تقصر الأيام والليالي، أو يتقارب في الشر والفساد حتى
لا يبقى من يقول الله الله)، أو المراد بتقاربه تسارع الدول في
الانقضاء والقرون إلى الانقراض، فيتقارب زمانهم وتتدانى أيامهم
أو تتقارب أحواله في أهله في قلة الدين، حتى لا يكون فيهم من يأمر
بمعروف وينهى عن المنكر لغلبة الفسق وظهور أهله أو المراد :
قصر الأعمار بالنسبة إلى كل طبقة، فالطبقة الأخيرة أقصر أعمارا
من الطبقة الأخيرة التي قبلها، وفي حديث أنس عن الترمذي
مرفوعا: لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان، فتكون السنة
كالشهر والشهر كالجمعة والجمعة كالיום، ويكون اليوم كالساعة،
وتكون الساعة كاحتراق السعفة، قال بعضهم : والحق أن المراد
نزع البركة من كل شيء حتى من الزمان، وهذا من علامات قرب

الساعة وقال النووي : والمراد بقصر اليوم عدم البركة فيه وأن اليوم مثلاً يصير الإنتفاع به بقدر الانتفاع بالساعة الواحدة هـ.

وينقص العلم، وفي رواية البخاري : وينقص العمل، أما نقصان العلم فتقدم أنه يكون بموت حملته، وأما نقصان العمل الحسي فإنه ينشأ عن نقص الدين ضرورة، وأما المعنوي فبسبب ما يدخل من الخل بسبب سوء المطعم وقلة المساعد على العمل، والنفس ميالة إلى الراحة وتحن إلى جنسها ولكثرة شياطين الإنس الذي هم أضر من شياطين الجن.

قوله : (ويلقى الشح) بتثليث الشين، وهو البخل في قلوب الناس على اختلاف أحوالهم حتى يبخل العالم بعلمه فيترك التعليم والفتوى، ويبخل الصانع بصناعته حتى يترك تعليم غيره، ويبخل الغني بماله حتى يهلك الفقير، وليس المراد أصل الشح، لأنه لم يزل موجوداً، فالمراد غلبته وكثرته والله أعلم.

باب ذهاب الأمانة

قوله : (حديثين)، أي في ذكر نزول الأمانة وفي ذكر رفعها. حدثنا أن الأمانة قيل المراد من الأمانة : التكليف الذي كلف الله به عباده والعهد الذي أخذه عليهم وقال صاحب التحرير : المراد بها هنا الأمانة المذكورة في قوله تعالى : ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها﴾، قال في فتوح الغيب : شبه حالة الإنسان وهي ما كلفه من الطاعة بحالة معروضة : لو عرضت على السموات والأرض والجبال، لأبت حملها وأشفقت منها لعظمها وثقل حملها، وحملها الإنسان على ضعفه

ورخاوة قوته، إنه ظلوم على نفسه جاهل بأحوالها حيث قبل ما لم تطق حمله هذه الأجرام العظام فقوله : حملها على حقيقتها والمراد بالأمانة : التكليف، وروى محي السنة : عرض الله الأمانة على أعيان السموات والأرض والجبال فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة بما فيها؟ قال : إن أحسنتن جوزيتن، وإن عصيتن عوقبتن قلن : لا يا رب لا نريد ثوابا ولا عقابا خشية وتعظيما لدين الله. وكان هذا العرض تخيرا لا إلزاما، أوشبته هذه الأجرام حال انقيادها وأنها لم تمتنع عن مشيئة الله وإرادته إيجابا أو تكوينا وتسوية بهيئات مختلفة بحال مأمور مطيع، لا يتوقف عن الامتثال إذا توجه إليه أمر أمره المطاع كالأنبياء وأفراد المؤمنين، وعلى هذا فمعنى (فأبين أن يحملنها) : أنها بعد ما انقادت وأطاعت ثبت عليها وأدت ما التزمت من الأمانة وخرجت عن عهدها سوى الإنسان، فإنه ما وفى بذلك وخان إنه كان ظلوما جهولا وقال الزجاج: أعلمنا الله تعالى أنه ائتمن بني آدم على ما افترضه عليهم من طاعته وائتمن السموات والجبال والأرض على طاعته والخضوع له، فأما هذه الأجرام فأطعن الله ولم تحمل الأمانة أي أدتها وكل من خان الأمانة فقد احتملها.

قوله : (نزلت في جذر قلوب الرجال) بفتح الجيم وكسرهما وسكون الذال المعجمة الأصل والمراد : قلوب الناس أعم من الرجال والنساء، ويحتمل أن يكون المراد : الرجال بخصوصهم لقلّة الأمانة في النساء من الأصل.

قوله : (فعلمنا من القرآن لخ)، أي بعد نزول الأمانة في القلوب ازددنا فيها بالقرآن والسنة بصيرة وحسنت منا العلانية والسريّة.

قوله : (ثم حدثنا عن رفعها)، أي ذهابها أصلا حتى لا يبقى من يوصف بالأمانة، وهذا هو الحديث الثاني الذي ذكر حذيفة أنه ينتظره.

قوله : (فيظل أثرها) بالطاء المعجمة أي يصير (كأثر الوكت) بفتح الواو وبعد الكاف الساكنة فوقية النقطة في الشيء من غير لونه، أو هو السواد اليسير أو اللون المحدث المخالف للون الذي كان قبله.

قوله : (كأثر المجل) بفتح الميم وسكون الجيم بعدها لام النفاخت التي تخرج في الأيدي عند كثرة العمل بنحو فأس يحسبه الناس في جوفه شيئا، وليس فيه شيء.

قوله : (فنقط) لكسر الفاء بعد النون المفتوحة، أي فارتفع موضعه فصار نقطة (فتراه منتبرا) بضم النون وفتح الفوقية وكسر الموحدة مفتعلا أي مرتفعا وقال أبو عبيد : منتبرا منقطعا (وليس فيه شيء) والمعنى أن الأمانة تزول عن القلوب شيئا فشيئا فإذا زال أول جزء منها زال نورها وخلفته ظلمة كالوكت وهو أثر محكم، لا يكاد يزول إلا بعد مدة، وهذه الظلمة فوق التي قبلها وشبه زوال ذلك النور بعد وقوعه في القلب وخروجه بعد استقراره فيه، واعتقاب الظلمة إياه بجمر يدخره على رجله حتى يؤثر فيها ثم يزول الجمر، ويبقى النفط قاله صاحب التحرير، وذكر النفط اعتبارا بالعضو ثم في قوله ثم ينام النوم للتراخي في الرتبة وهي نقيضة ثم في قوله : ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة.

قوله : يتبايعون أي السلع ونحوها بأن يشتريها أحدهم من الآخر.

قوله : (من إيمان)، ذكر الإيمان، لأن الأمانة لازمة الإيمان، وليس المراد هنا أن الأمانة هي الإيمان.

قوله : (ولقد أتى على زمان)، أي كنت أعلم فيه أن الأمانة موجودة في الناس.

قوله : (أيكم بايعت) : أي بعت واشتريت غير مبال بحاله.

قوله : (ليردنه على إسلامه) بتشديد التحتية من علي : أي فلا يخونني بل يحمله إسلامه على أداء الأمانة، فأنا واثق بأمانته.

قوله : (ليردنه علي ساعيه) : أي وليه الذي أقيم عليه بالأمانة فينصفني منه ويستخرج حقي منه، أو المراد الذي يتولى قبض الجزية، يعني أنه كان يعامل من شاء غير باحث عن حاله وثوقا بأمانته، فإنه إن كان مسلما فدينه يمنعه من الخيانة، ويحمله على أداء الأمانة :

قوله : (إلا فلانا وفلانا)، أي أفرادا من الناس، قلائل ممن أثق بهم فكان يثق بالمسلم لذاته، وبالكافر إن خاف، بخلاف الوقت الأخير، وفيه إشارة إلى أن حال الأمانة أخذ في النقص من ذلك الزمان وكانت وفاة حذيفة أول سنة ست وثلاثين بعد قتل عثمان بقليل فأدرك بعض الزمن الذي وقع فيه التغيير والله أعلم.

قوله : (نزع منه الحياء)، أي منه تعالى أو من الخلق أو منهما جميعا.

قوله : (لم تلقه)، أي بم تجده - إلا مقيتا - فعيل بمعنى فاعل أو مفعول من المقيت وهو أشد الغضب ممقتا، بالتشديد والبناء للمجهول، أي مبغوضا بين الناس كثيرا مغضوبا عليه عندهم وحاصله : يبغض الناس ويبغضونه جدا.

قوله : (نزعت منه الأمانة)، أي أودعت فيه الخيانة.

قوله : (مخونا) بالتشديد والبناء للمجهول : أي منسوباً إلى الخيانة بين الناس محكوماً له بها عندها إذا صار بهذا الوصف.
قوله : (نزعت منه الرحمة)، أي التي هي رقة القلب والعطف على الخلق.

قوله : (إلا رجيماً)، أي مطروداً وأصل الرجم الرمي بالحجارة فعيل بمعنى مفعول أي مرجوم (مُلْعَنًا) بضم الميم وفتح اللام والتشديد أي مطروداً عن منازل الأخيار ودرجات الأبرار ويلعنه الناس كثيراً.

قوله : (ربقة الإسلام) بكسر الراء، وقد تفتح وسكون الموحدة التحتية، أصلها عروة في حبل يجعل في عنق الدابة يمسكها، استعير للإسلام يعني ما يشد به نفسه من عرى الإسلام، أي حدوده وأحكامه قال الحكيم : بين به أن الحجاب الأعظم حجاب الحياء، وتلك الحجب فروعه هـ.

وبه عرف أن الحياء أشرف الخصال وأكمل الأحوال وخلال الكمال لكن ينبغي أن يراعى فيه القانون الشرعي، فإن منه ما يذم كحياء من أمر بمعروف أو نهى عن منكر، فإن جبن لا حياء ومنه الحياء في العلم المانع للسؤال، ومن ثم ورد خبر إن ديننا هذا لا يصلح لمستحي : أي حياء مذموماً، والحديث إسناده ضعيف فيه سعيد بن سنان ضعيف مختلف في اسمه والله أعلم.

باب الآيات

قوله : (والدخان) أي ظهوره عياض قال بعضهم : إن الدخان يأخذ بأنفاس الكفار، ويأخذ المؤمن منه مثل الزكام وفسر به الآية،

وأنكر ابن مسعود هذا وقال : إنما هو ما نال قريشا من الجذب لدعائه ﷺ حتى كانوا يرون بينهم وبين السماء دخانا من الجوع وقيل : الدخان الجذب نفسه، والقول الأول قاله ابن عمر وحذيفة والحسن، وأنه آية تبقى في الأرض أربعين يوما ذكره حذيفة عن النبي ﷺ وعن زيد على الدخان ما ينتظره الكافر في العذاب، والعرب تضع الدخان موضع الشره.

قال الأبى : ولا ينافى كونه آية، انكار ابن مسعود، لأنه إنما أنكر على القاص من حيث أنه فسر به الآية هـ

قوله : (ونار تخرج من قعر عدن أبين)، بوزن أحمر قرية مشهورة بالنهر قاله بعضهم قال النووي : وعدن مدينة معروفة مشهورة باليمن قال المارودي : سميت عدنا من العدون، وهي الإقامة لأن تبعا كان يحبس فيها أصحاب الجرائم قال : وهذه النار الخارجة من قعر عدن هي الحاشرة للناس كما صرح به في الحديث، وأما قوله ﷺ في حديث مسلم أيضا : لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى، فقد جعلها القاضي عياض حاشرة قال : ولعلهما ناران يجتمعان لحشر الناس قال : أو يكون إبتداء خروجها من اليمن ويكون ظهورها وكثرة قوتها بالحجاز، هذا كلام القاضي وليس في الحديث أن نار الحجاز متعلقة بالحشر، بل هي آية من اشتراط الساعة مستقلة قال: وقد خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وستمائة، وكانت نارا عظيمة جدا من جنب المدينة الشرقي وراء الحرة، تواتر العلم بها عند جميع أهل الشام وسائر البلدان، وأخبرني من حضرها من أهل المدينة هـ.

وباقى الآيات المذكورة فى الحديث ستأتى فى الأبواب بعده.
قوله : (بادروا بالأعمال ستا)، أى أسرعوا بالأعمال الصالحة قبل وقوعها وقال القاضي : أمرهم أن يباكروا بالأعمال قبل نزول هذه الآية، فإنها إذا نزلت أدهشت واشغلت عن الأعمال أو سد عليهم باب التوبة وقبول العمل هـ.

قوله : (وخويصة أحدكم)، تصغير خاصة بسكون الياء، لأن ياء التصغير لا تكون إلا ساكنة قال فى النهاية : يريد حادثة الموت التى تخص الإنسان وصغرت لاستصغارها فى جنب سائر العظام من بعث وحساب وغيرهما وقيل : هى ما يخص الإنسان من الشواغل المقلقة من نفسه وماله وما يهتم به.

قوله : (وأمر العامة) قيل : القيامة، لأنها تعم الخلائق أو الفتنة التى تعمى وتصم أو الأمر الذى يستبد به العوام، وتكون من قبلهم دون الخواص والله أعلم.

قوله : (الآيات بعد المائتين) قال بعضهم : المراد الآيات الصغار التى هى كالمقدمات للكبار مثل فشو الكذب أو الكبار، والمراد بالمائتين : المائتان بعد الألف، ويحتمل أن الكلام مسوق لإفادة أن المائتين من الآيات وليس المراد أنها متصلات بمضى المائتين والله أعلم، والحديث فى إسناده عون بن عبادة العبدى وهو ضعيف وقال السيوطى : هذا الحديث أورده ابن الجوزى فى الموضوعات من طريق محمد بن يونس الكندعى عن عون به وقال : هذا حديث موضوع، وعون وابن المثنى ضعيفان، غير أن المتهم به الكندعى قلت : ولقد تبين أنه توبع عليه، كما ترى أى فى رواية المصنف، وأخرجه الحاكم فى المستدرک من طريق آخر عن عون به وقال : صحيح وتعقبه الذهبى فى تلخيصه فقال : عون ضعفه وقال ابن

كثير : هذا الحديث لا يصح، ولو صح فمحمول على ما وقع من الفتنة بسبب القول بخلق القرآن، والمحنة للإمام أحمد بن حنبل وأصحابه من أئمة الحديث هـ.

قوله : (ثم الهرج الهرج) بفتح فسكون، تقدم أنه القتل.
قوله : (النجا النجا) قال في المجمع : النجا السرعة من نجا ينجو، إذا أسرع ونجا من الأمر إذا خلص أي : اطلبوا النجا، وهو بالمد والمعروف فيه المد إذا أفرد والمد والقصر إذ كرر هـ.
والحديث في إسناده يزيد ابن أبان الرقاشي وتقدم أنه ضعيف وقال السيوطي : هذا أورده ابن الجوزي في الموضوعات من طريق كامل بن طلحة عن عباد بن عبد الله عن أنس وقال : لا أصل له، والمتهم به عباد وقد تبين أنه له متابعات عن أنس وله عدة شواهد سقتها في مختصر الموضوعات هـ.

قوله : (ثم ذكر نحوه)، قال في الزوائد : إسناده ضعيف وأبو معن والمسور بن الحسن وحازم العنبري مجهولون وقال أبو حاتم: وهذا الحديث باطل وقال الذهبي في طبقات رجال التهذيب في ترجمة المسور : حديثه منكر هـ.

باب الخسوف

قوله : (بين يدي الساعة)، أي أقدامها وأصله أن يستعمل في مكان يقابل صدر الشخص، وبين يديه، ثم نقل إلى الزمن.
قوله : (مسخ)، هو قلب الخلقة من شيء أو تحويل الصورة إلى أقبح منها، أو مسخ القلوب (وخسف) أي غور في الأرض (وقذف)،

أي رمى بالحجارة من جهة السماء قيل : هذا من باب التغليظ والتشديد، والحديث رجال إسناده ثقات، إلا أنه منقطع ويسار أبو الحكم لم يحدث عن طارق بن شهاب قاله الإمام أحمد، وله شاهد من حديث أبي هريرة رواه ابن حبان في صحيحه قاله في الزوائد هـ.

قوله : (عن سهل بن سعد) في إسناده عبد الرحمان بن يزيد بن أسلم، وتقدم أنه ضعيف.

قوله : (عن عبد الله بن عمر لخ، رجال إسناده ثقات، إلا أنه منقطع وأبو الزبير اسمه محمد بن مسلم لم يسمع من عبد الله بن عمرو قاله ابن معين وقال أبو حاتم : لم يلقه، والله تعالى أعلم.

باب جيش البیداء

قوله : (حتى إذا كانوا ببیداء من الأرض لخ) قال عیاض : البیداء الأرض الملساء التي لا شيء فيها، وبیداء المدينة الشرق الذي أمام ذي الحليفة إلى جهة مكة، وهي التي اختلف هل أهل النبي ﷺ منها هـ.

قوله : (خسف لخ)، على بناء المفعول قال الأبي : الأظهر في هذا الخسف أنه لم يقع، وأنه لا بد منه لوجوب صدق خبره ﷺ هـ.

باب دابة الأرض

قوله : (تخرج الدابة) عیاض هي المراد في قوله تعالى : (أخرجنا لهم دابة) الآية، تكلمهم بكلام يفهموه، وذكر المفسرون أنها خلق

عظيم تخرج من صدع من الصفا لا يفوتها أحد، فتسم المؤمن فينير وجهه وتكتب بين عينيه مؤمن، وتسم الكافر فيسود وجهه وتكتب بين عينيه كافر. وعن ابن عمر : هي الجساسة المذكورة في حديث الدجال، وعن ابن عباس : أنها الثعبان الذي كان يبير الكعبة فاخترطته العقاب، وذكروا أنها آخر الآيات ويغلق عندها باب التوبة والعلم والعمل هـ.

قوله : (فتجلو وجه المؤمن بالعصا)، أي بإلهام من الله تعالى فيصير بين عينيه نقطة يبيض بها وجهه (وتخطم) أي تسم قال (الزمخشري) : تخطم تؤثر على أنفه، من خطمت البعير إذا وسمته بالكي بخطم من الأنف إلى أحد خديه، وتسمى تلك السمة الخطام هـ.

قوله : (حتى إن أهل الحواء)، ضبط بكسر الحاء المهملة والمد وهي بيوت مجتمعة من الناس على الماء.

قوله : (فإذا فتر في شبر الفتر)، بكسر فسكون كالشبر لفظا ومعنى، وفي الصحاح : الفتر ما بين طي في السبابة والإبهام، والحديث في إسناده خالد بن عبيد قال البخاري : في حديثه نظر وقال ابن حبان والحاكم يحدث عن أنس بأحاديث موضوعة والله أعلم.

باب طلوع الشمس من مغربها

قوله : (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها)، قال عياض : طلوعها كذلك أحد الأشرار المنتظرة، وهو على ظاهره وتأولته المبتدعة هـ.

قال الأبي : يعني القائلين بالقدم المحيلين لانعكاس حركة
الأفلاك والكواكب السبعة المتحركة هـ.

قوله : (فذلك حين لا ينفع نفسا لـخ)، قال الأبي : عدم نفع
الإيمان حينئذ كعدم نفعه عند حضور الموت بجامع أن كلا منهما
عائن أحوال الآخرة، فهو حكم الميت! وأنت تعرف أن طلوع الشمس
من المشرق، تختلف فيه الآفاق فتطلع من أفق قبل أفق، وكذلك إذا
طلعت من المغرب فعدم نفع الإيمان يحتمل أنه في حق من طلعت في
أفقهم فقط، وأما من بعدهم فحتى تطلع بأفقهم، وأنت أيضا تعرف
أن الشمس إحدى الكواكب السيارة السبعة، وأن حركتها في نفسها
إنما هي من المغرب إلى المشرق عكس حركة الفلك، فطلوعها من
المغرب يحتمل أنه بانعكاس حركة الفلك وهو الظاهر، أو حركة
نفسها، ولم يرد هل يستمر طلوعها من المغرب بقية عمر العالم؟ أو
يوما فقط والله أعلم هـ.

قوله : (أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها بخ)، قال
المنائوي : الآيات إما أمارات دالة على قرب الساعة فأولها بعث
نبينا ﷺ، أو أمارات متوالية دالة على وقوعها، والكلام هنا فيها،
ورجاء في خبر أن أولها ظهور الدجال قال الحليمي وهو
الظاهر فأولها الدجال، فنزول عيسى عليه السلام فخرج
ياجوج وماجوج، لأن الكفار في وقت عيسى عليه السلام
يفتنون فمنهم من يقتل ومنهم من يسلم وتضع الحرب أوزارها،
فلو كانت الشمس طلعت من مغربها قبل لم ينفع اليهود إيمانهم
أيام عيسى عليه السلام، لأن طلوعها يزيل الخطاب ويرفع
التكليف، ولو لم ينفعهم لما صار الدين واحدا بإسلام من أسلم
منهم قال البيهقي : وهو كلام صحيح، لو لم يعارض هذا

الحديث الصحيح الذي في مسلم وغيره أن أول الآيات طلوع الشمس من المغرب هـ.

وقال ابن كثير : المراد في الحديث بيان أول الآيات الغير المألوفة لكونه بشرا، فأما خروج الدابة على شكل غريب غير مألوف ومخاطبتها الناس ووسمها إياهم بالإيمان والكفر، فأمر خارج عن مجاري العادات وذلك أول الآيات الأرضية، كما أن طلوع الشمس من مغربها على خلاف عاداتها المألوفة أول الآيات السماوية والله أعلم هـ.

قوله : (مفتوحا للتوبة)، أي لارتفاع التوبة منه أي محل القبول أو أنه جعل علامة لقبول التوبة والله أعلم.

باب فتنة الدجال وخروج عيسى ابن مريم وخروج ياجوج وماجوج

قوله : (الدجال أعور العين اليسرى) من إضافة الموصوف إلى صفته، وفي رواية للبخاري : أعور العين اليمنى والله تعالى منزّه عن العور، وعن كل آفة، فإذا ادعى الربوبية ولبس عليهم بأشياء ليست في البشر، فإنه لا يقدر على إزالة العور الذي يسجل عليه بالبشرية ذكره الزمخشري، وما ذكر من أنه أعور اليسرى لا يعارضه ما ذكر من أنه أعور اليمنى، لأنهما معيبتان إحداهما طافئة لا ضوء فيها، والأخرى ناتئة كحبة عنب.

قوله : (جفال الشعر) بضم الجيم وتخفيف الفاء كغراب أي كثير قال المناوي : ورد في صفته أنه هجان بكسر أوله وتخفيف الجيم، أي أبيض أقمر، أي شديد البياض ضخم فيلما نى بفتح الفاء

وسكون التحتانية أي عظيم الجثة كأن رأسه أغصان شجرة أي شعر رأسه كثير متفرق قائم، ومن صفاته تنام عيناه، ولا ينام قلبه، له حمار أهرب أي كثيره الهلب الشعر الغليط ما بين أذنيه أربعون ذراعا يضع خطوه عند منتهى طرفه، وعن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أن طول الدجال أربعون ذراعا بالأذرع الأولى تحته حمار أقمر، أي شديد البياض طول كل آذن من أذنيه ثلاثون ذراعا ما بين حافر حماره إلى الحافر الآخر مسيرة يوم وليلة، تطوى له الأرض منهلا منهلا، يتناول السحاب بيمينه ويسبق الشمس إلى مغيبها، يخوض البحر إلى كعبيه. وعن كعب الأخبار قال : يتوجه الدجال فينزل عند باب دمشق الشرقي أي ابتداء قبل خروجه، ثم يلتمس فلا يقدر عليه ثم يرى عند المياه التي عند نهر الكسوة ثم يطلب فلا يدري أين توجه، ثم يظهر بالمشرق فيعطى الخلافة، ثم يظهر السحر ثم يدعي النبوة فيتفرق الناس عنه، أي المسلمون فيأتى النهر فيأمره أن يسيل فيسيل ثم يأمره أن ييبس فييبس، ويبعث الله له شياطين فيقولون استعن بنا على ما تريد فيقول : نعم اذهبوا إلى الناس فقولوا : أنا ربهم فيبثهم في الآفاق، ويخرج في خفة من الدين وادبار من العلم فلا يبقى أحد يحاجه في أكثر الأرض، ويذهل الناس عن ذكره، وإن أكثر ما يتبعه الأعراب والنساء حتى إن الرجل ليرد أمه وبنته وأخته وعمته فيوثقها رباطا مخافة أن تخرج إليه، وأنه يأتى فيقول لأعرابي: أرأيت إن بعثت إليك أباك وأمك أتشهد أنى ربك فيقول : نعم، فيمثل له الشيطان على صورة أبيه وآخر على صورة أمه فيقولان له : يا بني اتبعه فإنه ربك فيتبعه ومن ثم قال حذيفة : لو خرج الدجال في زمانكم لرمته الصبيان بالخزف، ولكنه يخرج في نقص من العلم وخفة من

الدين، والمراد بالأعراب : كل بعيد من العلماء ساكن في البادية والجبال سواء كان من الأعراب الأتراك أو الأكراد أو غير ذلك، لأنهم لا يميزون بين الحق والباطل، وأكثر النفوس مائلة إلى تصديق الخوارق هـ.

قوله : (معه جنة ونار، فناره جنة وجنته نار)، أي من أدخله الدجال ناره بتكذيبه إياه تكون تلك النار سببا لدخوله الجنة في الآخرة، ومن أدخله جنته بتصديقه إياه تكون تلك الجنة سببا لدخوله النار في الآخرة، وزاد في رواية بعد قوله : وجنته نار فمن ابتلى بناره فليستغث بالله وليقرأ فواتح الكهف فتكون عليه بردا وسلاما، وفي رواية : وأنه يجيء معه مثل الجنة والنار فالتى يقول إنها الجنة هي النار وفي رواية : معه صورة الجنة خضراء يجري فيها الماء وصورة النار سوداء تدخن وقيل : هذا يرجح إلى إختلاف المرئي بالنسبة إلى الرائي أو يكون الدجال ساحرا فيجعل الشيء بصورة عكسه وقيل : ذلك والله أعلم.

قوله : (يقال لها خراسان بلد كبير مشهور) قال البسطامي : هو موضع الفتن ويكون خروجه إذ غلا السعر ونقص القطر قال ابن حجر : أما خروجه من قبل المشرق فجزم، ثم جاء في هذه الرواية أنه يخرج من خراسان، وفي أخرى أنه يخرج من أصبهان أخرجه مسلم، وأما الذي يدعيه فإنه يخرج أولا فيدعي الإيمان والصلاح ثم يدعي النبوة، ثم يدعي الألوهية كما أخرجه الطبراني قال : فإن قلت ينافي خروجه من خراسان أو أصبهان ما أخرجه أبو نعيم من طريق كعب الأحبار أن الدجال تلده أمه بقوص من أرض مصر قلت : كلا، لاحتمال أن يولد فيها ثم يرحل إلى المشرق وينشأ فيه ثم يخرج هـ.

قوله : (كأن وجوههم المجان)، بفتح الميم وتشديد النون جمع مجن بكسر ميم وفتح وتشديد نون، وهو الترس، سمي به لأنه يستر المستجن به، أي يغطيه (المطرقة) بضم الميم وتشديد الراء المفتوحة أي : الأتراس التي ألبست العقب شيئاً فوق شيء، ذكره الزمخشري شبه وجوه أتباعه بالمجان في غلطها وعرضها وفظاظتها. والحديث رواه أيضا الترمذي والحاكم وقال : صحيح. وأقره الذهبي وقال : حسن غريب.

قوله : (هو أهون على الله من ذلك) هذا مع ما تقدم من أن ذلك يكون معه قد يشكل وأجيب : بأن المعني أهون من أن يجعل الله ما يخلق على يده من ذلك مضلاً للمؤمنين ومشككاً لهم، وقد جعل الله فيه آية ظاهرة في كذبه وكفره يقرأها من قرأ ومن لم يقرأ، زيادة على شواهد كذبه من حديثه ونقصه بالعور، وليس المراد ظاهره، وأنه لا يجعل على يديه شيئاً من ذلك، بل هو على التأويل المذكور والله أعلم.

قوله : (ولكن تميماً الداري أتاني فأخبرني) قال النووي : هذا معدود من مناقب تميم، لأنه عليه السلام روى عنه هذه القصة، ففيه رواية الفاضل عن المفضل وقبول خبر الواحد هـ.

قوله : (من الفرخ وقرة العين)، سيعلم أن فرحه كان سبب أمن المدينة من شر اللعين.

قوله : (في قوارب السفينة)، قال المازري : هو جمع قارب والقارب سفينة صغيرة تكون مع الكبيرة يتصرفون فيه أهل السفينة فيما يحتاجون إليه هـ.

قوله : (فإذا هم بشيء أهدب أسود)، وفي رواية مسلم : فلقيتهم دابة أهدب كثير الشعر، لا يدرون ما قبله من دبره من كثير الشعر.

قوله : (أنا الجساسة)، هو بفتح الجيم وتشديد السين المهملة الأولى وقيل سميت بذلك لتجسسها الأخبار للدجال، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص : أنها دابة الأرض المذكورة في القرآن.
قوله : (هذا الدير)، ضبط بفتح دال وسكون الياء المثناة من تحت، صومعة الراهب.

قوله : (رمقتموه) في القاموس رمقه كفرح غشيه ولحقه أو دنا منه.

قوله : (بالأشواق)، أي شديد الشوق.

قوله : (شديد الوثاق)، بالفتح والكسر ما يوثق به.

قوله : (ناوأ قوما)، أي عاداهم.

قوله : (فأظهره)، أي نصره.

قوله : (زغر)، بزاي وغين معجمة وراء مهملة هو كعمر، فلذلك لا ينصرف، بلدة معروفة بالشام.

قوله : (بين عمان)، بفتح العين وتشديد الميم مدينة قديمة بالشام.

قوله : (وبيسان)، هو بالباء الموحدة بعدها ياء مثناة من تحت ساكنة اسم موضع.

قوله : (بحيرة طبرية)، هو تصغير بحر وطبرية بلدة بناها بعض ملوك الروم، والنسبة إليها، طبراني ولطبرستان بخمرسان، طبرى كذا في شرح الترمذي.

قوله : (تدفق)، تدفع الماء بقوة وسرعة من باب نصر.

قوله : (جنباتها)، تثنية الجنبه بفتحتين الطرف.

قوله : (فزفر)، في الصحاح الزفر أول صوت الحمار والشهيق آخره، لأن الزفير إدخال النفس والشهيق إخراجها، ذكره السيوطي.

قوله : (سمع النواس)، بفتح النون وتشديد الواو (ابن سمعان) بكسر السين وفتحها غير منصرف بن خالد بن عبد الله بن أبي بكرة بن كلاب بن ربيعة الكلابي معدود في الساميين يقال : إن أباه سمعان بن خالد وفد على النبي ﷺ فدعا له رسول الله ﷺ وأعطاه نعليه فقبلهما رسول الله ﷺ، وزوجه أخته فلما دخلت على النبي ﷺ تعوذت منه فتركها، وهي الكلابية، روى النواس بن سمعان جبير بن نفير ونفير بن عبد الله وجماعة قاله ابن عبد البر في الاستيعاب هـ.

قوله : (فخفض فيه ورفع) قال القرطبي : هو بتخفيف الفاء أي كثر الكلام في شأنه فتارة يرفع ليستمع وتارة يخفض ليستريح من تعب الإعلان وقيل : معناه صغره وحقره كما قال : هو أهون على الله من ذلك وتارة عظم أمره كما قال ليس بين يدي الساعة أعظم خلقا من الدجال، والأول أسبق للفهم، وروى بتشديد الفاء أي بالغ في تقريبه واستعمل فيه كل من خفض ورفع.

قوله : (حتى ظننا)، أي لغاية المبالغة في تقريبه (أنه من طائفة النخل).

قوله : (غير الدجال أخوفني عليكم)، قال عياض : رويناه عن الأكثر أخوفني بالنون بعد الفاء وعن أبي بحر : أخوفي بحذفها هـ.

قال الأبى : المذكورة هي نون الوقاية، وهي خاصة بالأفعال ولما كانت أفعال التفصيل أشبه الأشياء بالأفعال على ما هو مقرر في محله، لحقته النون كما هو في رواية في هذا الحديث، وأما معنى الحديث : فذكر النووي عن شيخه مالك في تقريره ثلاثة أوجه أظهرها :

الأول : أن يكون التقدير مخوفاتي عليكم غير الدجال
فحذف المضاف إلى ياء المتكلم، ومنه أخوف على أمتي الأئمة
المضلون.

الثاني : أن يكون أخوف من أخاف بمعنى خوف بتشديد الواو،
ومعناه غير الدجال أشد موجبات خوفي عليكم.

الثالث : أن يكون من وصف المعاني بما توصف به الأعيان على
وجه المبالغة كقولهم في الشعر الفصيح شعر شاعر، والتقدير
خوف غير الدجال أخوف خوفي عليكم، ثم حذف المضاف الأول ثم
الثاني هـ.

قوله : (فإذا حجيجه)، أي محاجه ومبطل أمره، ودونكم دون
افتقار إلى معين، قال الأبي قيل أحاديث الباب دالة على أنه لا يخرج
إلا بعد المهدي، وأن عيسى عليه السلام يقتله إلى غير ذلك من
الوقائع الدالة على أنه لا يخرج ورسول الله ﷺ بين أظهر الناس،
بل لا تراه القرون الأولى فما وجه قوله ﷺ أن يخرج وأنا فيكم
قلت: أجاب بعض الشافعية بأنه إنما سلك هذا المسلك من التورية
ليلقي الخوف من فتنة وليلهم باللجا إلى الله سبحانه من شره
وأجاب غيره بأنه يحتمل أن يريد بذلك تحقيق خروجه، أي أنه
يخرج لا محالة وإن يريد عدم علمه بوقت خروجه قال الطيبي :
وهذا الوجه الثاني أصوب هـ.

قوله : (فامرؤ حجيح نفسه التنكير للتعميم)، أي كل إمريء
يعني من المسلمين بدليل والله خليفتي على كل مسلم.

قوله : (قطط)، بفتحتين أي شديد جعودة الشعر.

قوله : (كأني أشبهه بعبد العزى) قال : ولم يقل كأنه عبد
العزى. قيل إنه لم يكن جازما بتشبيهه به قيل : قد كان يهوديا

ولعل الظاهر أنه كان مشركا، لأن العزى صنم يؤيده ما في بعض الحواشي، هو رجل من خزاعة هلك في الجاهلية هـ.
قوله : (فيلقرأ عليه فواتح سورة الكهف)، أي فإن الله يؤمنه منه.

قوله : (من خلة) قال النووي : كذا هو في نسخ بلادنا بفتح الخاء المعجمة واللام وتنوين الهاء. قال القاضي : والمشهور فيه حلة بالحاء المهملة، وفسره الهروي بأنه ما بين البلدين ونصب الهاء يعني غير منونة، أي قبالة ذلك وسمته، وفي كتاب العين : الحلة موضع حزن وصخور قال ورواه بعضهم : حله بضم اللام وبهاء الضمير أي نزوله وحلوله.

قوله : (فعاث يمينا وعاث شمالا) بعين مهملة وثاء مثلثة مفتوحة فعل ماض والعيث وهو أشد الفساد والإسراع فيه.
قوله : (يا عباد الله اثبتوا) قال القرطبي : أمر لمن لقيه أن يثبت فإن لبثه في الأرض قليل وأما من لم يلقه فليفر عنه لحديث أبي داود : من سمع به فلينا عنه فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه لما يبعث به من الشبهات هـ.

قوله : (أربعون يوما يوم كسنة لخ)، قال عياض : ما بعده يدل أنه على ظاهره، القرطبي : يخرق الله العادة في تلك الأيام ويبطئ بالشمس عن حركتها المعتادة، ولم لحمله بعضهم على ظاهره وتأوله بأن الهم عند هجومه يطول به اليوم، ثم يتناقض بالاعتیاد قال الجوزي : وهذا الذي ذكره يرده أتكفينا فيه صلاة يوم وليلة قال : لا، أقدروا له قدره أي قدروا الأوقات للصلاة غير أن المتأول نفى صحة هذه الكلمات، أعني قوله (أتكفينا صلاة يوم وليلة لخ)، قال ولو كان صحيحا لاشتهر وهذا الذي ذكر هذا الرجل لا يقدح

في الثقة بما انفرد به العدل، وقد ذكر الحديث مسلم والترمذي وأبو داود وحكموا بصحته هـ.

قوله : (فأقدروا له قدره) قال النووي : معناه إذا مضى من طلوع الفجر مقدار ما تزول الشمس صليت الظهر، وهكذا إذا مضى مقدار ما يدخل فيه وقت العصر، فتصلى العصر، وهكذا في بقية الصلوات الخمس، وكذا ينقضي اليوم وقد وقع فيه صلاة سنة كلها في وقته، وهكذا في اليوم الثاني والثالث على هذا التقدير هـ.

قوله : (فما إسرعه في الأرض كالغيث لـخ)، المراد بالغيث إطلاقاً للسبب على المسبب، أي يسرع في الأرض إسرع الغيم إذا استدبرته الريح.

قوله : (وتروح عليهم سارحتهم)، أي فترجع آخر النهار وقال المارزي : السارح والسرح هي الماشية تغدو بالغداة إلي المرعى هـ.

قوله : (أطول ما كانت ذرى) بضم الذال المعجمة جمع ذروة بضم أو كسر أي أعالي الأسنمة.

قوله : (وأمدّه خواصر)، أي لكثرة إمتلائها من الشبع.

قوله : (فيصبحون محلين)، أي أصابهم المحل من قلة المطر وببیس الأرض من الكلاء.

قوله : (فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل) قال عياض : الذي ذكره أهل اللغة أن يعسوب النحل أميرها. والمراد هنا الجماعة لا الأمير خاصة قال القرطبي : ووجه التشبيه أن الدجال تتبعه الكنوز كما تتبع النحل اليعسوب، فإنه إذا طار تبعته جماعته هـ.

قوله : (فيقطعه جزلتين رمية الغرض) جزلتين بفتح الجيم على المشهور وحكى ابن دريد كسرهما أي قطعتين، ومعنى رمية الغرض قال عياض : عندي أن فيه تقدماً وتأخيراً، وأن موضع

رمية الغرض أن يكون متوسطا والتقدير : فيصيبه إصابة الغرض فيقطعه جزلتين، فاختصر الكلام واكتفى بقوله إصابة الغرض هـ.

وقيل : يعني بإصابة الغرض سرعة نفوذ السيف فيه وإصابة المجن.

قوله : (يتهلل وجهه) أي يستنير وتظهر عليه أمارات السرور.
قوله : (عند المنارة البيضاء شرقي دمشق)، هي بكسر الدال وفتح الميم على المشهور، وحكى صاحب المطالع كسر الميم قال النووي : وهذه المنارة موجودة شرقي دمشق، وهذا الحديث من فضائل دمشق هـ.

قوله : (بين مهرودتين) يروى بالبدال المهملة وبالذال المعجمة والمهملة أكثر، أي لابس مهرودتين أي حلتين مصبوغتين بورس أو زعفران. وقيل هما شقتان وقيل غير ذلك.

قوله : (إذا طأطأ)، أي خفض رأسه سال منه ماء يعني العرق.
قوله : (منه جمان) بضم الجيم وفتح الميم المخففة، وهي حبات من الفضة تصنع على هيئة الأولؤ الكبار، شبه عرقه بالجمان في صفائه وحسنه.

قوله : (ولا يحل لكافر أن يجد ريح نفسه إلا مات)، يحل بكسر الحاء ونفسه بفتح الفاء، ومعنى لا يحل لا يمكن قال عياض : وعندي أن معناه لا يحق، ورواه بعضهم بضم الحاء وليس بشيء هـ.

قوله : إلا مات قال في النهاية : هو حق واجب واقع كقوله تعالى : ﴿وحرام على قرية﴾، أي حق واجب عليها. قال القاضي في شرح الترمذي : قد جاء أنه يقاتل المِلَل كلها، فيحتمل أنه يريد

به يقاتلهم بنفسه، ويحتمل أنه يريد أن من كان مع الدجال مات هكذا وغيرهم يموت بالسيف والله أعلم هـ.

قوله : (ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه) قال القرطبي نفسه بفتح الفاء وطرفه بسكون الراء وهو عينه، ويعني أن الله سبحانه وتعالى قوى نفسه عليه السلام حتى يصل إلى إدراك بصره، ومعناه أن الكفار لا يقربونه، وإنما يهلكون عند رؤيته ووصول نفسه إليهم حفظ من الله تعالى له إظهار لكرامته هـ.

قوله : (عند باب لد) بضم اللام وتشديد الدال. قال النووي : بلد قريب من بيت المقدس هـ.

قوله : (فيمسح وجوههم) قال عياض : هو على ظاهره للتبرك، والإشارة إلى ذهاب ما نزل بهم من الخوف هـ.

قوله : (لا يأذن لأحد بقتالهم) ، أي لا قدرة ولا قوة ولا طاقة، وثنيت مبالغة فكان يديه معدومتان لعجزه عن الدفع.

قوله : (فأحرز عبادي إلي الطور) بالحاء المهملة من الإحراز وهو الجمع والضم والإدخال في الحزن، أي ضمهم إليه واجعله لهم حرزا.

قوله : (من كل حذب ينسلون) الحذب ما ارتفع من الأرض والنسل الإسراع.

قوله : (حتى يكون رأس الثور لأحدهم لخ)، لعله لما ينالهم من الحاجة إلى ما يأكلون، وإنما ذكر الرأس لتقاس البقية عليه في القيامة.

قوله : (النفث) هو بفتح النون والغين المعجمة، دود يكون في أنف الإبل والغنم وأحدها نغفة ويقال للرجل المحتقر، إنما أنت نغفة.

قوله : (فيصبحون فرسى) كقتلى لفظا ومعنى، جمع فرس من فرس الذيب الشاة إذا قتلها.

قوله : (وقد ملأه زهمهم) بفتح الزاي والهاء، أي دهمهم ورائحتهم الكريهة.

قوله : (لا يكن منه بيت مدر) أي لا يمنع منه بيت المدر بفتح الميم والdal وهو الطين الصلب.

قوله : (كالزلفة) روى بفتح الزاي واللام وبالqaf وبالفاء وروى بسكون اللام فيهما قال النووي : وفي كلمة زلفة ضم الزاي وسكون اللام عياض واختلف في معناه فعن ابن عباس وثلعب وأبي زيد وآخرين : معناه كالمرأة في صفائها وقيل : معناه كمصانع الماء أي يستنقع الماء فيها كما يستنقع في المصانع التي يجتمع فيها الماء وقيل : كالصحفة وقيل كالروضة هـ.

قوله : (فيومئذ تأكل العصابة لx) النووي كذا للجميع ولأبي سعيد فيوشك بدل، فيومئذ، والعصابة بكسر العين، الجماعة وقحف الرمانة بكسر القاف، مقعر قشرها والقحف أعلا الجمجمة، واللقحة بكسر اللام وفتحها التي تحلب من الإبل واستعملها ها هنا في البقر والغنم، وجاء في القرآن الكريم في الرياح ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ أي تحمل الندى ثم تمجه في السحاب وكل متقارب وجمعها لقح بكسر اللام وفتح الفاء، والرسل بكسر الراء وسكون السين المهملة اللبـن والفئام بكسر الفاء بالهمزة ككتاب الجماعة الكثيرة والفخذ دون القبيلة وفوق البطن قال ابن فارس : وفخذ النسب بسكون الخاء لا غير، وفي الفخذ الذي هو الجارحة السكون والكسر هـ.

قوله : (يتهارجون) قال النووي : أي يجامع الرجال النساء بالطرقات وحضرة الناس لا يكثرثون بذلك كما تفعله الحمر، والهرج بفتح الهاء وسكون، الجماع هرج الرجل زوجته وطئها بالحركات الثلاث هـ.

قوله : (سيوقد المسلمون من قسى) بكسر القاف وتشديد الياء جمع فرس.

قوله : (ونشابهم) بضم النون وتشديد الشين المعجمة السهام.

قوله : (سبع سنين) إشارة إلى كثرتها.

قوله : (ارفع أمتي)، أي الذين هم الموجودون يومئذ فلا يلزم تفضيلهم على الصحابة. وقد جاء في مسلم عن أبي إسحاق بن سفيان أن هذا الرجل هو الخضر عليه السلام.

قوله : (من نقب) بفتح فسكون، هو الطريق بين الجبلين.

قوله : (عند الضريب) قيل لعل المراد به الجبل.

قوله : (فترجف المدينة)، قال المازري : أي يتحرك من فيها من الكفار والمنافقين بقدمه، رجف الشيء تحرك وارجف القوم خاضوا في الفتنة وكأنهم يحركون غيرهم هـ.

قوله : (رجل صالح) قال السيوطي : هو المهدي.

قوله : (ينكص) النكوص الرجوع إلى وراء وهو القهقري.

قوله : (افتحوا الباب)، أي باب المسجد.

قوله : (وساج) قيل : هو الطيلسان الأخضر.

قوله : (لن تسبقني بها)، أي لن تفوتها علي.

قوله : (لا حجر ولا شجر لـخ)، لا مانع من حمله على الحقيقة بإدراك خلقه الله للحجر وغيره، ويحتمل المجاز وأنه كناية عن كمال استيصال قتلهم قاله الأبي.

قوله : (إلا الغرقد) وهو ضرب من شجر العضاه وقيل : الغرقد العوسج وقال أبو حنيفة الدنيوري : العوسجة إذا عظمت فهي غرقده قال عياض : ورأيت في بعض التعاليق أن الغرقد هو الدفلى ولا يصح، القرطبي : الغرقد هو شجر معروف له شوك معروف ببلاد بيت المقدس، وهناك يكون قتل الدجال واليهود هـ.

قوله : (كالشروة) قال في الصحاح : الشرر أي بفتحتين ما يتطاير من النار والواحدة شررة. قوله : (حكما) بفتحتين أي حاكما بين الناس بشريعة نبينا ﷺ لا نبيا مرسلا بشريعة أخرى. قوله : (وإماما) قال الأبى : الأظهر أنه إمام طاعة، خليفة عن رسول الله ﷺ في أمته لا إمام صلاة.

قوله : (مقسطا) أي عادلا من أقسط إقساطا وقسطا بكسر القاف، إذا عدل ومنه حديث : إذا حكموا عدلوا وإذا أقسموا أقسطوا. قوله : (يدق الصليب)، أي يكسره بحيث لا يبقى من جنس الصليب شيء، حتى لا يعبد إلا الله تعالى لما في بعض الروايات وتكون السجدة لله رب العالمين خيرا من الدنيا وما فيها.

قوله : (ويذبح الخنزير)، أي يحرم أكله أو يقتله، بحيث لا يوجد في الأرض ليأكله أحد والحاصل : أنه يغير ما تنسبه النصارى إلى شرعها لأنه إنما ينزل ملتزما لشريعة النبي ﷺ.

قوله : (ويضع الجزية)، أي لا يقبلها لفيض المال، وإنما يقبل حينئذ الإيمان قال عياض : وقد يكون معني وضعها ضربها على جميع أهل الكفر، لأن الحرب حينئذ تضع أوزارها ولا يقاتله أحد هـ.

وقال النووي : الحكم اليوم أن الكفار إن بذل الجزية وجب قبولها ولا يقتل ولا يجبر على الإسلام، وهذا يستمر إلى نزول

عيسى عليه السلام فينسخ، والناسخ النبي ﷺ بهذه الأحاديث لا عيسى فعدم قبولها حينئذ من شريعتنا هـ.

قوله : (ويترك الصدقة)، أي الزكاة لكثرة الأموال، ففي رواية مسلم ويفيض المال إما لإلقاء الأرض كنوزها أو لوضع الجزية على أحد التأويلين أو لنزول البركة ورفع الظلم أو لقلّة الرغبة لقصر الآمال لعلم الناس أن الساعة قد اقتربت.

قوله : (حمة) بضم ففتح مخفف السم.

قوله : (من أسلم) بكسر السين وسكون اللام أي الصلح.

قوله : (كفأثور الفضة)، الفأثور بفاء ومثلثة الخوان وقيل : هو طست أوجام من ذهب أو فضة.

قوله : (وينحاز)، يقال انحاز القوم تركوا مركزهم إلى آخره.

قوله : (ولننازلن)، التنازل كالتقاتل هو التضارب بين الفريقين أي لنحاربن.

قوله : (فتشكر) بفتح الكاف أي تسمن وتمتلىء شحما (كأحسن ما شكرت) بكسر الكاف على بناء الفاعل. والحديث تقدم جل ألفاظه في الأحاديث قبله، وإسناده صحيح رجاله ثقات ورواه الحاكم أيضا وقال : صحيح على شرط مسلم.

قوله : (الذي أحفظ)، لعل هذا من كلام الراوي بتقدير هذا الذي أحفظه.

قوله : (شكرا) بفتحتين.

قوله : (فيما دون وجبتها)، أي قيامها.

قوله : (فيجأرون إلى الله)، الجوار رفع الصوت والاستغاثة.

قوله : (ثم تنسف الجبال)، أي تفتت والله أعلم. والحديث قال في الزوائد : هذا صحيح رجاله ثقات ومؤثر بن عفازة ذكره ابن

حبان في الثقات، ولم أر من تكلم فيه وباقي رجال الإسناد ثقات، ورواه الحاكم أيضا وقال : هذا صحيح الإسناد والله سبحانه أعلم هـ.

باب خروج المهدي

قوله : (إذا أقبل فتية) بكسر الفاء أي جماعة.

قوله : (إغرورقت عيناه)، أي غرقتا بالدموع.

قوله : (حتى يدفعوها)، أي الإمارة قال ابن كثير : في هذا الإشارة إلى ملك بني العباس وتعقب بأن قوله فيملؤها قسطا، أي عدلا ياباه، فالظاهر أنه إشارة إلى المهدي الموعود، ولذلك ذكر المصنف. هذا الحديث في هذا الباب، والله أعلم بالصواب، والحديث إسناده ضعيف لضعف يزيد ابن أبي زياد الكوفي، لكن قال في الزوائد : لم ينفرد يزيد ابن أبي زياد عن إبراهيم فقد رواه الحاكم في المستدرک من طريق عمر بن قيس عن الحكم عن إبراهيم هـ.

قوله : (إن قصر) على بناء المفعول من القصر وهو خلاف المد، أي إن قصر بقاؤه فيكم.

قوله : (كدوس) ضبط بضم الكاف قال السيوطي : أي مجتمع.

قوله : (فيقوم الرجل فيقول لخ)، وفي رواية أبي داود من حديث ابن سعيد وقال : خشينا أن يكون بعد نبينا حدث فسألناه فقال : يخرج من أمتي المهدي يعيش خمسا أو سبعا أو تسعا زيد الشاك قال : قلنا وما ذاك يا رسول الله قال : سنين قال : يجيء إليه الرجل فيقول يا مهدي أعطني يا معطي أعطني قال : فيحثي له

في ثوبه ما استطاع أن يحمله قال : حديث حسن، وفي أبي داود أيضا المهدي من أمتي أجلى الجبهة أقنى الأنف يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا يملك سبع سنين.

قوله : (عند كنزكم)، أي ملككم وقال ابن كثير : الظاهر أن المراد بالكنز المذكور كنز الكعبة.

قوله : (ثم تطلع الرايات السود)، قال ابن كثير : هذه الرايات السود ليست هي التي أقبل بها أبو مسلم الخراساني فاستلب بها دولة بني أمية، بل رايات سود تأتي صحبة المهدي.

قوله : (لا أحفظه)، يعني في طريق آخر فأخرجه الحسن ابن سفيان في مسنده وأبو نعيم في كتاب الهدى من طريق إبراهيم بن سويد الشامي.

قوله : (فإنه خليفة الله المهدي)، كذا ذكره السيوطي. وفي الزوائد هذا إسناد صحيح رجاله ثقات ورواه الحاكم في المستدرک وقال : صحيح على شرط الشيخين هـ.

قوله : (يصلحه الله في ليلة)، أي يهيئه الله للحكم بين الخلق ويفيض عليه العلوم في ليلة فليس ذلك بتآن ولا تربية. والحديث في إسناده ياسين العجلي قال في الميزان عن البخاري : فيه نظر ولا أعلم له حديثا غير هذا، وقال ابن معين وأبو زرعة : لا بأس به وأبو داود الحفري اسمه عمر بن سعد احتج به مسلم في صحيحه وباقيهم ثقات والله أعلم.

قوله : (من ولد فاطمة) قال ابن كثير : فأما الحديث الذي أخرجه الدار قطني في الأفراد عن عثمان بن عفان مرفوعا : المهدي من ولد العباس عمي فإنه حديث غريب كما قاله الدارقطني، تفرد به محمد بن الوليد مولى بني هاشم هـ.

وقال ابن الجوزي فيه أي حديث الدارقطني المذكور محمد بن الوليد المقرئ ويقلب الأسانيد والمتون وقال ابن أبي معشر : هو كذاب وقال السمعوني فيه محمد بن الوليد وضاع مع أنه لو صح حمل على المهدي ثالث العباسيين، وعليه يحمل خبر الرافعي : ألا أبشرك يا عم أن من ذريتك الأصفياء ومن عثرتك الخلفاء ومنك المهدي إلى آخر الزمان به ينشر الهدى وبه يطفأ نيران الضلال، إن الله فتح بنا هذا الأمر وبذريتك يختم هـ.

قال المناوي : وحاول بعضهم التوفيق بينه وبين حديث المهدي : من ولد فاطمة بأنه من ولد فاطمة، لكنه يدلي إلى بعض بطون بني العباس هـ.

قوله : (نحن ولد عبد المطلب سادة أهل الجنة لخ)، في إسناده مقال قال في الزوائد : وعلى بن زياد لم أر من وثقه ولا من جرحه وباقي رجال الإسناد موثقون هـ.

قوله : (فيوطأون للمهدي)، أي يمهدون. والحديث فيه ضعيفان عمرو بن جابر الحضرمي وعبد الله بن لهيعة.

باب الملاحم

جمع ملحمة وهو موضع القتال ويطلق على القتال والفتنة أيضا، إما من اللحم لكثرة لحوم القتلى فيها أو من لحمة الثوب لاشتباك الناس واختلافهم فيها كاشتباك لحمة الثوب بسداه، والمراد ها هنا بيان الفتن والوقائع العظام وأمثالها.

قوله : (عن الهدنة) بضم هاء وسكون دال مهملة، أي الصلح الذي يكون بين المسلمين وبين الروم).

قوله : (صالحا آمنا)، أي ذا أمن.

قوله : (ثم تغزون أنتم وهم عدوا)، أي آخرين بالمشاركة والاجتماع بسبب الصلح الذي بينكم وبينهم، أو أنتم تغزون عدوكم وهم يغزون عدوهم بالانفراد.

قوله : (بمرج) بسكون الراء آخره جيم الموضوع الذي ترعى فيه الدواب.

قوله : (ذي تلؤل) يضمّتين وخفة لام، جمع تل كل ما اجتمع على الأرض من تراب أو رمل.

قوله : (غلب الصليب)، أي دين النصارى قصد لإبطال الصلح أو لمجرد الافتخار وإيقاع المسلمين في الغيظ.

قوله : (تحت ثمانين غاية) تقدم أن المراد بالغاية الراية. والحديث روى أبو داود بعضه وإسناده عند المؤلف حسن.

قوله : (من الموالي)، أي من الذين أعتقهم العرب وقوله: هم أكرم العرب يدا يدل على أنهم من العرب، والحديث إسناده حسن وعثمان ابن أبي العاتكة مختلف فيه قاله في الزوائد هـ.

قوله : (ستقاتلون جزيرة العرب)، قال القرطبي : ليس هو خطابا للحاضرين فقط، بل ولغيرهم من الصحابة ولكل من يقاتل في سبيل الله إلى قيام الساعة وجزيرة العرب أرضهم التي نشأوا فيها، وسميت جزيرة لأنها مجزورة بالبحار والأنهار أي مقطوعة، وأصل الجزر القطع عياض، قال الخليل : سميت جزيرة لإحاطة البحار والأنهار بها عن فارس وبحر الحبشة ودجلة وفرات. الأصمعي جزيرة العرب ما لم يبلغه ملك فرس من أقصى عدان إلى ريف العراق وعرضها من جدة إلى ساحل البحر إلى أطراف الشام. وعن مالك هي المدينة وعن المغيرة : هي مكة والمدينة واليمامة

واليمن، وحكى إسماعيل القاضي عن مالك وقال أيضا : هو كل بلد لم تملكه الروم ولا فارس هـ.

قوله : (ثم تقاتلوا الدجال فيفتحها الله)، وفي رواية مسلم : فيفتح الله قال النووي : ويروي بفتحها بضمير المؤنث وضمير الذكر، يحتمل أن يعود على الدجال ومعنى فتحه قتله على يد عيسى عليه السلام، ويحتمل أن يعود على ملكه وضمير المؤنث يعود على مملكته بأرضه التي يغلب عليها هـ.

قوله : (بين الملحمة)، بفتح الميمين الحرب ومحل القتال (وفتح المدينة) أي القسطنطينية (ست سنين لخ)، قال ابن كثير : يشكل بخبر الملحمة الكبرى وفتح المدينة، وخروج الدجال في سبعة أشهر، إلا أن يكون بين أول الملحمة وآخرها ست سنين، وبين آخرها وفتح المدينة مدة قريبة تكون مع خروج الدجال في سبعة أشهر هـ. والحديث في إسناده بقية قال المناوي : فيه مقال هـ.

قوله : (أدنى مسالح) جمع مسلحة وهو كالثغر يكون فيه أقوام يرقبون العدو ليلا يطرقهم على غفلة، فإذا رأوه أعلموا أصحابهم ليتأهبوا له.

قوله : (ببدلاء)، قال في النهاية : اسم موضوع كان يسرق فيه الأعراب متاع الحاج هـ.

قوله : (روقة الإسلام)، أي خيار المسلمين وسراتهم جمع رائق من راق الشيء إذا صفا وخلص.

قوله : (حتى يقتسموا بالأتربة)، جمع ترس إشارة لكثرة ما غنموا.

قوله : (فالآخذ نادم)، أي لظهور أنه كذب (والتارك) لهذا القول (نادم) أي لأن الدجال يخرج بعده بقريب بحيث يري التارك أنه لو

تأهب له حين سمع ذلك القول كان أحسن والله أعلم. والحديث قال في الزوائد : في إسناده كثير بن عبد الله كذبه الشافعي وأبو داود. وقال ابن حبان : روى عن أبيه عن جده نسخة موضوعة لا يحل ذكرها في كتاب، ولا الرواية عنه إلا على جهة التعجب هـ.

باب الترك

قوله : (نعالهم الشعر)، وفي رواية لمسلم : يلبسون الشعر ويمشون في الشعر عياض، معنى ينتعلون الشعر ويلبسونه أنهم يصنعون منه حبالا ويصنعون من تلك الحبال أنعلة وثيابا، ويحتمل أن شعورهم كثيفة طويلة، فإذا استدلّت فهي كاللباس ولوصولها إلى الأرض والأرجل كالنعال هـ.

قوله : (في الآخر ذلف الأنوف)، بضم الذال المعجمة على الصحيح أو المهملة وسكون اللام، جمع أذلف قال النووي : ومعناه فطسها أي قصرها مع البطاح وقيل : هو غلظ الأرنبة وهي معجزة ظهرت، فإنهم قاتلوا مرار وإلى الآن هـ.

قوله : (كأن وجوههم المجان المطرقة) تقدم معناه قريبا.

قوله : (ويتخذون الدرق) بفتحيتين واحدهما درقة بفتحيتين وهي المحفة. والحديث رواه ابن حبان أيضا في صحيحه من طريق الأعمش وإسناده المؤلف حسن وعماد ابن محمد مختلف فيه والله تعالى أعلم.

أبواب الزهد

هذا آخر أبواب الكتاب وفي ختم الكتاب بهذه الأبواب إشارة إلى أن نتيجة العلم هو الزهد في الدنيا والرغبة فيما عند الله قال ابن القيم : الفرق بين الزهد والورع أن الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة والورع ترك ما يخشى ضرره في الآخرة هـ.

باب الزهد في الدنيا

قوله : (ليس بتحريم الحلال)، أي على نفسك بأن تترك طيبات ما أحل الله.

قوله : (ولا في إضاعة المال)، أي بإخراجه عن ملكك قال المناوي: فقد كان عليه السلام قدوة الزاهدين ويأكل اللحم والحو والعل، ويحب ذلك والنساء والطيب والثياب الحسنة، فخذ من الطيبات من غير سوف ولا مخيلة، وإياك وزهد الرهبان هـ.

قوله : (أن لا تكون بما في يديك أوثق منك بما في يد الله)، أي لا يكون اعتمادك على حالك أكثر من اعتمادك على رزق الله، فلا يهملك جمع المال بناء على أنك تعتمد عليه بل تنظر إلى رزق الله وتترك هم الجمع، لذلك فإنك إذا عتقدت ذلك وتيقنته لا يقدح في زهدك، وتجردك تناولك من الدنيا ما لا بد لك منه مما تحتاج إليه في قوام البنية ومؤونة العيال.

قوله : (وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها أبقيت لك)، أي فالزهادة استواء الوثوق بما قسمه الله تعالى مما حصل في يديك وما لم يحصل وكونك في ثواب المصيبة في ابتدائها أرغب منك في ثوابها ودوامها. قال المناوي : فليس الزهد تجنب المال بالكلية بل تساوي وجوده وعدمه عنده وعدم تعلقه

بالقلب البتة ومن ثمة قال الغزالي : الزهد ترك طلب المفقود من الدنيا وتفريق المجموع منها وترك إرادتها واختيارها. وقالوا : وأصعب الكل ترك الإرادة بالقلب إذ كم تارك لها بظاهره محب لها بباطنه، فهم في مكافحة ومقاساة من نفسه شديدة، فالشأن كله في عدم الإرادة القلبية، ولهذا لما سئل أحمد عمن معه ألف دينار لا يكون زاهدا قال : نعم بشرط أن لا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا انقصت وقال بعضهم : الزاهد من لا يغلب الحلال شكره ولا الحرام صبره، قال ابن القيم : وهذا أحسن الحدود. فالزهد فراغ القلب من الدنيا، لا فراغ اليد منها، وقد جهل قوم فظنوا أن الزهد تجنب الحلال فاعتزلوا الناس فضيعوا الحقوق وقطعوا الأرحام وجفوا الأنام واكفهروا في وجوه الأغنياء، وفي قلوبهم شهوة الغنى أمثال الجبال، ولو يعلموا أن الزهد إنما هو بالقلب وأن أصله موت الشهوة القلبية، فلما اعتزلوها بالجوارح ظنوا أنهم استكملوا الزهد، فأداهم ذلك إلى الطعن في كثير من الأئمة هـ.

والحديث رواه الترمذي أيضا وقال : حديث غريب وقال المناوي : فيه عمرو بن واقد القرشي، قال الدارقطني : متروك هـ.

قوله : (عن أبي (خلاد) يقال اسمه عبد الرحمان بن زهير له صحبة.

قوله : (إذا رأيت الرجل)، في رواية أبي نعيم : إذا رأيت العبد (قد أعطي) بالبناء للمفعول أي أعطاه الله (زهدا في الدنيا)، أي استصغارا لها واحتقارا لشأنها وأهلها.

قوله : (وقلة منطق كمحمل)، أي عدم كلام في غير طاعة إلا بقدر الحاجة. قال في الكشف : والمنطق كلما يصوت به من مفرد ومؤلف مفيدا وغيره هـ.

قوله : (فإنه يلقي الحكمة) قال المناوي : يلقي الحكمة بقاف مشددة مفتوحة، أي يعلم دقائق الإشارات الشافية لأمراض القلوب المانعة من اتباع الهوا ثم قال وللناس في تعريف الحكمة أقوال كثيرة منها الإصابة في القول وإتقان العمل وأصلها الإحكام وهو وضع الشيء في محله بحيث يمتنع فساد، ومن اتصف بذلك فأعماله منقحة وأفعاله محكمة فإنه يرى الأشياء كما هي فإنه ينظر بنور الله، ومن كان هذا وصفه أصاب في منطقه قال : والحديث رواه أيضا أبو نعيم والبيهقي في الشعب عن أبي خلاد الرعيبي وله صحبة وفيه هشام بن عمار قال الذهبي عن أبي حاتم ثقة تغير فلن كما تلقن عن الحكم ابن هشام لا يحتج به، ورواه أبو نعيم أيضا من حديث حرملة بن يحيى عن وهب عن أبي هريرة ثم قال : غريب بهذا الإسناد. ورواه البيهقي أيضا عن أبي هريرة وفيه عنده عثمان بن صالح، وفي كلام معروف عن دراج منكر ومن ثم قال العراقي في الحديث ضعيف هـ.

قوله : (دلني على عمل)، أي أرشدني إلى عمل جامع للفضائل ومانع عن الرذائل.

قوله : (أحبني الله) محبة الله للعبد رضاه عنه وإحسانه إليه، لأن المحبة ميل طبيعي وهو في حقه تعالى محال فالمراد غايتها.

قوله : (وأحبني الناس) لأن محبتهم تابعة لمحبة الله، فإذا أحبه ألقى محبته في قلوب خلقه لقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدًّا﴾.

قوله : (ازهد في الدنيا)، أي أعرض عنها ولا تبال بإقبالها وإدبارها، ولا تتصرف فيها إلا بما يعينك ويعينك على التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله.

قوله : (يحبك الله)، مجزوم على واجب الأمر أو مرفوع على الإستيناف والظاهر الأول.

قوله : (يحبك الناس) لأن من نازع إنسانا في محبوبه كرهه وقلاه، ومن لم يعارضه فيه أحبه وارتضاه، ولهذا قال الحسن البصري : لا يزال الرجل كريما على الناس حتى يطمع في دنياهم فيستخفون به ويكرهون حديثه، وقيل لبعض أهل البصرة : من سيدكم؟ قال الحسن قال بم سادكم قال : احتجنا لعلمه واستغنى عن دنيانا. والحديث رواه أيضا جماعة كالعقيلي وابن عدي وابن أبي حاتم والخطيب ونسبه في الجامع الصغير للطبراني والحاكم والطبراني ورمز لصحته وحسنه الترمذي وتبعه النووي وصححه الحاكم، لكن شنع عليه الذهبي بأن فيه خالد ابن عمرو القرشي وضاع، ومحمد بن كثير المصيصي ضعفه أحمد وقال المنذري : عقب عزوه للمصنف وقد حسن بعض مشايخنا إسناده وفيه بعد لأنه من رواية خالد القرشي، وقد ترك واتهم قال : لكن على هذا الحديث لامعة من أنوار النبوة، ولا يمنع كونه رواه الضعفاء أن يكون الرسول قاله هـ.

قوله : (أوجع يشترك) من اشأزه أي أقلقه.

قوله : (أموالا تقسم)، أي من أموال بيت الله.

قوله : (ما أبكي ضنا)، بكسر ضاد معجمة أي بخلا لذهابها. والحديث قال في الزوائد في إسناده جعفر بن سليمان الضبعي، وهو إن أخرج له مسلم ووثقه ابن معين فقد قال ابن المديني : هو ثقة عندنا أكثر عن ثابت أحاديث منكرة، وقال البخاري في الضعفاء : يخالف في بعض حديثه وقال ابن حبان في الثقات : كان يبغض أبا بكر وعمر وكان يحيى بن سعيد يسضعف هـ.

باب الهم بالدنيا

قوله : (وأنته الدنيا وهي راغمة)، أي مقهورة قال بعضهم :
فالحاصل أن ما كتب للعبد من الرزق يأتيه لا محالة، إلا أنه من
طلب الآخرة قد جمع بين الدنيا والآخرة، فإن المطلوب من جمع المال
الراحة في الدنيا وقد حصلت لطلب الآخرة، وطالب الدنيا قد خسر
الدنيا والآخرة، لأنه في الدنيا في التعب الشديد في طلبها، فأى
فائدة له في المال إذا فاتت الراحة. والحديث إسناده ورجاله ثقات
والله أعلم.

قوله : (لم يبال الله في أي أوديته هلك)، ضمير أوديته لمن
والكلام كناية عن كونه تعالى لا يعنيه والله أعلم. والحديث تقدم في
اتباع السنة.

قوله : (تفرغ لعبادتي)، أي كن فارغا عن كل شيء وأصرف
وقتك كله فيها.

قوله : (إملاً صدرك لخ)، يحتمل الجزم على أنه جواب الأمر
والرفع على الاستئناف والله أعلم.

باب مثل الدنيا

قوله : (مامثل الدنيا في الآخرة) الجار والمجرور يتعلق بمحذوف
تقديره مثل الدنيا بالنسبة إلى الآخرة وكلمة في بمعنى إلى كقوله
تعالى : ﴿فردوا أيديهم في أفواههم﴾.

قوله : (إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليمِّ لـخ)، أي البحر حاصله أن الدنيا في القلة بالنظر إلى الآخرة كالذي على الأصبع بالنظر إلى البحر. وهذا الحديث شرح وتفسير لقوله تعالى : ﴿وما متاع الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ والله أعلم.

قوله : (لو كانت آذنتنا) من الإذن بمعنى الإعلام والإخبار.
قوله : (ما أنا والدنيا، وفي رواية لأحمد وأبي داود : مالي وللدنيا إنما أنا والدنيا لـخ).

قوله : (استظل تحت شجرة لـخ)، أي ومثله لا يتقيد بالفراش لتلك الساعة، وفي رواية أبي الشيخ : فقلنا يا رسول الله ألا تأذنا فنبيسط تحتك ألين منه فقال : مالي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها . قال المناوي : أي ليس معها إلا كحال راكب مستظل. قال الطيبي : وهذا تشبيه تمثيلي ووجه الشبه سرعة الرحيل وقلة المكث ومن ثم خص الراكب ومقصوده أن الدنيا زينت للعيون والنفوس فأخذت بهما استحسانا ومحبة، ولو باشر القلب معرفة حقيقتها لأبغضها، ولما أثرها على الأجل الدائم هـ.

والحديث رواه أيضا أحمد والترمذي والحاكم وصححه وأقره الذهبي والله أعلم.

قوله : (شائلة برجلها)، أي رافعة رجلها من الإنتفاخ. **قوله :** (تزن عند الله)، وفي رواية : تعدل وفي أخرى : لو وزنت الدنيا (جناح بعوضة) مثل لغاية القلة والحقارة والبعوضة فعولة من البعض وهو القطع كالْبضع غلب على هذا النوع .

قوله : (ما سقى كافرا منها قطرة ماء)، أي لو كان لها أدنى قدر ما متع الكافر منها أدنى تمتع، هذا أوضح دليل وأعدل شاهد

على حقارة الدنيا قيل لحكيم : أي خلق الله أصغر؟ قال : الدنيا إذا كانت لا تعدل عند الله جناح بعوضة فقال السائل : من عظم هذا الجناح فهو أحقر منه، والحديث أخرجه أيضا الترمذي والضياء المقدسي في المختارة قال الترمذي صحيح غريب وليس كما قال أبو داود غير ثقة، وفي إسناد المصنف زكرياء بن منظور ضعفه ورواه عنه الحاكم أيضا وصححه فردّه الذهبي بأن زكرياء ابن منظور ضعيف والله أعلم.

قوله: (إنى لفي الركب) بفتح فسكون جمع راكب اسم جمع له.
قوله : (على سخلة) بفتح فسكون معجمة ولد المعز أو الضأن ذكرا أو أنثى وقيل وقت وضعه.

قوله : (على سخلة) يفتح سين فسكون معجمة ولد المعز أو الضأن ذكرا أو أنثى وقيل وقت وضعه.

قوله : (من هو أنها)، أي عليهم (ألقوها أو كما قال) أي وقالوا أو لأن المقصود التحرز عن التعبير في حكاية كلامه ﷺ لا في حكاية كلامهم والله أعلم.

قوله : (الدنيا ملعونة)، أي لأنها غرت النفوس بزهورتها ولذاتها وأمالتها عن العبودية إلى الهوى حتى سلكت غير طريق الهدى. المراد بالدنيا كلما يشغل عن الله ويبعد عنه ولعنه بعده عن نظره تعالى والقبول عنده.

قوله : (إلا ذكر الله وما والاه)، أي ما يحبه الله في الدنيا، والمولات المحبة بين اثنين وقد تكون من واحد وهو المراد هنا يعني أن ما في الدنيا ملعون إلا ذكر الله وما أحبه الله مما يجري في الدنيا وما سواه ملعون وقيل : المراد بما يوالي ذكر الله طاعته واتباع أمره وتجنب نهيه، لأن ذكر الله يقتضي ذلك.

قوله : (أو عالما أو متعلما)، أي الدنيا وما فيها مبعد عن الله إلا العلم النافع الدال على الله، فهذا هو المقصود منها فقوله : عالما أو متعلما بالنصب عطفًا على ذكر الله، لأنه مستثنى من موجب، وروى بالرفع أيضا قال الطيبي : والنصب ظاهر والرفع على التأويل كأنه قيل الدنيا مذمومة لا يحمد ما فيها إلا ذكر الله وعالم ومتعلم، وكان حق الظاهر أن يكتفي بقوله : وما والاها لاحتوائه على جميع الخيرات. والفاضلات ومستحسنات الشرع، لكنه خصص بعد التعميم دلالة على فضل العالم والمتعلم وتفخيما لشأنهما صريحا وإيذانا بأن جميع الناس سواهما همج، وتنبيها على أن المراد بالعالم والمتعلم العلماء بالله الجامعون بين العلم والعمل فيخرج الجهلاء وعالم لم يعمل بعلمه، ومن يعمل عمل الفضول وما لا يتعلق بالدين، وفيه أن ذكر الله أفضل الأعمال ورأس كل عبادة. والحديث من كنوز الحكم وجوامع الكلم لدلالته بالمنطوق على جميع الخلال الحميدة، وبالمفهوم على رذائلها القبيحة والله أعلم.

قوله : (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) قال عياض : معناه أن المؤمن في الدنيا ممنوع من الشهوات المحرمة مكلفا بالأعمال الشاقة، فإذا مات استراح من هذا وانقلب إلى ما أعد الله له من النعيم. وأما الكافر فإنما له ذلك ما حصل له في الدنيا مع قلته وتنغيصه، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد هـ.

وفي سراج الملوك أن يهوديا رث الهيئة والحالة رأى فقيها وعليه لباس حسن فقال له : أستم تروون عن نبيكم أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر فأين ذلك من حالك وحالي؟ فأجابه : إذا مت وصرت إلى ما أعد الله لك من العذاب علمت أن الدنيا جنة لك، وإذا

مت أنا وصرت إلى ما أعد لي من النعيم علمت أن الدنيا كانت سجنًا لي هـ.

قوله : (كأنك غريب)، قدم بلدا لا مسكن له فيها يأويه ولا سكن يسليه خال عن الأهل والعيال والعلائق التي هي سبب الاشتغال عن الخالق، ولما شبه الناسك السالك بالغريب الذي ليس له مسكن ترقى وأضرب عنه بقوله أو عابر سبيل، لأن الغريب قد يسكن في بلاد الغربه وقيم فيها بخلاف عابر السبيل القاصد للبلد الشاسع وبينه أودية مرديّة ومفاوز مهلكة، وهو بمرصد من قطاع الطريق فهل له أن يقيم لحظة أو يسكن لحظة.

قوله : (وعد نفسك من أهل القبور)، أي استمر سائرا ولا تفتّر فإن قصرت انقطعت في تلك الأودية فلا تتنافس في عمارة الدور بعد المستوطن المغرور فيأتك الموت من غير استعداد وتقدم على سفر الآخرة بغير زاد. زاد في رواية : وإذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح وخذ من صحتك لسقمك ومن حياتك لموتك، فإنك لا تدري ما اسمك غدا قالوا : وذا من جوامع الكلم والله أعلم.

باب من لا يوبه له

قوله : (ألا أخبرك عن ملوك الجنة)، وفي رواية : ملوك أهل الجنة.

قوله : (ضعيف)، أي في نفسه أي منكسر الخاطر متواضع القلب لهوانه على الناس (مستضعف) بفتح العين على المشهور، أي

يستضعفه الناس ويحتقرونه ويتجبرون عليه لضعفه ولفقره ورثاثته وخموله وضبط بكسر العين أي نفسه ضعيفة لتواضعه وضعف حاله في الدنيا (ذو طمرين) بكسر فسكون إزار ورداء خلقين (لا يوبه له) أي لا يحتفل به (لو أقسم على الله لأبره) أي لو حلف يميناً على أن الله يفعل كذا أو لا يفعله جاء الأمر فيه على ما يوافق يمينه، أي صدق يمينه قال الغزالي : وهذا الحديث ونحوه يعرفك مذمة الشهرة وفضيلة الخمول وقال المناوي : هذا الحديث نص في تفضيل الضعيف على القوي وقد وقع عكسه في خبر مسلم (المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف)، فإنه نص في تفضيل القوي على الضعيف وأجاب النووي : بأن المراد القوة فيه عزيمة النفس والقريحة في شؤون الآخرة فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقداماً على أعداء الله وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبمدح الضعيف، فمن حيث رقة القلوب ولينها واستكانتها لربها وضراعتها إليه هـ.

والحديث قال المنذري : رواه محتج بهم في الصحيح إلا سويد بن عبد العزيز، وقال الحافظ العراقي في المغنى : سنده جيد، وفي أماليه حديث حسن وفيه سويد بن عبد العزيز ضعفه أحمد وابن معين والجمهور، ووثقه دحيم. والحديث له شواهد هـ.

قوله : (كل عتل) بالضم والتشديد الجافي أو الجموع المنوع أو الأكل الشروب، أو الغليظ من الناس.

قوله : (جواظ) بفتح الجيم وشد الواو وظاء معجمة ضخم مختال في مشيته أو الأكل أو الفاجر أو لفظ الغليظ أو السمين الثقيل من الشر والتنعم.

قوله : (مستكبر)، أي صاحب كبر والكبر تعظيم المرء نفسه واحتقاره غيره والأنفة من مساواته قال النووي : المراد بالحديث أن أغلب أهل الجنة والنار هذان الفريقان والله أعلم هـ.

قوله : (أن أغبط الناس عندي)، وفي رواية : (أن أغبط أوليائي)، أي أحسنهم حالاً (مؤمن خفيف الحاذ) بقاء مهملة وذال معجمة مخففة أي قليل المال خفيف الظهر من العيال (ذو حظ من صلاة) أي ذو راحة من مناجات الله فيها واستغراق في المشاهدة، ومنه خبر أرحنا يا بلال بالصلاة (غامض) بغين وضاد معجمتين، أي مغموم غير مشهور. زاد في رواية : أحسن عبادة ربه وأطاعه في السر وكان غامضاً في الناس لا يشار بالأصابع.

قوله : (وكان رزقه كفافاً)، أي بقدر الكفاية لا يزيد ولا ينقص (وصبر عليه) بين به أن ملاك ذلك كله الصبر وبه يقوى على الطاعة أولئك يجزون الغرفة بما صبروا.

قوله : (عجلت منيته)، أي سلت روحه بالتعجل لقلّة تعلقه بالدنيا وغلبة شغفه بالآخرة (وقل ثرائه) أي ما تركه ميراثاً لورثته (وقلت بواكيه) أي لقلّة عياله وهوانه على الناس وعدم احتفالهم به. والحديث رواه أيضاً أحمد والترمذي والحاكم وصححه عن أبي أمامة. قال ابن قطان وأخطأ من عزاه لأبي هريرة قال في المنار : وهو ضعيف إذ يرويه عبد الله بن أحمد عن علي بن يزيد عن القاسم وهم ضعفاء هـ.

قال الذهبي : عقب صحيح الحاكم له بل هل إلى الضعف ما هو قال الحافظ العراقي : رواه الترمذي وابن ماجه بإسنادين ضعيفين. وقال ابن الجوزي : حديث لا يصح رواه ما بين مجاهيل وضعفاء، ولا يبعد أن يكون معمولهم هـ.

قوله : (البذاذة) بفتح الموحدة وذالين معجمتين قال في النهاية : البذاذة الهيئة، أراد التواضع في اللباس وترك الافتخار به هـ.

(من الإيمان) أي من أخلاق أهل الإيمان إن قصد به تواضعا وزهدا وكفا للنفس عن الفخر والتكبر لا إن قصد إظهار الفقر وصيانة المال، وإلا فليس من الإيمان، بل عرض النعمة للكفران وأعرض عن شكر المنعم المنان، فالحسن والقبح في أشباه هذا بحسب قصد القائم بهما إنما الأعمال بالنيات. والحديث رواه أحمد والحاكم من حديث صالح بن صالح عن عبد الله بن أبي أمامة. عن أبي أمامة إياس بن ثعلبة الحارثي قال : ذكر أصحاب رسول الله ﷺ يوما عنده الدنيا فقال : ألا تسمعون ألا تسمعون ثم ذكره. قال الحاكم احتج مسلم بصالح، وأقره الذهبي وقال الحافظ العراقي في أماليه : حديث حسن وقال الديلمي : هو صحيح ورواه عنه أيضا أبو داوود في الترجل وقال ابن حجر في الفتح : بعد عزوه حديث صحيح هـ.

قوله : (الذين إذا رؤوا ذكر الله)، أي بسمتهم وهيئتهم لكون الواحد منهم حزينا منكسرا مطرقا صامتا تظهر أثر الخشية على هيئة وسيرته وحركته وسكونه ونطقه، لا ينظر إليه ناظر إلا كان نظره مذكر بالله وكانت صورته دليلا على علمه فأولئك يعرفون بسميهم في السكينة والذلة والتواضع. والحديث رواه أحمد أيضا وأبو نعيم قال العيثمي : في شهر بن حوشب وسويد ابن سعيد مختلف فيهما، وباقي رجال الإسناد ثقات هـ.

باب فضل الفقراء

قوله : (مر على رسول الله ﷺ رجل)، أي غني لم يقف الحافظ بن حجر على اسمه.

قوله : (ما تقولون في هذا) خطاب للجماعة الحاضرين من أصحابه (قالوا رأيك) أي نقول ما يوافق رأيك، وقد صدقوا فإنهم ما وصفوه إلا بوجاهة الدنيا، إلا أنه ﷺ بين لهم أن أمر الآخرة على عكس أمر الدنيا.

قوله : (هذا حري)، بفتح الحاء المهملة وكسر الراء وتشديد التحتية جدير وحقيق وزنا ومعنى.

قوله : (أن ينكح)، بضم أوله وفتح الكاف أي تجاب خطبته.

قوله : (أن يشفع)، بضم أوله وتشديد الفاء المفتوحة تقبل شفاعته.

قوله : (ومر رجل آخر)، قيل هو جعيل بن سراقه كما في مسند الفريابي.

قوله : (لهذا خير من ملئ الأرض مثل هذا) أي الرجل الغني. زاد أحمد بن حبان عند الله يوم القيامة، وإطلاقه التفضيل على الغني المذكور لا يلزم منه تفضيل كل فقير على كل غني كما لا يخفى نعم فيه تفضيله مطلقا في الدين والله أعلم.

قوله : (إن الله يحب عبده المؤمن الفقير المتعفف أبا العيال)، قال السيوطي قال الرافعي في تاريخ قزوين : اعتبر بعد الإيمان ثلاث صفات : الفقر والتعفف وأبوة العيال، أما أبوة العيال والاهتمام بشأنهم ففضله ظاهر، وأما الجمع بين الفقر والتعفف فلأن الفقر قد يكون عن ضرورة حاجة غير صابر عليه، ولا راض

به، وقد يكون لعجز وكسل في طلب الكفاية من جهات المكاسب فإذا انضم إليه التعفف أشهر ذلك بالصبر والقناعة والتحرز عن الشبهات وركوب الهوى هـ.

قال المناوي : وفي ضمنه إشعار بأنه يندب للفقير ندبا مؤكدا أن يظهر التعفف والتجمل، ولا يظهر الشكوى والفقر بل يستره قال تعالى : ﴿يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾، وقال سفيان : أفضل الأعمال التجمل عند المحنة. وقال بعضهم : ستر الفقر من كنوز البر. قال الغزالي رحمه الله : ومن آداب الفقير أن لا يتواضع لغني لغناه، بل يتكبر عليه. قال علي كرم الله وجهه : تواضع الغني للفقير رغبة في الثواب حسن، وأحسن منه تيه الفقير على الغني ثقة بالله هـ.

والحديث قال الحافظ العراقي سنده ضعيف هـ.

وذلك لأن فيه حماد بن عيسى، قال الذهبي ضعفه وموسى بن عبيد قال في الكشف ضعفه، وفي الضعفاء عن أحمد لا تحل الرواية عنه قال السخاوي لكن له شواهد والله أعلم هـ.

باب منزلة الفقراء.

قوله : (خمسمائة عام) بدل نصف يوم بيانا لمقداره. والحديث رواه أيضا الترمذي وابن حبان في صحيحه قال الترمذي : حديث حسن صحيح قال الحافظ : ورواته محتج بهم في الصحيح.

قوله : (ثم تلا موسى هذه الآية لخ)، قال في الزوائد : عبد الله بن دينار لم يسمع من عبد الله بن عمر وموسى ابن عبيدة ضعيف والله أعلم هـ.

باب مجالسة الفقراء

قوله : (يكنيه أبا المساكين)، أي كان لكثرة حبه إياهم كالأب لهم.

قوله : (اللهم أحييني مسكينا). قال القاضي تاج الدين السبكي : سمعت الإمام الوالد يقول : لم يكن رسول الله ﷺ فقيرا من المال قط، ولا كانت حاله حال فقير، كان أغنى الناس بالله قد كفى الله دنياه في نفسه وعياله، وكان يقول في قوله : اللهم أحييني مسكينا. إن المراد به استكانة القلب لا المسكنة التي هي نوع من الفقر وكان يشدد النكير على ما يعتقد خلاف ذلك. وقال البيهقي في سننه الذي يدل عليه حاله ﷺ عند وفاته أنه لم يسأل المسكنة التي يرجع معناها إلى القلة، فقد مات مكفيا بما أفاء الله عليه، وإننا سأل المسكنة التي يرجع معناها إلى الإخبات والتواضع، وكأنه ﷺ سأل الله تعالى أن لا يجعل من الجبارين والمتكبرين، وأن لا يحشره في زمرة الأغنياء المترفين. قال القتيبي : المسكنة حرف مأخوذ من السكون يقال : تمسكن إذا تخشع وتواضع وقال الحافظ ابن حجر: أسرف ابن الجوزي بذكر هذا الحديث في الموضوعات، وكأنه أقدم عليه لما رآه مبينا للحال التي مات عليها النبي ﷺ لأنه كان مكفيا. ثم نقل في توجيه الحديث ما تقدم عن البيهقي ثم إن الذي يتبع أحاديث معيشته ﷺ في البخاري والشمائل وجامع الترمذي وسنن المصنف وغيرها كحديث عمر في دخوله عليه ﷺ في المشربة حين اشتهر أنه طلق الأزواج، لا يتبعد حمل الحديث على ظاهره، وقد حمّله الراوي أبو سعيد على ظاهره والعجب من قولهم : إن الحديث ينافي حال الموت وقد جاء وصح أنه مات ودرعه مرهونة

عند يهودي في قوت العيال والله أعلم بحقيقة الحال، قال في الزوائد:
أبو المبارك لا يعرف اسمه وهو مجهول ويزيد بن سنان التميمي
أبو فروة ضعيف. والحديث صححه الحاكم وعده ابن الجوزي في
الموضوعات هـ.

وقال السيوطي : قال الحافظ صلاح الدين بن العلاء : الحديث
ضعيف السند، لكن لا يحكم عليه بالوضع وأبو المبارك وإن قال
فيه الترمذي مجهول فقد عرفه ابن حبان وذكره في الثقات ويزيد
بن سنان قال فيه ابن معين ليس بشيء وقال البخاري مقارب
الحديث إلا أنه ابنه محمد بن يزيد روى عنه مناكير وقال أبو
حاتم: محله الصدق ولا يحتج به وباقي رواته مشهورون. قال
العلاء : أنه ينتهي بمجموع طرقه إلى درجة الصحة وقال الحافظ
بن حجر قد حسنه الترمذي، لأن له شاهداً، وقال الزركشي : أساء
ابن الجوزي بالحكم عليه بالوضع، وله طريق آخر عن عطاء عن
أبي سعيد أخرجه الحاكم وصححه وأقره الذهبي في تلخيصه،
وأخرجه البيهقي من تلك الطريق وله شاهد من حديث أنس أخرجه
الترمذي، ومن حديث عبادة بن الصامت أخرجه الطبراني والبيهقي
وصححه الضياء المقدسي في المختارة، ومن حديث ابن عباس أخرجه
الشيرازي في الألقاب. هذا خلاصة ما ذكر السيوطي في حاشية
الكتاب وحاشية الترمذي والله أعلم هـ.

قوله : (حقروهم)، قال القرطبي : كان هؤلاء المشركون أشرف
قومهم انفوا من مجالسة أصحاب النبي ﷺ كصهيب وسلمان
وعمار وبلال وسالم ومهجع وسعد وبن مسعود وغيرهم، ممن
على حالهم كبرا واستقذارا فقالوا : يؤذونا بريحهم. وفي بعض كتب
التفسير أنهم قالوا : اجعل لنا يوماً ولهم يوماً وطلبوا أن يكتب لهم

بذلك فهم به ودعا عليا ليكتب فقام الفقراء وجلسوا ناحية فنزلت الآية، وإلى هذا - والله أعلم - أشار سعد بقوله في مسلم : فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، وإنما هم بذلك استيلافاً، فنزلت الآية نهياً عما هم به، لأنه وقع طرد بالفعل ووصف أولئك بأحسن وصف، وأمره أن يصبر نفسه معهم بالغداة والعشي، فكان إذا رآهم يقول مرحباً بقوم عاتبني الله فيهم، وإذا جالسهم لم يقم حتى يكونوا هم الذين يبتدئون بالقيام.

قوله : (يدعون ربهم بالغداة والعشي). قال القرطبي : يطلبون بالغداة التوفيق، وبالعشي المغفرة. وقيل معناه : يذكرون الله بعد صلاة الغداة وبعد صلاة العصر. وقيل يصلون الصبح والعصر وقال يحيى بن كثير : هي مجالس العلم في الوقتين. وقيل المراد : دوام العمل وخص الوقتين بالذكر، لأن من عمل في وقت الشغل كان في وقت الفراغ أعمل (يريدون وجهه)، أي يخلصون له العمل، ويحتمل أن يريدوا رؤية وجهه تعالى (ما عليك من حسابهم من شيء) أي من جزاء أعمالهم وكفاية أرزاقهم فإن فعلت إن كنت ظالماً والخطاب له. والمراد غيره لأنه لا يقع ذلك منه كقوله تعالى : لئن أشركت ليحبطن عملك، ويستفاد من الآية والحديث : النهي عن أن يعظم أحد لجاهه أو لثوبه، وعن أن يحتقر أحد لخموله وورثاته ثوبه والله أعلم.

باب في المكثرين

قوله : (ويل للمكثرين)، أي من الدنيا ولو من الحلال كما يدل عليه الآتي (إلا من قال بالمال هاكذا)، أي فرقه على من عن يمينه وشماله من أهل الحاجة والمسكنة، وهذا من أدلة فضل الفقر على

الغنى. والحديث قال في الزوائد : عطية والراوي عنه ضعيفان،
ورواه أحمد في مسنده عن محمد بن عبيد عن الأعمش عن عطية
به هـ.

قوله : (الأكثر من هم الأسفلون)، أي منزلة والله أعلم.

قوله : (فتأتى على ثلاثة)، أي ليلة ثلاثة، وفي رواية ثلاثة أي
ثلاثة أيام.

قوله : (أرصده)، بضم الهمزة وكسر الصاد من أرصده
رقيبته (في قضاء دين) بفتح الدال المهملة صاحبه غير حاضر
فيأخذه إذا حضر أو لوفاء دين مؤجل إذا حل وفيته. قال
الكرمانى وغيره : وهذا محمول على الأولوية لأن جمع المال وإن
كان مباحا، لكن الجامع مسؤول عنه وفي المحاسبة خطر فالترك
أسلم وما ورد في الترغيب في تحصيله وإنفاقه في حقه حمل على من
وثق من نفسه بأنه يجمعه من حلال صرف يامن معه من خطر
المحاسبة هـ.

وفيه الحث على الإنفاق في وجوه الخيرات وأنه ﷺ كان في أعلى
درجات الزهد في الدنيا، إلا لإنفاقه فيمن يستحقه، وإما لإرصاده
لمن له حق والله أعلم.

قوله : (عن عمرو بن غيلان الثقفي). قال الحافظ ابن حجر :
ذكره خليفة والمستغفري غيرهما في الصحابة وقال ابن السكن يقال
له صحبة. وذكره ابن سميع في الطبقة الأولى من تابعي أهل الشام
وقال : أدرك الجاهلية قلت : إن كان أدرك الجاهلية فهو صحابي
كما تقدم غير مرة، أنه لم يبق في حجة الوداع أحد من أهل مكة
والطائف إلا أسلم وشهدها. وقد ذكره علي بن المديني فيمن روى
عن النبي ﷺ ونزل البصرة. وأما الرواية عنه فأخرجها ابن ماجه

والبغوي والعسكري وابن أبي عاصم وغيرهم من رواية مسلم بن مشكم بكسر الميم وسكون المعجمة وفتح الكاف عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «اللهم من آمن بي» الحديث. قال ابن عبد البر : ليس إسناذه بالقوي. وقال ابن عساكر : ليس له عن النبي ﷺ غيره. وقال ابن السكن : لم يذكر في روايته رواية ولا سماعا. وروى أيضا عن ابن مسعود وكعب الأحماس، وروى عنه أيضا عبد الرحمان بن جبير المصري وقتادة، قال البخاري في تاريخه عمرو بن غيلان الثقفي أمير البصرة سمع كعبا قاله سعيد عن قتادة عن عبد الله بن عمرو بن غيلان قلت : وهذا أصح فقد جزم أبو عمر بأن عبد الله بن عمرو كان من كبار رجال معاوية في حروبه، وولاه إمارة البصرة بعد زياد ثم صرفه بعد ستة أشهر وأضافها لعبيد الله بن زياد هـ.

من الإصابة للحافظ ابن حجر انتهى.

قوله : (فأقلل ماله وولده)، لأن من كان مقللا منهما يسهل عليه التوسع في عمل الآخر. والمتوسع في متاع الدنيا لا يمكنه التوسع في عمل الآخرة لما بينهما من التباين والتضاد، ومن ثم قال ابن مسهر: نعمة الله علينا فيما زوى عنا من الدنيا أعظم من نعمته فيما بسط منها والله سبحانه لم يرض الدنيا أهلا لعقوبة أعدائه، كما لم يرضها أهلا لإثابة أحبائه، وإن كانت معجلة فقد تكون قساوة في القلب أو جمودا في العين أو تعويقا عن طاعة أو وقوعا في ذنب أو فترة في الهمة، أو سلب لذة خدمة هـ.

(وحبب إليه لقاءك) أي حبيب إليه الموت ليلقاك، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، (وعجل له القضاء) أي الموت حتى لا يفتن بطول العمر، أو حتى يخلص من تعب الدنيا.

قوله : (وأطل عمره)، أي لتكثر عليه أسباب العقاب قال الجنيد إذا أحب الله عبدا لم يذر له مالا ولا ولدا لأنه إذا كان ذلك له أحبه فتشعبت محبته لربه وتتجزأ أو تصير مشتركة بين الله وغيره والله لا يغفر أن يشرك به وهو تعالى قاهر لكل شيء، فربما أهلك شريكه وأعدمه ليخلص قلب عبده لمحبه وحده. وقال بعضهم : خلق الله الدنيا دار بلاء فجعل التقلل منها رحمة وجعل الاستكثار منها نقمة. وقال الغزالي : كل ما يزيد على قدر القوت فهو مستقر الشيطان فإن من معه قوته فهو فارغ القلب، فلو وجد مائة دينار مثلا على الطريق انبعث من قلبه عشر شهوات تحتاج كل واحدة إلى مائة دينار فلا يكفيه ما وجد، بل يحتاج إلى تسعمائة أخرى. فقد كان قبل وجود المائة مستغنيا فالآن وجد مائة وظن أنه صار بها غنيا وقد صار محتاجا إلى تسعمائة أخرى يشتري دارا يعمرها، وجارية وأثاثا فاخرة وكل من ذلك يستدعي أشياء أخرى تليق به، وكل ذلك لا آخر له فيقع في هاوية آخرها عمق جهنم هـ.

قوله (عن نقادة) بالقاف الأسدي ويقال الأسلمي ابن عبيد الله وقيل ابن خلف وقيل ابن مسعر وقيل ابن مالك. قال البخاري : له صحبة وهو معدود في أهل الحجاز سكن البادية. وقال العسكري: يكنى أبا نهية، نزل البصرة روى عنه ولداه سعر بالراء ووقع في الاستيعاب بالدال. قال ابن الأثير : وليس بشيء وأخوه ولم يسم وزيد ابن أسلم والبراء السليطي هـ.
من الإصابة.

قوله : (يستمنحه)، أي يطلب منه أن يمنحه ناقة للانتفاع بها. قيل لعله طلب لبعض المحتاجين إلى ذلك.

قوله : (اللهم أكثر مال فلان للمانع الأول)، كأنه رده لقلّة ماله فطلب له الإكثار لينال بذلك فضيلة التصدق أو أنه غضب عليه فدعى له بإكثار في الدنيا ليقل به حظه من الآخرة، وهو الظاهر لمقابلته بقوله : (واجعل رزق فلان يوما بيوم) إذ الظاهر أنه دعا له بذلك لأنه رأى كثرة ماله فخاف عليه الافتتان بذلك فدعا له بتقليل المال والله أعلم بحقيقة الحال. والحديث قال في الزوائد : في إسناده البراء قد ذكره ابن حبان في الثقات، وقال الذهبي : مجهول وباقي رجال الإسناد ثقات. وقال : ليس لنقادة شيء في بقية الكتب الستة سوى هذا الحديث الذي انفرد به ابن ماجه هـ.

قوله : (تعس)، قال في النهاية : يقال تعس يتعس إذا عثر وانكب لوجهه، وقد تفتح العين وهو دعاء عليه بالهلاك هـ.
(عبد الدينار) أي الذي يصرف همته وأوقاته في تحصيل الدينار وما ذكر بعده كما يصرف طالب المولى همته في تحصيل مرضاته.
قوله : (وإن لم يعط لم يف)، أي للإمام الذي يعاهده على الطاعة.

قوله : (في الآخر وانتكس)، أي انقلب على رأسه وهو دعاء عليه بالخيبة، لأن من انتكس في أمره فقد خاب وخسر (وإذا شيك)، أي شاكه شوكة (فلا أنتقش) أي فلا يقدر على انتقاشها وهو إخراجها بالناقش والله تعالى أعلم.

باب القناعة

قوله : (ليس الغنى عن كثرة العرض)، بفتح العين والراء وبالضاد المعجمة ما ينتفع به من متاع الدنيا سوى النقيدين. وقال

أبو عبيد : الأمتعة وهي ما سوى الحيوان والعقار وما لا يدخله كيل ولا وزن. وقال في المشارق : فما نقله عنه في التنقيح. قال ابن فارس في المقاييس : هذا الحديث إنما سمعناه بسكون الراء وهو كل ما كان من المال غير نقد. وجمعه عروض. وأما العرض بفتح الراء فما يصيبه الإنسان من حظه في الدنيا قال الله تعالى : ﴿يُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَإِنَّ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ هـ.

أي ليس الغنى الحقيقي المعتبر كثرة المال، لأن كثيرا ممن وسع عليه في المال لا يقنع بما أوتي، فهو يجتهد في الازدياد ولا يبالي من أين يأتيه فكأنه فقير من شدة حرصه.

قوله : (ولكن الغنى غنى النفس)، أي بما أوتيت وقنعها به ورضاها وعدم حرصها على الازدياد والإلحاح في الطلب لأنها إذا استغنت كفت عن المطامع، فعزت وعظمت وحل لها من الحظوة والنزاهة والشرف والمدح أكثر من الغنى الذي يناله من يكون فقير النفس بحرصه، فإنه يورطه في رذائل الأمور وخسائس الأفعال لدناءة همته وبخله ويكثر زامه من الناس ويصغر قدره عندهم فيكون أحقر من كل حقير، وأذل من كل ذليل وهو مع ذلك كله فقير من المال لكونه لم يستغن بما أعطي فكأنه ليس بغني ولو لم يكن في ذلك إلا عدم رضاه بما قضاه الله لكفاه.

قوله : (ورزق الكفاف) أي ما يكف عن الحاجات ويدفع الضرورات والفاقات ولا يلحقه بأهل الترفهات. (وقنع به) أي لم يطلب الزيادة لمعرفته أن رزقه مقسوم لن يعدو ما قدر له والفلاح الفوز بالبغية في الدارين. والحديث قد جمع بينهما والمراد بالرزق الحلال منه فإنه عليه السلام مدح المرزوق وأثبت له الفلاح وذكر

الأميرين وقيد الثاني بقنع، أي رزق كفافا وقنع بالكفاف فلم يطلب الزيادة، وأطلق الأول ليشمل جميع ما يتناولوه الإسلام ذكره الطيبي، وصاحب هذه الحالة معدود من الفقراء لأنه لا يترفه في طبيبات الدنيا بل ليجاهد نفسه في الصبر على القدر الزائد على الكفاف، فلم يفته من حال الفقراء إلا السلامة من قهر الرجال وذل المسألة قاله المناوي هـ.

قوله : (اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا). قال القرطبي : القوت ما يقوت الأبدان ويكف عن الحاجة وهو حجة لمن قال : الكفاف أفضل لأنه ﷺ إنما يدعو بالأرجح وأيضا فإن الكفاف حالة متوسطة بين الفقر والغنى وخير الأمور أوسطها، وأيضا فإنها حالة يسلم معها من آفات الفقرة وآفات الغنى هـ.

قوله : (ما من غني ولا فقير لـخ). قال السيوطي : هذا الحديث أورده ابن الجوزي في الموضوعات، وأعله بنفع فإنه متروك وهو مخرج في مسند أحمد وله شاهد من حديث ابن مسعود أخرجه الخطيب في تاريخه هـ.

قوله : (معافى في جسده)، أي صحيحا بدنه (آمنا في سربه) بكسر السين على الأشهر أي في نفسه. وروى بفتحها أي في مسلكه وقيل بفتحتين أي في بيته (عنده قوت يومه)، أي غداؤه وعشاؤه الذي يحتاجه في يومه ذلك، يعني من جمع الله له بين عافية بدنه وأمن قلبه حيث توجه وكفاف عيشه بقوت يومه وسلامة أهله، فقد جمع الله له جميع النعم التي من ملك الدنيا لم يحصل على غيرها، فينبغي أن لا يستقبل يومه ذلك إلا بشكرها بأن يصرفها في طاعة المنعم لا في معصية ولا يفتقر عن ذكره قاله المناوي هـ.

فكأنما حيزت) بكسر حاء مهملة وسكون ياء مثناة بعدها زاي معجمة. أي ضمت وجمعت، (له الدنيا بحذافرها) أي بجوانبها أي فكأنما أعطي الدنيا بأسرها، وفيه حجة لمن فضل الفضل على الغنى. والحديث أخرجه أيضا البخاري في الأدب المفرد والترمذي وقال حسن غريب هـ.

قوله : (أنظروا إلى من هو أسفل منكم)، أي في أمور الدنيا أي الأحق والأولى ذلك.

قوله : (فهو أجدر) أي بالنظر إلى من هو أسفل لا من هو فوق حقيق، (أن لا تزددوا) أي بأن تحتقروا (نعمة الله عليكم) فإن المرء إذا نظر إلى من فضل عليه في الدنيا طمحت له نفسه واستصغر ما عنده من نعم الله وحرص على الازدياد ليلحقه أو يقاربه وإذا نظر للدون شكر النعمة وتواضع وجهه لله والله أعلم.

قوله : (إن الله لا ينظر إلى صوركم)، أي لا يجازيكم على ظاهرها (وأموالكم). الخالية من الخيرات، أي لا يثيبكم عليها ولا يقربكم منه، (ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم)، أي التي هي محل التقوى وأوعية الجواهر وكنوز المعرفة، (وأعمالكم) فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا. قال المناوي : معنى النظر هنا الإحسان والرحمة والعطف، ومعنى نفيه نفي ذلك فعبر عن الكائن عند النظر بالنظر مجازا، وذلك لأن النظر دليل البغض والكراهة وميل الناس إلى الصور المعجبة والأموال الفائقة والله منزه عن ذلك فجعل نظره إلى ما هو السر واللب وهو القلب والعمل والجمال قسمان ظاهري وباطني كجمال علم وعقل وكرم. وهذا هو محل نظر الله من غيره وموضع محبته فيرى صاحب الجمال فيكسوه من الجمال والمهابة والحلاوة بحسب ما اكتسبت روحه من تلك

الصفات، فإن المؤمن يعطى حلاوة ومهابة بحسب إيمانه، فمن رآه هابه ومن خالطه أحبه وإن كان أسود مشوها وهذا أمر مشهود بالعيان هـ.

باب معيشة آل محمد ﷺ

قوله : (إن كنا) كلمة إن مخففة من الثقيلة، ولذلك اقترن خبر الفعل الواقع بعدها باللام وآل محمد شامل له عليه السلام لعدم وجود المأكول مع نفي إيقاد النار، ولأنهم إذا صبروا واشتبهروا فهو أولى وأحق لتعذر شبعه دونهم للقطع بأنه عند الضيق يؤثرهم على نفسه.

قوله : (ما نوقد فيه بنار)، أي لا للخبز ولا للطبخ (ما هو) أي المطعوم الصادق بالمأكول والمشروب (إلا التمر والماء)، وفي الأسود التمر والماء بتغليب التمر وإلا فالماء لا لون له وأطلق على التمر أسود إنه غالب تمر المدينة. وفي رواية للبخاري : كان يأتي علينا الشهر، وفي أخرى : ليمر بنا الشهر ونصف الشهر، وما توقد في بيت رسول الله ﷺ نار لمصباح ولا لغيره، وفي أخرى أنها قالت لعروة : يا ابن أختي إنما ننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار.

قوله : (وكان لنا جيران من الأنصار، جيرانه ﷺ سعد بن عبادة وعبد الله بن عمرو، بن حرام وأبو أيوب خالد بن يزيد وأسعد ابن زرارة).

قوله : (وكانت لهم ربائب)، براء مهملة ثم موحدة وآخره موحدة وهو الغنم التي تكون في البيت وليست بسائمة واحدها ربيبة بمعنى مربوبة قال العسقلاني : ويجمع بين هذه الروايات

بأن الأمر وقع مكررا في عهده عليه السلام ونقلت عائشة كل ذلك لعروة في مجالس متعددة والله أعلم هـ.

قوله : (يلتوي). قيل أن يتقلب ظهرا لبطن ويمينا وشمالا. وقال الطيبي : الإلتواء والتلوي الاضطراب عند الجوع والضرب هـ.

قوله : (من الدقل)، بفتح الدال والقاف رديء التمر، أي فضلا عن غيره.

قوله : (ما أصبح عند آل محمد لخ). قيل كيف يقول ذلك عليه السلام مع ما فيه من إظهار الشكوى ؟ أجيب بأنه عليه السلام يمكن أن يقول ذلك ترغيبا لأئمة في الزهد في الدنيا وفي التوكل على الله تعالى كما كان هو عليه السلام كذلك وليتسلى به ضعفاء الأمة والله أعلم. والحديث كما في الزوائد إسناده صحيح ورجاله ثقات ورواه ابن حبان في صحيحه من طريق إبان العطار عن قتادة به هـ.

وأصل الحديث رواه البخاري في صحيحه في كتاب البيع واختلف شراحه في أنه مرفوع أو موقوف، لكن رواية المصنف ترد على من قال بوقفه عن أنس والله أعلم.

قوله : (أو ما أصبح)، كلمة أو للشك. والحديث كما جاء في الزوائد إسناده صحيح وأبو المغيرة اسمه عبد القدوس ابن حجاج الخولاني.

قوله : (لأنقدر) أو لا يقدر الأول بصيغة المتكلم ومعه غيره، والثاني على صيغة الغائب. وفي الزوائد التابعي مجهول ولم أر من صنف في المسميات ذكره وما علته هـ.

قوله : (ما دخل بطني طعام سخن لخ) أي حار. والحديث إسناده حسن وسويد مختلف فيه والله أعلم.

باب ضجاع آل محمد ﷺ

قوله : (كان ضجاع) كالفراش لفظا ومعنى، وفي رواية للترمذي وغيره كان فراش رسول الله ﷺ الذي ينام عليه احترازا من فراش الجلوس، ومرادها فراشه الذي كان في بيتها.

قوله : (آدما)، أي من آدم كما في رواية بفتحتين، جمع أديم وهو الجلد المدبوغ أو الأحمر أو مطلق الجلد على ما في القاموس، (حشوه ليف) أي محشوه ليف النخل، لأنه الكثير المعروف عندهم وهو الذي يخرج في أصول سعف النخل لأول خروجها يحشى به الوسائد والفرش، ويقتل منه الحبال، وفيه اتخاذ الفرش المحشوة للنوم عليها واستعمال الادم وهي الجلود وفيه ما كان عليه ﷺ من الزهد في الدنيا والبعد عن شهواتها والرضى بما قل منها وهل الأولى أن يكون لكل واحد من الزوجين فراش وهو الذي ذكره في الإكمال أو الأفضل اجتماعهما في فراش واحد وهو الذي ذكره النووي قائلًا لأنه الذي كان ﷺ يفعل مع ملازمته قيام الليل، فإذا أراد القيام لوظيفته قام وتركها لا سيما إن علم من حال المرأة الحرص على المباشرة فيجمع بين وظيفته وقضاء حقها المندوب وعشرتها بالمعروف. وأما حديث مسلم عن جابر مرفوعا فراش للرجل وفراش لامرأته وفراش للضيف والرابع للشيطان، فالاحتجاج به على التعدد ضعيف لأن تعدد الفراش في هذا الحديث إنما هو لأنه قد يحتاج كل منهما إلى فراش عند المرض ونحوه. ومعنى كون الرابع للشيطان أن ما زاد على الحاجة إنما هو للمباهات فهو من المكروه والمذموم، وكل مذموم مضاف للشيطان، ويحتمل أنه على ظاهره وأن ما اتخذ لغير حاجة يكون للشيطان عليه مبيت ومقيل قاله في الإكمال هـ.

قوله : (فإذا عليه إزارا)، أي بين جسده الشريف وبين الحصير الإزار فقط.

قوله : (وإذا الحصير قد أثر في جنبه)، زاد البخاري وتحت رأسه وسادة من آدم حشوها ليف.

قوله : (وإذا أنا بقبضة من شعير)، أي بقليل من شعير (نحو الصاع).

قوله : (وقرظ) بقاف وراء مفتوحتين فضاء معجمة ورق السلم الذي يدبغ به.

قوله : (وإذا إهاب معلق)، وفي رواية للبخاري : وأن عند رجله قرظا مصبوبا وعند رأسه أهب معلقة. بفتح الهمزة والهاء وبضمهما جمع أهاب جلد ذبغ أو لم يدبغ أو قبل أن يدبغ.

قوله : (فما كان فراشنا ليلة أهديت إلا مسك كبش) بفتح الميم وسكون السين، أي جلده ذكره السيوطي. والحديث في إسناده الحارث الأعور ومجالد بن سعيد وتقدم أنهما ضعيفان والله أعلم.

باب معيشة أصحاب النبي ﷺ

قوله : (فينطق أحدنا يتحامل)، أي يتكلف الحمل بالأجرة ليكسب ما يتصدق به ذكره السيوطي.

قوله : (حتى قرحت أشداقنا)، في القاموس قرح كسمع خرجت القروح قال السيوطي : أي تجرحت، والأشداق جوانب الفم. وروى مثل هذا عن سعد بن أبي وقاص ولفظه في شمائل الترمذي لقد رأيتني أغزو في العصابة من أصحاب رسول الله ﷺ ما نأكل إلا

ورق الشجر، والحبلية بضم المهملة وسكون الموحدة وبضميتين أيضا ثمر السمرة يشبه اللوبيا. وقيل غير ذلك قال : حتى إن أحدنا ليضع كما تضع الشاة والبعر (لخ)، وفي رواية البخاري : رأيتني سابع سبعة مع النبي ﷺ : ما لنا طعام إلا ورق الحبلية. وقد ورد في رواية : أنهم أبو بكر وعثمان والزبير وعلي وزيد بن حارثة وعبد الرحمان بن عوف وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم.

قوله : (وإنما هو) أي المأكول والمشروب (الأسودان لخ).
قوله : (بعثنا رسول الله ﷺ ونحن ثلاثمائة لخ) لفظ مسلم لهذا الحديث : عن جابر قال : بعثنا رسول الله ﷺ وأمر علينا أبا عبيدة نتلقى عيرا لقريش وزودنا جرابا من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا ثمرة تمر قال : فقلت : كيف كنتم تصنعون بها : قال : نمصها كما يمص الصبي ثم نشرب عليها من الماء فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنا نضرب بعصينا الخبط ثم نبله بالماء فنأكله. قال : وانطلقنا على ساحل البحر فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكتيب الضخم فأتيناها، فإذا هي دابة تدعى العنبر قال : قال أبو عبيدة : ميتة ثم قال : لا بل نحن رسل رسول الله ﷺ وفي سبيل الله وقد اضطررتم فكلوا قال : فأقمنا عليه شهرا ونحن ثلاثمائة حتى سئمنا قال : ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينيه، أي داخلها بالقلال الدهن ونقتطع منه الفدك بكسر الفاء وفتح الدال جمع فركة وهي القطعة من اللحم كالثور أو كقدر الثور فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشرة رجلا فأقعدهم في وقب عينيه وأخذ ضلعا من أضلاعه فأقامها ثم رحل أعظم بعير معنا وحمل عليه أطول رجل فمر من تحتها وتزودنا من لحمه وشائق بالشين المعجمة والقاف، اللحم يغلي إغلاءة ويحمل في السفر، ولا ينضج

ليلا يتهرى، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له فقال : هو رزق أخرجه الله لكم فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا ؟ قال : فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله هـ.

باب في البناء والخراب

قوله : (نعالج) أي نصلح (خصالنا) بخاء معجمة وتشديد الصاد أي بيتا من قصب.

قوله : (ما أرى الأمر)، أي الموت على وجه الاحتمال فلا ينبغي للعاقل الاشتغال بما يتعبه على كل حال أو المراد أنه ينبغي للعاقل أن يرى ماهو أسرع من ذلك، بحيث لا يشتغل بشيء لا ينتفع به أصلا، وليس المراد إخباره جزما بأن يكون موته قريبا والله أعلم.

قوله : (كل مال يكون هكذا، فهو وبال على صاحبه يوم القيامة)، وهو محمول على ما لا تمس الحاجة إليه مما لا بد منه للتوطن وما يكن من البرد والحر. والحديث في إسناده عيسى بن عبد الأعلى قال في الزوائد : لم أر من جرحه ولا من وثقه. وباقي رجال الإسناد ثقات، ورواه أبو داود في سننه بغير هذا اللفظ من هذا الوجه هـ.

قوله : (لقد رأيتني)، بضم الفوقية أي رأيت نفسي.

قوله : (بنيت بيتا يكنني)، بضم التحتية والنون الأولى المشددة بينهما كاف مكسورة من أكن أي يقيني.

قوله : (ما أعانني عليه)، أي على بنائه فيه أن ما كان من البناء للحاجة لا محذور فيه والله أعلم.

قوله : (سقمي)، بفتحتين أو بضم فسكون مرضي.

قوله : (إلا في التراب)، أي فيما أنفق في التراب (أو في البناء). شك من الراوي ومحلّه ما تقدم. والحديث أخرجه أيضا الترمذي وصححه وأخرج له شاهدا عن أنس بلفظ : إلا البناء فلا خير له. وفي المعجم الأوسط من حديث أبي بشير الأنصاري : إذا أراد الله له بعبد سوءا أنفق ماله في البنيان، أي فيما لم تدع إليه حاجة والله أعلم.

باب التوكل واليقين

قوله : (حق توكله) بأن تعلموا يقينا أن لا فاعل إلا الله، وإن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع من الله تعالى، ثم تسعون في الطلب على الوجه الجميل والتوكل إظهار العجز والاعتماد على المتوكل عليه (لرزقكم كما ترزق) بمثناة فوقية مضمومة أوله (الطير)، زاد في رواية : في جو السماء (تغدو خماسا) بكسر الخاء المعجمة أي ضامرة البطون من الجوع، جمع خميص أي جائع (وتروح) أي ترجع آخر النهار (بطانا) بكسر الباء، أي ممتلئة البطون جمع بطين أي شبعان أي تغدوا بكرة وهي جياح (وتروح) عشاء وهي ممتلئة الأجواف. قال المناوي : أرشد بها إلى ترك الأسباب الدنيوية والاشتغال بالأعمال الأخروية، ثقة بالله وبكفايته فإن احتج من غلب عليه الشغف بالأسباب بأن طيران الطائر سبب في رزقه، فجوابه أن الهواء لا حب فيه، بلفظ ولا جهة تقصد، ألا ترى أنه ينزل في مواضع شتى لا شيء فيها فلا عقل له يدرك به فدل على أن طيرانه في الهواء ليس من باب طلب الرزق بل هو من

باب حركة يد المرتعش لا حكم لها، فيتردد في الهواء حتى يؤتى برزقه ويؤتى به إلى رزقه هذا الذي يتعين حمل طيران الطائر عليه، أعني أنه لا حكم له في الرزق ولا ينسب إليه، لأن المصطفى ﷺ سماه متوكلاً مع طيرانه ولذلك مثل به، والمكلف العاقل أولى بالتوكل منه سيما من دخل باب الاشتغال بأفضل الأعمال بعد الإيمان وهو طلب العلم، كذا قرره ابن الحاج وهو أوجه من قول البعض. الحديث مسوق للتنبيه على أن الكسب ليس برازق، بل الرازق هو الله لا المنع عن الكسب ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه﴾. وقال الداراني : كل الأحوال لها وجه وقفاً إلا التوكل فإنه وجه بلا قفا، يعني هو إقبال على الله من كل الوجوه وثقة به، فيه أن المؤمن ينبغي أن لا يقصد لرزقه جهة معينة ومراتب الناس فيه مختلفة هـ.

قوله : (عن حبة) بحاء مفتوحة وباء موحدة مشددة. قال الحافظ ابن حزم : هو ابن خالد الخزاعي. وقيل العامري أخوه سواء بن خالد صحابي نزل الكوفة. روى حديث ابن ماجه بإسناد حسن من طريق الأعمش عن أبي شرحبيل عن حبة وسواء ابني خالد قال : دخلنا على النبي ﷺ هـ.

وقال السيوطي : قال القاسم البغوي في معجم الصحابة ما لسواء غير هذا الحديث هـ.

قوله : (يعالج)، أي يصلح (شيئاً فأعناه) من الإعانة. قوله : (لا تيأسا من الرزق ما تهزئت رؤوسكما)، أي تحركت كناية عن الحياة.

قوله : (أحمر)، أي كاللحم الذي قشر عليه لضعف الجلد ثم يقوي الله قشره أي جلده، ويحتمل أن المراد بالقشر الثوب، أي

يخرج عريانا لا ثوب له ثم يعطيه الله الثوب. والحديث إسناده صحيح وسلام ابن شريحيل ذكره ابن حبان في الثقات. قال في الزوائد : ولم أر من تكلم فيه. وباقي رجال الإسناد ثقات.

قوله : (بكل واد)، أي في كل أمر يرغب فيه ويقصد إليه من مال أوجاه وغيرهما، (شعبة) بضم شين فسكون، أي قطعة أي أن للقلب تعلقا بكل أمر مرغوب فيه وميلا إليه. والحديث كما في الزوائد إسناده ضعيف وصالح بن رزيق ليس له إلا هذا الحديث. قال في الميزان : حديث منكره.

قوله : (لا يموتن) بنون التوكيد (أحد منكم إلا وهو يحسن لـخ)، أي لا يموتن أحدهم في حال من الأحوال إلا في هذه الحالة وهي حسن الظن بالله تعالى بأن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه، لأنه إذا حضر أجله وأتت رحلته لم يبق لخوفه معنى، بل يؤدي إلى القنوط وهو تضيق لمجاري الرحمة والافضال، ومن تم كان من الكبائر القلبية فحسن الظن وعظم الرجاء أحسن ما تزوده المؤمن لقدمه على ربه. قال الطيبي : نهى أن يموتوا على غير حالة حسن الظن، وذلك ليس بمقدور، بل المراد أن الأمر بحسن الظن ليوافي الموت وهو عليه هـ.

ونظيره ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون عياض، عبادة الله تعالى بين أصلين الرجاء والخوف فيستحب أن يغلب في حال الصحة الخوف، فإذا دنا الأجل وانقطع العمل فيستحب أن يغلب الرجاء ليلقى الله تعالى على حالة هي أحب إليه إذ هو سبحانه الرحمان الرحيم، ويحب الرحماء ولا يغلب الخوف حينئذ خشية أن يقنط فيهلك، والحديث تحذير من القنوط وحض على الرجاء عند الخاتمة هـ.

قوله : (المؤمن القوي خير وأحبّ لخ)، تقدم الحديث في باب الإيمان بالقدر والله أعلم.

باب الحكمة

قوله : (الكلمة الحكمة) روي بالإضافة وروي الكلمة الحكمة بالياء وكل قريب، فالمراد بالكلمة الحكمة المفيدة، والحكمة التي أحكمت مبانيها بالعلم والعقل والحكيم المتقن للأمور الذي له غور فيها. قال الطيبي : وعلى الرواية الأولى، يعني الكلمة الحكمة جعل الكلمة نفس الحكمة مبالغة، وعلى رواية الحكمة يكون من الإسناد المجازي، لأن الحكيم قائلها (ضالة المؤمن) أي مطلوبة كما يتطلب الرجل ضالته.

قوله : (حيث ما وجدها فهو أحق بها)، أي بالعمل بها واتباعها يعني أن كلمة الحكمة ربما نطق بها من ليس لها بأهل ثم رجعت إلى أهلها فهو أحق بها، كما أن صاحب الضالة لا ينظر إلى خسارة من وجدها عنده.

خطب الحجاج فقال : إن الله أمرنا بطلب الآخرة وكفانا مؤونة الدنيا فليته كفانا مؤونة الآخرة، وأمرنا بطلب الدنيا فقال الحسن خذوها من فاسق، الحكمة ضالة المؤمن. ووجد رجل يكتب عن مخنث شيئاً فعوتب فقال : الجوهرة النفيسة لا يشينها سخافة غائصها ودناءة بائعها. قال بعضهم : والحكمة هنا كل كلمة وعظمتك أو زجرتك أودعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيحة. وقال القاضي : الكلمة هنا بمعنى الكلام، والحكمة المحكمة وهي التي تدل

على معنى فيه دقة للحكيم الفطن المتقن الذي له غور في المعانى وضالته مطلوبه. والمعنى أن الناس متفاوتة الأقدام فمن قصر فهمه عن إدراك حقائق الآيات ودقائق الأحاديث ينبغي أن لا ينكر على من رزق فهمها وألهم تحقيقها ولا ينازع فيه كما لا ينازع صاحب الضالة في ضالته إذا وجدها، وإن من سمع كلاما ولم يفهم معناه أو لم يبلغ كنهه فعليه أن لا يضيعه ويحمله إلى من هو أفقه منه فلعله يفهم منه ما لا يفهمه ويستنبط ما لا يمكنه استنباطه كما أن الرجل إذا وجد ضالة مضيعة فلا يضيعها، بل يأخذها ويتفحص عن صاحبها حتى يجده فيردها عليه، فإن العالم إذا سئل عن معنى ورأى في السائل دراية وفطنة يستعيد بها فهمه فعليه أن يعلمه ولا يمنعه قاله المناوي هـ.

والحديث رواه أيضا الترمذي في العلم. وابن عساكر في تاريخه وقال الترمذي : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإبراهيم بن المفضل مضعف هـ.

قوله : (نعمتان)، تثنية نعمة وهي الحالة الحسنة. وقال الإمام فخر الدين : المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير. وزاد الدارمي : من نعم الله (مغبون) أي ذو خسران (فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ)، أي من الشواغل بالمعاش المانع له عن العبادة والغبن بفتح الغين المعجمة وسكون الموحدة النقص في البيع وبتحريكهما في الرأي، أي ضعف الرأي. قال في الكواكب : فكأنه قال هذان الأمران إذ لم يستعملا فيما ينبغي فقد غبن صاحبهما فيهما، أي باعهما ببخس لا تحمد عاقبته، أو ليس له رأي في ذلك البتة فقد يكون الإنسان صحيحا، ولا يكون متفرغا للعبادة لاشتغاله بالمعاش، وبالعكس فإذا اجتمع الصحة والفراغ وقصر في

نيل الفضائل فذلك الغبن كل الغبن، لأن الدنيا سوق الأرباح ومزرعة للآخرة وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة، فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة مولاه فهو المغبوط ومن استعملها في معصية الله فهو المغبون لأن الفراغ يعقبه الشغل والصحة يعقبها السقم ولو لم يكن إلا الهرم هـ.

قوله : (علمني وأوجز)، أي اقتصر على خلاصة الأمر ليكون أسهل للضبط أو أد ذلك العلم المطلوب بكلام مختصر لفظا جامع للعلم الكثير معنى.

قوله : (فصل صلاة مودع)، أي إذا شرعت فيها فأقبل على الله وحده، ودع غيره لمناجاة ربك. وقال بعضهم : مودع اسم فاعل من التوديع. أي كن كأنك تصلي آخر صلاة؛ (ولا تكلم) بحذف إحدى التاءين تخفيفا بكلام تعتذر منه، أي لا تتكلم بشيء يوجب أن تطلب من غيرك رفع اللوم عنك بسببه (وأجمع الإياس) بكسر الهمزة وخفة المثناة تحت، أي اعزم وصمم على قطع الأمل مما في يد غيرك من جميع الخلق، فإنه يريح القلب والبدن. وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. قال الراغب : وأكثر ما يقال أجمع فيما يكون جمعا يتوصل إليه بالفكر نحو وأجمعوا أمركم وشركاءكم والإياس القنوط وقطع الأمل هـ.

قال المناوي : تنبيه من البين أن كل من ترك الكلام المعوج للعذر والإياس مما في أيدي الناس مأمور به لا بقيد القيام إلى الصلاة هـ. والحديث رواه أحمد أيضا ورمز في الجامع الصغير لصحته. وقال في الزوائد : إسناده ضعيف وعثمان بن جبير. قال الذهبي في الطبقات : مجهول. وذكره ابن حبان في الثقات. وقال البخاري وأبو حاتم : روى عن أبيه عن جده عن أبي أيوب قلت : لكن كون

الحديث من أوجز الكلمات وأجمعها للحكمة، يدل على قربيه إلى الثبوت فليتأمل والله أعلم.

قوله : (يسمع الحكمة) هي كل ما يمنع من الجهل ويزجر عن القبيح، (ثم لا يحدث عن صاحبه إلا بشيء مما يسمع)، أي أن صاحب الحكمة لا يخلو عن سهو ونسيان وخطأ فالناقل إذا لم ينقل عنه إلا ما جرى فيه شيء من المذكورات فمثله كمثل هذا الآتي إلى الراعي.

قوله : (أجزرنى)، بجيم وزاي معجمة وراء مهملة من أجزرت إذا أعطيت شاة يذبحها. وقال السيوطي : شاة تصلح للذبح. والحديث رواه أحمد أيضا قال الحافظ العراقي : سنده ضعيف وبينه تلميذه الهيثمي في الزوائد فقال فيه علي بن يزيد بن جدعان : مختلف في الاحتجاج به هـ.

باب البراءة من الكبر وفضل التواضع

قوله : (لا يدخل من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر)، بكسر الكاف وسكون الموحدة وهو ثمر العجب، وقد هلك بهما كثير من العلماء والعباد والزهاد، والكبر هو أن يرى نفسه خيرا من غيره، جهلا بها وبقدر بارئها تعالى وبوعده ووعيده، والتكبر منه الحق كمن ينصر باطلا رياء وازدراء لخلق الله، فكل معجب أو متكبر بنعمة يأنف ممن هو فقير منها كفرا للنعمة والرحمة وأنفع شيء لدفعه التفكير في كونه لم يكن شيئا وليس أخس من العدم، وحيث صار شيئا صار جمادا لا يحس، وكان

إيجاده من تراب وطين منتن ونطفة بمكان قذر، فأوجد بسمع وبصر وعقل ليعرف به أوصافه، وأخرجه تعالى ضعيفا عاجزا فرباه وقواه وعلمه إلى ممتهاه، ويلازمه مع ذلك مستقذرات كالبول والغائط والسقم والعجز لا يملك ضرا ولا نفعا ولا شيئا، ومع ذلك قد لا يشكر نعمه ولا يذكر عرض قبائحه وتفرده بقبر موحش عن صحابه وأحابه فيصير جيفة والأحداق سالت والألوان حالت والرؤوس تغيرت ومالت مع فتان، يأتيه فيقعه يسأله عما كان يعتقده ثم يكشف له من الجنة أو النار مقعه ثم يقاسي أهوال القيامة، ثم يصير إلى النار إن لم يرحمه ربه. ومن هذه حالته، فمن أين يأتيه الكبر؟ فالكبرياء والعظمة للرب القادر لا للعبد العاجز. وظاهر الحديث يوافق ظاهر قوله تعالى : ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض﴾، ولعل المراد لا يدخل الجنة أولا والمراد بالثاني لا يخلد في النار. وقيل المراد بالكبر الترفع والإعراض عن قبول الحق والإيمان فيكون كفرا، فلذا قوبل بالإيمان، أو المراد أن من دخل الجنة يخرج من قبله الكبر لقوله تعالى : ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾، وقيل يحتمل أنه مبالغة في التيسير على الإيمان والتشديد على الكفر والله أعلم.

قوله : (الكبرياء ردائي والعظمة إزاري)، أي أنه خاص صفتي فلا يليق إلا بي، فالمنازع في صفة من صفاتي، فإذا كان الكبر على عباده لا يليق إلا به، فمن تكبر على عباده فمن تكبر على عباده فقد جنى عليه ذكره الغزالي. قال الكلاباذي : الرداء عبارة عن الجمال والبهاء والإزار عبارة عن الجلال والستر والحجاب، فكأنه قال : لا تليق الكبرياء إلا بي لأن من دوني صفات الحدوث لازمة له وسمة العجز ظاهرة عليه، والإزار عبارة عن الامتناع عن الإدراك والإحاطة

به علما وكيفية لذاته وصفاته فكأنه قال : حجت خلقي عن إدراك ذاتي وكيفية صفاتي بالجلال والعظمة.

قوله : (فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في جهنم)، أي لتشوفه إلى ما لا يليق إلا بالقادر القهار القوي الجبار الغني العلي سبحانه ليس كمثله شيء. قال في الحكم : كن بأوصاف ربوبيته متعلقا وبأوصاف عبوديتك متحققا منعك أن تدعي ما ليس لك مما للمخلوقين، فيبيح لك أن تدعي وصفه وهو رب العالمين هـ.

وقد أفاد هذا الوعيد أن التكبر والتعاضم من الكبائر.

قوله : (من يتواضع) قال بعضهم : يحتمل أن تكون من شرطية أو موصوفة، أي ينزل عن درجته في الكلام أو الجلوس إلى ما دونه.

قوله : (ومن تكبر على الله)، أي على خلاف مقتضى أمره ورضاه تابعا في ذلك هواه. والحديث قال في الزوائد : هذا إسناده ضعيف، ودراج بن سمعان أبو السمع المصري، وإن وثقه ابن معين فقد قال أبو داود وغيره مستقيم إلا ما كان عن أبي الهيثم. وقال ابن عدي : عامة أحاديث دراج مما يتابع عليه قلت وضعفه أبو حاتم والدارقطني والنسائي هـ.

قوله : (إن كانت الأمة)، أي أمة كانت (من أهل المدينة لتأخذوا بيده لـخ)، المراد بالأخذ باليد لازمه وهو الانقياد.

قوله : (حتى تذهب به حيث شاءت)، أي من الأمكنة ولو كانت حاجتها خارج المدينة، وفيه غاية تواضعه ﷺ وبراءته من جميع أنواع الكبر.

قوله : (يعود المريض)، أي كيف ما كان ولو وضعفا أو عبدا، وفي البخاري : أنه عاد غلاما يهوديا كان يخدمه وعرض عليه

الإسلام فأسلم، وكان ﷺ يدنو من المريض ويجلس عند رأسه ويسأله عن حاله ويقول : كيف تجدك أو كيف أصبحت أو كيف أمسيت أو كيف هو ؟ ويقول لا بأس عليك. طهور إن شاء الله أو كفارة وطهور وقد يضع يده على المكان الذي يألم ثم يقول : بسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك الله يشفيك (ويشيع الجنازة) من شيع بالتشديد أي يتبعها. وفي رواية ويشهد الجنائز، أي الصلاة عليها ودفنها (ويجيب دعوة المملوك) أي لضيافة أو حاجة قرب محلها أو بعد (ويركب الحمار) أي مع قدرته على ما فوقه من المراكب (وكان يوم قريظة) هم جماعة من يهود المدينة غزاهم النبي ﷺ يوم رجوعه من الخندق فلما إشتد عليهم البلاء نزلوا على حكم سعد بن معاذ فحكم بقتل الرجال وسبي النساء والدراري وقُسمت الأموال وهم ستمائة أو سبعمائة رجل، وقسمت نساؤهم وأموالهم وأبناءؤهم (على حمار مخطوم)، أي ذا خطام بالكسر وهو الزمام (برسن من ليف) بفتحتين هو الحبل الذي تقاد به الدابة (وتحته إكاف) بكسر الهمزة هو بمنزلة السراج للفرس والرحل للبعير (من ليف). وفي رواية إكاف ليف بالإضافة، أي مع أن الله تعالى مكنه من عدوه في ذلك ونصره عليهم حتى ظفر بهم وبأموالهم وهذه نهاية التواضع.

قوله : (عن عياض) بكسر أوله وتخفيف التحتية وآخره معجمة بن حمار بكسر المهملة وخفة الميم المجاشعي تميمي عد في البصريين له وفادة وعاش إلى حدود الخمسين.

قوله : (إن الله عز وجل أوحى إلي)، أي وحي إرسال وزعم أنه وحي إلهام خلاف الأصل والظاهر بلا دليل والوحي إعلام في خفاء.

قوله : (آن) أي بأن (تواضعوا) بخفض الجناح ولين الجانب (حتى لا يفخر أحد على أحد) بتعدد محاسنه كبرا ورفع قدر نفسه على الناس تيتها وعجبا. قال ابن القيم : والتواضع انكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة للخلق حتى لا يرى له على أحد فضلا، ولا يرى له عند أحد حقا بل والحق له والفخر ادعاء العظمة هـ.

وقيل التواضع الإستسلام للحق وترك الاعتراض على الحكم من الحاكم. وقيل التواضع قبول الحق فمن قاله صغيرا أو كبيرا شريفا أو وضيعا حرا أو عبدا ذكرا أو أنثى. قال أبو زيد : ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر. قال بعضهم : رأيت في المطاف إنسانا بين يديه شاكريه يمنعون الناس لأجله عن الطواف ثم رأيت بعد ذلك على جسر بغداد يسأل الناس فعجبت منه فقال : إني تكبرت في موضع يتواضع فيه الناس فابتلاني الله بالذل في موضع ترفع فيه الناس. وقال بعضهم : الشرف في التواضع والعز في التقوى والحرية في القناعة هـ.

وزاد في رواية لمسلم ولا يبغي أحد على أحد والبغي مجاوزة الحد في الظلم. قال الطيبي : المراد أن الفخر والبغي شحناء الكبير، لأن المتكبر هو الذي يرفع نفسه فوق منزلته فلا ينقاد لأحد. قال المجد بن تيمية : نهى الله على لسان نبيه عن نوعي الإستطالة على الخلق وهي الفخر والبغي، لأن المستطيل إن استطال بحق فقد افتخر، أو بغير حق فقد بغي فلا يحل هذا ولا هذا فإن كان الإنسان من طائفة فاضلة كبني هاشم أو غيرهم، فلا يكن حظه استشعار فضل نفسه والنظر إليها، فإنه مخطيء إذ فضل الجنس لا يستلزم فضل الشخص فرب حبشي أفضل عند الله من جمهور قريش، ثم هذا النظر يوجب نقصه وخروجه عن الفضل فضلا عن استعلائه بهذا

واستطالته به. قال وأخذ منه أنه يتأكد للشيخ التواضع مع طلبته
واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين، وإذا طلب التواضع لمطلق
الناس فكيف لمن له حق الصحبة وحرمة التودد وصدق المحبة،
لكن لا يتواضع معهم مع اعتقادهم أنهم دونه. فقد قال ابن عطاء
الله : من أثبت لنفسه تواضعا فهو المتكبر حقا، فالتواضع لا يكون
إلا عن رفعة مع عظمة واقتدار، ليس المتواضع الذي إذا تواضع رأى
أنه فوق ما صنع بل الذي إذا تواضع رأى أنه دون ما صنع هـ.

باب الحياء

الحياء هنا بالمد وأما بالقصر، فهو المطر وهو في اللغة تغير
وانكسار يعتري الإنسان عن ترك أو فعل ما يعاب عليه. وفي الشرع
خلق يبعث على اجتناب القبيح ويحض على ارتكاب الحسن ومجانبة
التقصير في الحق، وهو من الأخلاق المحمود المطلوبة.

قوله : (أشد حياء من عذراء)، هي البكر التي لم تنزع عذرتها،
سميت بذلك لبقاء عذرتها، وهي جلدة البكارة أو لضيقها من قولهم
تعذر الأمر إذا ضاق (في خدرها) بكسر المعجمة وسكون المهملة
وهو ستر يجعل للبكر إذا ترعرعت في جانب البيت لتنفرد به عن
النساء، ولا شك أن العذراء التي تتربى فيه أشد حياء من التي
تخالط غيرها، أو تكون داخلة خارجة. وقال ابن حجر تبعا لغيره
إنما قيد بقوله في خدرها، لأنه يدركها في الخلوة من الحياء لكونها
مظنة أن تساوم وأن يطمع فيها ما لا يدركها في الجلوة وحضرة
الناس، فعلم أن المراد الحالة التي تعترها عند دخول أحد عليها فيه
لا التي تكون حالة انفرادها أو اجتماعها بمثلها فيه هـ.

قوله : (وكان إذا كره شيئاً رُئي ذلك في وجهه)، أي لأن وجهه كالشمس والقمر فإذا كره شيئاً لم يصرح بكراهيته لشدة حيائه، لكن يظهر في وجهه أثر كراهيته له كالغيم على النيرين كما أن المخدرة يعرف أثر رضاها وكراهتها في وجهها ولا تحتاج إلى التكلم بذلك بحضرة الناس والله أعلم.

قوله : (إن لكل دين خلقاً) بضمّتين، أي طبعاً وسجية (وخلق الإسلام الحياء)، أي طبع هذا الدين وسجيته التي بها قوامه أو مروءة هذا الدين التي بها جماله الحياء. قال المناوي : فالحياء أصله من الحياة، فإذا حيى القلب بالله تعالى فكما ازداد حيائه بالله ازداد منه حياة، ألا ترى أن المستحي يعرف في وقت الحياة فعرقه من حرارة الحياة التي هاجت من الروح، فمن هيجانه تفور الروح فيعرف منه الجسد ويعرف منه أعلاه، لأن سلطان الحياة في الوجه والصدر، وذلك من قوة الإسلام، لأن الإسلام تسليم النفس والدين خضوعها وانقيادها، فلذلك صار الحياء خلقاً للإسلام فيتواضع ويستحيي ذكره الحكيم، يعني الغالب على أهل كل دين سجيته سوى الحياء، والغالب على أهل ديننا الحياء، لأنه متمم لمكارم الأخلاق، وإنما بعث ﷺ لإتمامها ولما كان الإسلام أشرف الأديان أعطاه الله أسنى الأخلاق وأشرف الأديان أعطاه الله أسنى الأخلاق وأشرفها وهو الحياء هـ.

والحديث قال في الزوائد ضعيف ومعاوية بن يحيى الصدي وأبو روح الدمشقي ضعفوه هـ.

قوله : (عن ابن عباس لـخ). إسناده ضعيف لضعف صالح بن حبان ومحمد الوراق.

قوله : (إن مما أدرك الناس)، أي الجاهلية، قال المانوي : ويجوز رفع الناس على عائد محذوف ونصبه على أن العائد ضمير الفاعل وأدرك بمعنى بلغ ذكره الطيبي وغيره، لكن الرواية بالرفع قال الحافظ ابن حجر : الناس بالرفع في جميع الطرق هـ.

قوله : (الأولى)، أي مما اتفق عليه شرائع الأنبياء، لأنه جاء في أولاهما ثم تتابعت بقتيتهم عليه، ولم ينسخ فيما نسخ من شرائعهم، فالمراد بالأولى التي قبل نبينا محمد ﷺ فالحياء لم ينزل أمره ثابتا واستعماله واجبا منذ زمان النبوة الأولى، وما من نبي إلا وقد حث عليه وندب إليه وأفهم بإضافة الكلام إلى النبوة أن هذا من نتائج الوحي، وأن الحياء مأمور به في جميع الشرائع.

قوله : (فاصنع ما شئت). قيل : هو أمر تهديد لتاركه نحو اعملوا ما شئتم أو أراد الخير يعني عدم الحياء يورث الاستهتار والانهماك في هتك الأستار أو المراد ما لا تستحيى من الله في فعله فافعله وما لا فهو أمر إباحة والأولى الأول. قال الزمخشري فيه: إشعار بأن الذي يكف الإنسان ويردعه عن مواجهة السوء هو الحياء، فإذا رفضه وخلع ربقة فهو كالمأمور بارتكاب كل ضلالة وتعاطي كل سيئة هـ.

قوله : (الحياء من الإيمان). قال الزمخشري : جعل كالبعض منه لمناسبته له في أنه يمنع من المعاصي كما يمنع الإيمان. وقال ابن الأثير : جعل الحياء وهو غريزة من الإيمان، وهو اكتساب لأن المستحي ينقطع بحيائه عن المعاصي، وإن لم يكن له تقية فصار كالإيمان ينقسم إلى ائتمار بما أمر الله وانتهاء عما نهى عنه، فإذا حصل الانتهاء بالحياء كان أخص الإيمان هـ.

قوله : (الإيمان في الجنة)، أي يوصل إليها.

قوله : (والبذاء) بذال معجمة مع المد الفحش في القول (من الجفاء بالمد أي الطرد) والإعراض وترك الصلة والبر، والجفاء في النار) يوضحه قوله في خبر آخر وهل يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم ؟ قال المناوي : تنبيه سئل بعضهم هل يكون الحياء من الإيمان مقيدا أو مطلقا ؟ فقال : مقيد بترك الحياء في المذموم شرعا وإلا فعدمه مطلوب في النصح والأمر والنهي الشرعي فتركه في هذه الأشياء من النعوت الإلهية أن الله لا يستحي أن يضرب مثلا إن الله لا يستحي من الحق وأنشدوا :

إن الحياء من الإيمان جاء به

لفظ النبي وخير كله فيه

فليتصف كل من يرعى مشاهده

وليس يعرف هذا غير منتبه

مستيقظ غير نـواام ولا كسل

مراقب قلبه لدى تقلبه

إن الحياء من أسماء الإله وقد

جاء التخلق بالأسماء فاحظ به

والحديث رواه أيضا الترمذي عن أبي هريرة والبخاري في الأدب المفرد والحكم والبيهقي في الشعب عن أبي بكرة. والطبراني والبيهقي أيضا عن عمران ابن الحصين. قال الهيثمي في موضع رجاله : رجال الصحيح، وأعادته في آخر فقال فيه محمد بن موسى ابن أبي نعيم وثقه أبو حاتم وكذبه جمع وبقية رجاله رجال الصحيح، وأطلق الذهبي في الكبائر أنه صحيح وقال في الزوائد أيضا رواه ابن حبان في صحيحه وقول الدارقطني أن الحسن لم يسمع من أبي بكرة، الجواب عنه أن البخاري احتج في صحيحه برواية الحسن عن

أبي بكرة في أربعة أحاديث، وفي مسند أحمد ومعجم الطبراني الكبير التصريح بسماعه من أبي بكرة في عدة أحاديث والمثبت مقدم على النافي هـ.

قوله : (ما كان الفحش) بضم الفاء فسكون الحاء إسم من الإفحاش. قال في شرح الترمذي : هو الكلام بما يكره سماعه بما يتعلق بالدين هـ.

قوله : (إلا شأنه)، أي عابه والشين العيب.

قوله : (ولا كان الحياء في شيء قط إلا زانه). قال الطيبي : فيه مبالغة أي لو قدر أن يكون الفحش أو الحياء في جماد لشانه أوزانه فكيف بالإنسان، وأشار بهذين إلى أن الأخلاق الرذيلة مفتاح كل شر، بل هي الشر كله والأخلاق الحسنة السنية مفتاح كل خير، بل هي الخير كله. قال ابن جماعة : وقد بلي بعض أصحاب النفوس الخبيثة من فقهاء الزمان بالفحش والحسد والعجب والرياء وعدم الحياء هـ.

والحديث رواه أيضا أحمد والترمذي والبخاري في الأدب المفرد، قال الترمذي : حسن غريب والله أعلم.

باب الحلم

قوله : (من كظم غيظا)، أي أمسك وكف عن إمضائه من كظمت القربة إذا ملأتها وشدت رأسها، ذكره القاضي (وهو قادر على أن ينفذه) من الإنفاد، أي قادر على أن يأتي بمقتضاه دعاه الله لخ). وفي رواية ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا، لأنه قهر النفس الأمارة بالسوء، فانحلت ظلمة قلبه فامتلاً يقينا وإيمانا، ولهذا أثنى الله

على الكاظمين الغيظ في كتابه، وكان ذلك من آداب الأنبياء والمرسلين، ومن تم خدم أنس النبي ﷺ عشر سنين فلم يقل له في شيء فعله لم فعلته، ولا شيء تركه لم تركته. والحديث في إسناده أبو مرحوم قال في المذهب : ليس بذلك، ورواه الطبراني في الأوسط والصغير بلفظ : من كظم غيظا وهو قادر على إنفاده زوجه الله من الحور العين يوم القيامة، ومن ترك ثوب جمال وهو قادر على لبسه كساه الله رداء الإيمان يوم القيامة. الحديث قال الهيثمي : فيه بقية وهو مدلس هـ.

قوله : (وبقى الأشج) اسمه المنذر بن عابد بن المنذر بن الحارث بن النعمان ابن زياد بن عصر العصري بفتحتين، العبدى يعرف بالأشج من ولده عثمان بن الهيثم بن جهم ابن عباس بن حسان بن المنذر العبدى المحدث.

قوله : (جانبا)، أي طرفا من المنزل.

قوله : (والتوأدة)، أي التآني وترك التعجيل.

قوله : (بل شيء جبلت وطبعت عليه) على بناء المفعول، أي خلقت وطبعت عليه. والحديث قال في الزوائد فيه عمارة أبو هارون العبدى كذبه ابن معين، وعثمان بن أبي شيبة وابن عليه. وقال ابن عبد البر : أجمعوا على أنه ضعيف الحديث.

قوله : (الحلم والحياء) في إسناده العباس بن الفضل بن قرة بن خالد تابعه عليه بشر بن الفضل كما رواه الترمذي.

قوله : (ما من جرعة لـخ)، بضم الجيم اسم من جرع الماء كسمع، أي بلعه. قال المناوي : شبه جرعة غيظه وردده إلى باطنه بتجرع الماء، وهي أحب جرعة يتجرعها العبد وأعظمها ثوابا، وأرفعها درجة كحبس نفسه من التشفي، ولا يحصل هذا إلا لمن

كان قادرا على الانتقام ويكون غضبه لله بنية سلامة دينه ونيل ثوابه هـ.

والحديث قال الحافظ العراقي : إسناده جيد هـ.

باب الحزن والبكاء

قوله : (أطت السماء)، بفتح الهمزة وشد الطاء صاحت وأنت وصوتت من ثقل ما عليها من ازدحام الملائكة وكثرة السجادين فيها، من الأطيع وهو صوت الرجل والإبل من حمل أثقالها «وأل» للجنس، (وحق لها). وفي رواية : ويحقها (أن تتط) بفتح المثناة فوق وكسر الهمزة وشد الطاء، أي صوتت وحق لها أن تصوت، لأن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت. قال ابن الأثير : وهذا مثل، وإيذان بكثرة الملائكة كثرة لا يسعها عقل البشر، وإن لم يكن تم أطيع، وإنما هو تقريب أريد به تقرير عظمة الله تعالى (ما فيها موضع أربع أصابع). وفي رواية : والذي نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر، أي ولا أقل منه بدليل الرواية الأولى، (إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله). زاد في رواية لابن مردويه : يسبح الله ويحمده. قال ابن الزمكاني : وقد دل هذا الخبر ونحوه على أن الملائكة أكثر المخلوقات عددا وأصنافهم كثيرة، وقد ورد في القرآن من ذلك ما يوضحه هو معرفة قدر كثرتهم وتفصيل أصنافهم موكل إليه سبحانه : ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾. وقيل : إن المكلفين أربعة أصناف الإنسان والملك والجن والشياطين، وبنو آدم عشر الجن، والجن عشر حيوان البحر والطير والكل عشر ملائكة سماء الدنيا وكلهم عشر ملائكة السماء الثانية، وهكذا إلى ملائكة

الكرسي ثم العرش. وفي كتاب الزاهر وغيره عن الأوزاعي وغيره أن
 في مناجاة موسى قال : يارب من عبدك قبل آدم ؟ قال الملائكة قال
 يارب : كم هم ؟ قال : اثني عشر ألف سبط قال : كم السبط ؟
 قال : مثل الجن والإنس والطير والبهائم اثني عشر ألف مرة. وفي
 رواية كم عدد كل سبط ؟ قال : عدد التراب. وفي تذكرة الإمام
 الرازي أن رسول الله ﷺ لما عرج به إلى السماء رأى ملائكة في محل
 عال مشرق، ورأى بعضهم يمشي تجاه بعض فسأل جبريل : أين
 يذهبون ؟ فقال : والذي بعثك بالحق لا أدري إلا أنني أراهم هكذا
 منذ خلقت، ولا أرى واحدا منهم قد رأيته قبل ذلك. وفي الفتوحات :
 لا يزال الحق يخلق من أنفاس العالم ملائكة ما داموا متنفسين
 والأخبار والآثار الدالة على أن أكثرتهم لا تكاد تحصى هـ.
 من المناوي على الجامع الصغير.

قوله : (لو تعلمون ما أعلم)، أي من عظم انتقام الله من أهل
 الجرائم وأهوال القيامة وأحوالها ما علمته لما ضحكتم أصلا، المعبر
 عنه بقوله (لضحكتكم قليلا)، إذ القليل بمعنى العديم على ما يقتضيه
 السياق، لأن لو حرف امتناع لامتناع. وقيل معناه : لو تعلمون ما
 أعلم مما أعد في الجنة من النعيم وما حفت به من الحجب لسهل
 عليكم ما كلفتم به، ثم إذا تأملتم ما وراء ذلك من الأمور الخطرات
 وانكشاف المعظمت يوم العرض على فاطر السموات لاشتد خوفكم
 (ولبكيتم كثيرا)، لغلبة الحزن واستيلاء الخوف واستحكام الوجد،
 فالمعنى مع البكاء لامتناع علمكم بالذي أعلم وقدم الضحك لكونه
 من المسرة، وفيه من أنواع البديع مقابلة الضحك بالبكاء والقلّة
 بالكثرة ومطابقة كل منهما بالآخر. قيل : إن كان الخطاب للكفار
 فليس لهم ما يوجب ضحكا أصلا، أو للمؤمنين فعاقبتهم الجنة،

وإن دخلوا النار فما يوجب البكاء أجيب : بأن الخطاب للمؤمن، لكن خرج الخبر في مقام ترجيح الخوف على الرجاء قاله المناوي. زاد في رواية للحاكم : ولما ساغ لكم الطعام ولا الشراب.

قوله : (إلى الصعدات) بضمّتين، جمع صعيد كطريق وزنا ومعنى، (تجأرون) بالجيم والهمزة والراء أي ترفعون أصواتكم وتستغيثون.

قوله : (والله لوددت لـخ)، قال الحافظ : هذا من قول أبي ذر مدرج في الحديث هـ.

فائدة : أخرج الطبراني عن الفرزدق قال : لقيت أبا هريرة بالشام فقال : أنت الفرزدق قلت : نعم قال : أنت الشاعر قلت نعم قال : أما أنك إن بقيت لقيت قوما يقولون لا توبة لك، فإياك أن تقطع رجاءك من رحمة الله.

قوله : (لا تكثرُوا الضحك)، بفتح وكسر وهو كيفية يحصل منها انبساط في القلب بما يعجب الإنسان من السرور ويظهر ذلك في الوجه، والإكثار منه مضر بالقلب منهي عنه شرعا، وهو من فعل السفهاء والأراذل مورث للأمراض النفسانية ولذا قال : (فإن كثرة الضحك تميت القلب)، أي تصيره مغمورا في الظلمات بمنزلة الميت الذي لا ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها شيئا من مكروه وحياته وإشراقه مادة كل خير وموته وظلمته مادة كل شر، وحياته تكون قوته وسمعه وبصره وتصور المعلومات وحقائقها على ما هي عليه ولذا قال لقمان عليه السلام لابنه : يا بني لا تكثر الضحك من غير عجب، ولا المشي من غير أرب، ولا تسأل عما لا يعنيك، ولا تضع مال غيرك، فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما أخرت. وقال موسى للخضر عليهما السلام : أوصني فقال : كن بساما ولا تكن غاضبا

وكن نفاعا ولا تكن ضارا وانزع عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة، ولا تضحك من غير عجب، ولا تعير الخطائين بخطاياهم، وابك على خطيئتك يا ابن عمران. وفي الحديث : إيدان بالإذن في قليل الضحك. لا سيما لمصلحته. والحديث رواه أيضا أحمد والترمذي في الزهد وأبو نعيم في الحلية كلهم من طريق الحسن ولفظهم عن أبي هريرة مرفوعا : من يأخذ عني هذه الكلمات فيعمل بهن، أو يعلم من يعمل بهن قلت : أنا، فأخذ بيدي فعد خمسا فقال : اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب. قال الترمذي : غريب منقطع هـ.

قال المنذري : وبقية إسناده فيه ضعف هـ.

قوله : (اقرأ علي) يحتمل أنه خصه بذلك، لأنه لم يحضر غيره أو لم يحضر أعلم منه قاله الأبى (فقرأت عليه) وفي رواية : فقلت يارسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل قال : إني أحب أن أسمع من غيري. إما تشريعا لطريق العرض على الشيخ عكس ما وقع لأبى حيث قال له النبي ﷺ : أمرت أن أقرأ عليك فيكون إشارة إلى أن القرآن يؤخذ بعرض الشيخ على التلميذ، وبالعكس، أو لأنه أبلغ في التفهم والتدبر، فإن المستمع أقوى على ذلك من القارئ لاشتغاله بالقرآن والله أعلم.

قوله : ﴿وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾، أي كيف حال الكفار ؟ وكيف يكونون ؟ أو كيف يصنعون إذا جئنا من كل أمة بشهيد وهو نبي تلك الأمة. وجئنا بك على هؤلاء، أي الأنبياء أو أممهم شهيدا، (فنظرت إليه فإذا عيناه تدمعان) : قال عياض : بكأوه ﷺ

لعظم ما تضمنته الآية وما قبلها من قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ وما بعدها من قوله تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَدِّعُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية. وقال ابن بطال : مثل لنفسه أهوال يوم القيامة وشهادة الحال الداعية إلى شهادته لأمته بالتصديق وسؤاله الشفاعة لأهل الموقف، وهو أمر يحق له طول البكاء. وقال العسقلاني الذي يظهر أنه بكى رحمة لأمته، لأنه علم أنه لا بد أن يشهد عليهم بعلمهم وعملهم، قد لا يكون مستقيما فقد يفضي إلى تعذيبهم هـ.

وفي البخاري : أنه لما بلغها قال له : امسك وأخذ منه، جواز الأمر بقطع القراءة لمصلحة، وهي هنا التنبيه على ما في الآية من الوعظ أو الإشارة إلى جواز الوقف في مثل هذا المحل مع أن الكلام غير مستقل بنفسه وتمامه بالآية التي بعده. وفي الحديث : البكاء عند قراءة القرآن وهو من صفات العارفين وسمة الصالحين، وقد مدحهم الله سبحانه بذلك في قوله : ﴿إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجُودًا وَبُكِيًا﴾، وفي قوله : ﴿وَيَخْرُونَ لِلْإِنْقَانَ بِكَوْنٍ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾.

قوله : (فأعدوا)، أي صالح الأعمال الذي يدخل القبر مع المؤمن. والحديث إسناده ضعيف قال ابن حبان في الثقات : محمد بن مالك لم يسمع من البراء، ثم ذكره في الضعفاء قاله في الزوائد..

قوله : (فتباكوا)، أي تكلفوا البكاء.

قوله : (ما من عبد مؤمن) التنكير فيه للتعظيم، أي كامل في إسلامه راض بقضاء ربه وبنبوة نبيه وبدين الإسلام.

قوله : (من خشية الله)، أي من خوف جلاله وقهر سلطانه.

قوله : (من حر وجهه) بضم الحاء المهملة وتشديد الراء، هو ما أقبل عليك وبدا لك منه (إلا حرمه الله على النار). وفي رواية : فتمسه النار أبدا، لأن خشيته من الله دلالة على علمه به ومحبته له، ومن أحب الله أحبه الله. قال الحافظ العراقي : وكل ما ورد من فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية، وإنما يخشى الله من عباده العلماء. وفي خبر أعلمكم بالله أشدكم له خشية، وخرج ببكاء الخشية بكاء التفجيع، فإنه يصدع الرأي ويضعف البصر، وبكاء الجزع والهلع فإنه يورث الفترة والغفلة كما أن بكاء الخشية يزيل الفترة ويزيد الذلة. والحديث رواه أيضا الطبراني والبيهقي. قال الحافظ العراقي وسنده ضعيف هـ.

باب التوقى على العمل

قوله : (ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلي لخ)، فمعنى قوله: يؤتون ما أتوا، أي يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات وقيل معناه : يعملون ما عملوا من أعمال البر وقلوبهم وجلة، أي خائفة إن ذلك لا ينجيهم من عذاب الله وأن أعمالهم لا تقبل منهم أنهم إلى ربهم راجعون، أي أنهم يوقنون أنهم إلى الله صائرون. قال الحسن: عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم والله أعلم. وعائشة رضي الله عنها كأنها زعمت أن الخوف إنما يناسب الأعمال القبيحة دون الصالحة فبين لها ﷺ أنهم الذين يديمون على الأعمال الصالحة التي فعلوها أول الإسلام والحال أنهم يخافون الرد والله أعلم.

قوله : (كالوعاء) بكسر الواو واحد الأوعية، وأوعى الزاد والمتاع جعله في الوعاء كذا في الصحاح وغيره، والمراد هنا أن العمل شبيه بالإناء المملوء (إذا طاب أسفله) أي حسن وعذب أسفل ما فيه من نحو (مائع طاب أعلاه) الذي هو مرئي (وإذا فسد) لخب، والقصد بالتشبيه أن الظاهر عنوان الباطل، ومن طابت سريرته طابت علانيته، فإذا اقترن العمل بالإخلاص القلبي الذي هو شرط القبول أشرق ضياء الأنوار على الجوارح الظاهرة، وإذا اقترن برياء أو نحوه اكتسب ظلمة يدركها أهل البصائر وأرباب السرائر إن لله عبادا يعرفون الناس بالتوسم فاتقوا فراسة المؤمن. والحديث في إسناده الوليد بن مسلم وتقدم أنه ثقة مدلس، وعبد الرحمان بن يزيد أورده الذهبي في الضعفاء قال : ضعفه أحمد وقال البخاري : منكر الحديث، وعثمان بن إسماعيل قال في الزوائد : لم أر من تكلم فيه هـ.

قوله : (فأحسن)، أي صلاته (وصلى في السر)، أي حيث لا يراه الناس وهو ضد العلن، فأحسن قال الله تعالى، مظهرًا لثنائه على ذلك العبد بين الملأ الأعلى ناشرا لفضله منوها برفع درجته إلى مقام العبودية الذي هو أرفع المقامات وأسنى الدرجات، (هذا عبدي حقا) مصدر مؤكد، أي حق ذلك حقا وأراد بالإحسان فيها أن يصليها محتملا لمشاقها محافظا على ما يجب فيها من إخلاص القلب وحفظ النيات ودفع الوسواس ومراعات الآداب والإحتراس من المكاره مع الخشية والخشوع واستحضار العلم، بأنه انتصب بين يدي جبار السموات إلى غير ذلك. والحديث فيه بقية وقد مر أنه مدلس، وقد أورده الذهبي في الضعفاء وقال : لينه ابن القطان والله أعلم.

قوله : (قاربوا) أي اقصدوا الأمور التي لا غلو فيها ولا تقصير (وسددوا) أي اقصدوا السداد وهو الصواب. زاد البخاري وأبشروا أي بالثواب على العمل وإن قل (فإنه ليس لأحد منكم لخ) وفي رواية البخاري : فإنه لا يدخل أحدا الجنة عمله قالوا : ولا أنت يا رسول الله قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة. قال الرافعي فيه أن العامل لا ينبغي أن يتكل على عمله في طلب النجاة ونيل الدرجات، لأنه إنما عمل بتوفيق الله، وإنما ترك المعصية بعصمة الله، فكل ذلك بفضل ورحمته واستشكل قوله : لن يدخل أحدا الجنة عمله مع قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. وأجيب : بأن أصل الدخول إنما هو برحمة الله وإقتسام المنازل فيها بالأعمال، فإن درجات الجنة متفاوتة بحسب تفاوت الأعمال فإن قلت قوله تعالى : ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، مصرح بأن دخول الجنة أيضا بالأعمال أجيب: بأن لفظه مجمل يبينه الحديث، والتقدير ادخلوا منازل الجنة وقصورها بما كنتم تعملون، فليس المراد بذلك أصل الدخول والله أعلم.

باب الرياء والسمعة

قوله : (أنا أغنى الشركاء عن الشرك) قال الأبى في شرح مسلم أطلق على نفسه الشريك بالنسبة لمن زعم ذلك هـ. وقال السنوسي في شرحه أيضا : المراد هنا كونه شريكا في القصد في هذا الفعل الصادر من المرائي، لأنه قصد بفعله الله وغيره، ولا إشكال في ثبوت الشركة بهذا المعنى، فلا حاجة إلى

الاعتذار إذ لم يرد بالشركة الشركة في الألوهية أو صفاتها المختصة بها هـ.

قوله : (فأنا منه بريء وهو للذي أشرك). وفي رواية مسلم : تركته وشركه ويروى وشريكه بالياء. وفي رواية : وشركته بالتاء بعد الكاف، والمعنى لا أقبل عمله بل أتركه لذلك الغير والله أعلم. قوله : (الشرك الخفي)، أي فإنه شرك لا يظهر للناس أنه شرك بل يظهر لهم أنه صلاح. والحديث إسناده حسن وكثير بن زيد وربيع بن عبد الرحمان مختلف فيهما قاله في الزائد هـ.

قوله : (ولكن إعمالا لخير الله)، أي رياء وسمعة (وشهوة خفية). قال الأزهري : استحسن أن انصب الرياء مع الشهوة الخفية واجعل الواو بمعنى مع، أي الرياء مع الشهوة الخفية للمعاصي، فكأنه يرائي الناس بتركه المعاصي والشهوة في قلبه مخبأة. وقال ابن الجوزي : في غريب الحديث الرياء ما كان ظاهرا والشهوة الخفية عدم اطلاع الناس على العمل، ولم يحك خلافه. قيل وهو تفسير حسن، إلا أنه ورد في بعض طرق الحديث تفسيره بغير ذلك. ففي مسند أحمد ونوادر الأصول والمستدرک زيادة قيل : وما الشهوة الخفية ؟ قال : يصبح العبد صائما فيعرض له شهوة من شهواته فيوافقها ويدع صومه، وحيثما ورد التفسير في تنمة الحديث من قول الرسول ﷺ فلا يعدل عنه إلى غيره قاله الإمام السيوطي هـ.

والحديث في إسناده رواه بن الجراح ضعفه الدارقطني وعامر ابن عبد الله. قال المنذري : لا يعرف والحسن بن ذكوان قال أحمد: أحاديثه بواطيل. قال الحافظ العراقي : ورواه أحمد عن شداد أيضا وزاد فيه قيل : ما الشهوة الخفية ؟ قال : يصبح أحدكم صائما لخ،

ثم قال - أعني العراقي - في حديث : لا يصح لعله فيه خفية وعبد الوهاب بن زياد وهو ضعيف. قال : وبتقدير صحته فإبطال صومه لأجل شهوته مكروه بخلافه لأمر مشروع من زائر وعارض فلا تعارض بينه وبين حديث الصائم المتطوع أمير نفسه إن شاء صام وإن شاء أفطر هـ. كلام العراقي.

قوله : (من يراء) أي يظهر للناس العمل الصالح ليعظم عندهم، وليس هو كذلك (يراء الله به)، أي يظهر سريرته على رؤوس الخلائق ليفتضح أو ليكون ذلك حظه فقط (ومن يسمع) أي الناس عمله ويظهره لهم ليعتقدوه ويبروه (يسمع الله به) أي يوم القيامة، أي يظهر للناس سريرته ويملاً أسماعهم بما انطوى عليه جزاء وفاقا وقيل : أراه ثواب ذلك من غير أن يعطيه إياه ليكون حسرة عليه وقيل : معناه من يسمع بعيوب الناس ويذيعها يسمع الله بعيوبه يوم القيامة. والحديث رواه أحمد أيضا والترمذي ورمز السيوطي في الجامع الصغير لحسنه وإسناده المؤلف فيه عطية العوفي وتقدم أنه ضعيف وكذلك محمد بن أبي ليلى. والحديث من حديث جندب في الصحيحين والله أعلم.

باب الحسد

الحسد هو إرادة زوال نعمة الله التي على المحسود سواء أردت نقلها إليك أو مطلقا، وهو شر الحسد إلا إن كانت النعمة على كافر أو فاجر فأردت زوالها لكونه يتوصل بها إلى إذاية الخلق، فلا يكون ذلك من الحسد، لأنك إنما كرهتها من حيث أنها آية للفساد لا من حيث أنها نعمة، وأما إن أردت أن يكون لك مثله فهو الغبطة

فإن تعلقت بالدين فمحمودة، وإلا فالعكس قد يطلق على الغبطة اسم الحسد مجازاً كما يأتي في الحديث الأول من الترجمة، والإجماع على تحريمه وفيه آفتان دينية ودنيوية. أما الأولى فإن الحاسد متسخط لقضاء الله تعالى كاره نعمته التي قسمها بين عباده وعدله الذي أقامه في ملكه بخفي حكمته مستنكر ذلك مستبشع له، وذلك جناية على حدة التوحيد وقذى في عين الإيمان كما قيل :

ألا قل لمن ظل لي حاسدا
أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في حكمه
لأنك لم ترض لي ما وهب
فجـازاك عني بأن زادني
وسد عليك وجوه الطلب

وأما الثانية : فلأن الحاسد لا يزال في كمد وغم، لأن المحسود لا يخلو من نعم يفيضها الله عليه، فلا يزال يتعذب بكل نعمة تتجدد وبكل بلية تنصرف، فكان يتمنى المحنة لعدوه فتنجزها في الحال لنفسه ويكفي في ذمه أن الله أمرنا بالتعود من شره، كما أمر بالتعود من الشيطان الرجيم فقال : ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾، أي إذا أظهر حسده وعمل بمقتضاه، لأنه إذا لم يظهر فلا ضرر يعود منه على من حسده، بل هو الضار لنفسه لاغتمامه بسرور غيره وهو الأسف على الخير عنده والاستعاذة من هذه مع سابقها بعد الاستعاذة من شر ما خلق إشعار بأن شر هؤلاء أشد، وختم بالحسد ليعلم أنه شرها وهو أول ذنب عصي الله به في السماء من إبليس. وفي الأرض من قابيل وأقوى أسباب الحسد العداوة، ومنها

خوفه من تكبر فيتمنى زوالها عنه ليقع التساوي بينه وبينه ومنها حب الرياسة، فمتى تفرد بفن وأحب الرياسة صارت حالته إذا سمع في أقصى العالم بنظيره أحب موته أو زوال تلك النعمة عنه، وربما حسد عالما فأحب خطأه في دين الله وانكشافه أو بطلان علمه بخرس أو مرض، فيتأمل ما فيه من مشاركة أعداء الله بسخط قضائه وكراهة ما قسمه لعباده ومحبة زوالها عن أخيه المؤمن ونزول البلاء به، فالعجب من عاقل يسخط ربه بحسد يضره في دينه ودنياه بلا فائدة نسأل الله السلامة والعفو والعافية.

قوله : (لا حسد)، أي جائز في شيء والمراد به الغبطة كما يأتي.
قوله : (رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته) بفتح اللام والكاف، أي أهلكه بأن أفناه كله في الحق، لا في التبذير ووجوه المكاره.

قوله : (ورجل أتاه الله الحكمة)، أي القرآن أو كل ما منع من الجهل وزجر عن القبيح (فهو يقضي بها) أي بين الناس (ويعلمها) لهم، وأطلق الحسد وأراد به الغبطة وحينئذ فهو من باب إطلاق المسبب على السبب، ويؤيده ما في البخاري في فضائل القرآن من حديث أبي هريرة بلفظ فقال : (ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل)، فلم يتمن السلب بل أن يكون مثله، أو الحسد على حقيقته وخص منه المستثنى لإباحته كما خص نوع من الكذب بالرخصة وإن كانت جملته محظورة. فالمعنى هنا لا إباحة في شيء من الحسد إلا فيما كان هذا سبيله، أي لاحسد محمود إلا في هذين، فالاستثناء على الأول من غير الجنس، وعلى الثاني منه كذا قرره الزركشي والبرماوي والكرمانى والعيني وتعقبه البدر الدماميني بأن الاستثناء متصل على الأول قطعاً، وأما على الثاني

فإنه يلزم عليه إباحة الحسد في الإثنين كما صرح به، والحسد الحقيقي وهو كما تقرر تمنى زوال نعمة المحسود عنه وصيرورتها إلى الحاسد، لا يباح أصلاً فكيف يباح تمنى زوال نعمة الله تعالى عن المسلمين القائمين بحق الله فيها؟ هـ.

من القسطلانى على البخاري.

قوله : (الحسد)، أي المذموم (يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب). قال المناوي : لأنه اعتراض على الله فيما لا عذر للعبد فيه، لأنه لا يضره نعمة الله على عبده، والله لا يعذب ولا يضع الشيء بغير محله فكأنه نسب ربه للجهل والسفه، ومن لم يرض بفضائله فليطلب ربا سواه. قال القاضي : تمسك به من يرى إحباط الطاعات بالمعاصي كالمعتزلة وأجيب : بأن المعنى أن الحسد يذهب حسناته ويتلفها عليه، بأن يحمله على أن يفعل بالمحسود من إتلاف مال وهتك عرض وغير ذلك ما يقتضي صرف تلك الحسنات بأسرها في صحيفته، وقال الطيبي : الأكل هنا استعارة لعدم القبول وأن حسناته مردودة عليه وليست بثابتة في ديوان عمله الصالح حتى تحبط والله أعلم.

قوله : (والصلاة نور المؤمن)، أي ثوابها يكون نورا للمصلي في ظلمة القبر أو على الصراط أو فيهما.

قوله : (جنة من النار) بضم الجيم، أي وقاية من نار جهنم، فلا يدخل صاحبه النار إلا تحلة القسم والله أعلم. والحديث قال الحافظ العراقي : سنده ضعيف وقال البخاري : لا يصح لكنه في تاريخ بغداد بسند حسن هـ.

وقال في الزوائد : الجملة الأولى رواها أبو داود في سننه في حديث أبي هريرة وإسناد حديث أنس بن مالك فيه عيسى بن أبي عيسى وهو ضعيف والله أعلم.

باب البغي

قوله : (أجدر) بسكون الجيم، أي أحق وأولى وأحرى.
قوله : (من البغي)، أي الظلم والإساءة إلى المخلوقات (وقطيعة الرحم) قال المناوي : لأن البغي من الكبر وقطيعة الرحم من الاقتطاع من الرحمة والرحم القرابة ولو غير محرم بنحو إيذاء أوصد أو هجر فإنه كبيرة كما يفيد هذا الوعيد الشديد، أما قطيعتها بترك الإحسان فليس بكبيرة وقال في الإتحاف : فيه تنبيه على أن البلاء بسبب القطيعة في الدنيا لا يدفع بلاء الآخرة ولو لم يكن إلا حرمان مرتبة الواصلين. والحديث رواه أيضا أحمد والبخاري في الأدب المفرد وأبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم وقال : صحيح. وأقره الذهبي ورواه عنه الطبراني أيضا، وزاد حتى أن أهل البيت ليكونوا فجرة فتنموا أموالهم ويكثر عددهم إذا تواصلوا.

قوله : (أسرع الخير ثوبا)، أي أعجل أنواع الطاعة إثابة من الله تعالى (البر) بالكسر الاتساع في الإحسان إلى خلق الله من كل آدمي وحيوان محترم.

قوله : (وأسرع الشر عقوبة البغي وقطيعة الرحم) قال المناوي : لأن فاعل ذلك لما افترى باقتحام ما تطابقت على النهي عنه الكتب السماوية والإشارات الحكيمة وقطع الوصل التي بها نظام العالم وصلاحه أسرع إليه الوبال في الدنيا مع ما ادخر له من العقاب في العقبى. والمراد بالسرعة هنا أنه تعالى يعجل ثواب ذلك وعقابه في الدنيا ولا يؤخره لآخره وذكر هنا البغي وقطيعة الرحم. وفي حديث آخر البغي واليمين الفاجرة، وفي آخر البغي وعقوق الوالدين،

فدل على عدم الانحصار في عدد، وإنما كان ﷺ يخاطب كل إنسان بما يليق بحاله وبما هو متلبس به، أو يريد العزم عليه، فلذلك اختلفت الأجوبة هـ.

والحديث رواه أيضا الترمذي وأبو يعلى، وفي إسناده صالح بن موسى الطلحي وتقدم أنه ضعيف.

قوله : (حسب امرئ من الشر لـخ)، أي يكفيه من الشر أن يحقر مسلما، أي لو كان الشر مطلوبا الكف منه هذا القدر، وفيه تعظيم وتكثير له.

قوله : (إن الله أوحى إلي أن تواضعوا)، تقدم الحديث قريبا والله أعلم.

باب الورع والتقوى

قوله : (عن عطية بن عروة السعدي) جد عروة بن محمد، مختلف في اسم جده، وربما قيل فيه عطية بن سعد صحابي نزل الشام له ثلاثة أحداث.

قوله : (لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس لـخ)، أي يترك فضول الحلال حذرا من الوقوع في الحرام. قال الغزالي: الاشتغال بفضول الحلال والانهماك فيه يجر إلى الحرام، ومحض العصيان لشربه النفس وطغيانها وتمرد الهوا وطغيانه، فمن أراد أن يأمن الضرر في دينه اجتنب الخطر فامتنع عن فضول الحلال حذرا أن يجره إلى محض الحرام. وقال الطيبي : المتقي من يدع ما لا بأس به حذرا مما به البأس، لأن المتقي لغة اسم فاعل من وقاه فاتقى والوقاية فرط الصيانة ومنه فرس واق أي يقي

حافره أن يصيبه أدنى شيء من بوله، وشرعا من يقي نفسه تعاطى ما يستوجب العقوبة من فعل أو ترك والتقوى مراتب الأولى التوقي عن العذاب المخلد بالتبري من الشرك قال الله تعالى : ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى.

والثانية : تجنب كل ما يؤثم من فعل أو ترك حتى الصغائر وهو المتعارف بالتقوى في الشرع، والمعنى بقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾.

الثالثة : التنزه عما يشغل سره عن ربه وهو التقوى الحقيقية المطلوبة بقوله : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾.

والمرتبة الثانية : هي المقصودة بالحديث ويجوز تنزيله على الثالثة أيضا هـ.

والحديث رواه أيضا الترمذي وقال : حسن غريب. قال في المنار: ولم يبين لم لا يصح، وذلك أنه من رواية أبي بكر بن النضر، وفيه عبد الله بن يزيد لا يعرف حاله هـ.

قوله : (تكن أعبد الناس)، أي من أعبدهم لما أنه يلزم من ترك المحارم فعل الفرائض، فباتقاء المحارم تبقى الصحيفة نقية من التبعات فالقليل من التطوع مع ذلك ينمو وتعظم بركته فيصير ذلك الورع المتقي من أكابر العباد (وكن قنعا تكن أشكر الناس). وفي رواية : وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، فإن من قنع استغنى ليس الغنى بكثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس، والقناعة غنى وعز بالله وضدها فقر وذلل للغير، ومن لم يقنع لم يشبع أبدا، ففي القناعة العز والغنا والحرية، وفي فقدها الذل والتعبد

للغير. وتقدم حديث : تعس عبد الدنيا تعس عبد الدينار. (وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا)، أي كامل الإيمان بأن تحب لهم حصول ما تحبه لنفسك من جهة لا يزاحمونك فيها فإن انتفت المحبة لنحو حقد أو غل أو حسد إنتفى عنه كمال الإيمان (وأحسن جوار من جاورك لخ)، أي بالقول والفعل والجار المجاور لك، ما قرب من منزلك عرفا، فإذا لم تقدر على الإحسان إليه فكف عن أذاه، وإن كان مؤذيا لك فيلزمك الصبر حتى يجعل الله لك فرجا، (وأقل الضحك لخ)، تقدم معناه قريبا.

قوله : (لا عقل كالتدبير)، أي لا عقل كعقل التدبير، أي كعقل يدبر في عواقب الأمور في المصالح من المفسد. (ولا ورع كالکف). قال المناوي : الورع في الأصل الكف، ويقال : ورع الرجل يرع بالكسر فيهما فهو ورع ثم استعير للكف عن المحارم فإن قيل : فعليه الورع هو الكف، فكيف يقال الورع بالكف ؟ قلنا : الكف إذا أطلق فهم منه كف الأذى، أو كف اللسان كما في خبر كف عليك هذا وأخذ بلسانه فكأنه قيل : لا ورع كالصمت أو كالکف عن أذى الناس هـ.

قوله : (ولا حسب كحسن الخلق)، أي لا مكارم مكتسبة كحسن الخلق مع الخلق، فالأول عام، والثاني خاص. وأخرج في الشعب عن علي كرم الله وجهه : التوفيق خير قائد وحسن الخلق خير قرين، والعقل خير صاحب والأدب خير ميراث، ولا وحشة أشد من العجب قالوا : وذا من جوامع الكلم. والحديث رواه أيضا ابن حبان والبيهقي في الشعب، ورمز الحافظ السيوطي في الجامع الصغير لحسنه والله أعلم.

قوله : (قال ومن يتق الله يجعل له مخرجا لخ)، قال بعضهم : ولا شك في كفاية العمل بها في الآخرة لقوله تعالى : ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، آية : ولقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ وإطلاقه يشمل المخرج من مضايق الدنيا والآخرة وكذا لا شك في كفاية العمل بها في الدنيا لما ذكرنا من أن إطلاق المخرج يشملهما، ولقوله تعالى : ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾. والحديث رجاله ثقات غير أنه منقطع وأبو السليل لم يدرك أبا ذر، قاله في التهذيب والله أعلم.

باب الثناء الحسن

قوله : (بالنباوة والبناءوة). قال السيوطي : هو معروف بالطائف.

قوله : (قال بالثناء الحسن والثناء السيء)، أي فمن أثنتم عليه ثناء جميلا فهو من أهل الجنة قيل هو مخصوص بالصحابة وقيل: فمن كان على صفتهم في الإيمان وقيل : هذا إذا كان الثناء مطابقا لأفعاله. وقال النووي : الصحيح أنه على عموميه وإطلاقه، فكل مسلم مات فآلهم الله الناس، أو معظمهم الثناء عليه كان ذلك دليلا على أنه من أهل الجنة سواء كانت أفعاله تقتضي ذلك أو لا. إذ العقوبة غير واجبة فإلهام الله الناس الثناء عليه دليل أنه يشاء المغفرة له. والحديث قال في الزوائد : إسناده صحيح ورجاله ثقات وليس لزهير هذا عند ابن ماجة سوى هذا الحديث، وليس له شيء في بقية الكتب الستة هـ.

قوله : (إذا قال جيرانك لخ)، أي الذين علموا بعملك. والحديث رجال إسناده ثقات، إلا أنه مرسل وكلثوم بن علقمة ويقال ابن المصطلق. ذكره ابن حبان في الثقات وقال ابن عبد البر : أحاديثه مرسلة، لا يصح له صحبة وكذا قال أبو نعيم وردوا الصحبة لأبيه والله أعلم.

قوله : (إذا سمعت جيرانك لخ)، إسناده صحيح ورجاله ثقات، ورواه ابن حبان في صحيحه من طريق عبد الرزاق به والله أعلم.

قوله : (أهل الجنة من ملأ الله أذنيه من ثناء الناس لخ)، قال المناوي في البحر، يحتمل أن معناه من ملأ أذنيه من ثناء الناس خيرا عمله، ومن ملأ من ثناء الناس شرا عمله، فكأنه قال أهل الجنة من لا يزال يعمل الخير حتى ينتشر عنه، فيثنى عليه بذلك، وفي الشر كذلك، ومعنى قوله : أهل الجنة، أي الذين يدخلونها ولا يدخلون النار، ومعنى أهل النار، أي الذين استحقوها لسوء أعمالهم سموا بدخولها أهل النار، لكنهم سيدخلون الجنة إذا صحبهم إيمان ويكون أهل النار بمعنى الذين استحقوها بعظائم وأفعال السوء ثم يخرجون بشفاعته ويجوز أن يرحم منهم من يشاء، ولا يعذبه. والحديث فيه أبو الجوزاء هو أويس بن عبد الله الربيعي قال الذهبي قال البخاري فيه نظر هـ.

قوله : (فيحبه الناس عليه)، أي لأجله، (قال ذلك عاجل بشرى المؤمن)، أي وهي دليل البشرى المؤخرة في الآخرة بقوله تعالى : ﴿بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾، قال عياض : وجعلت بشرى من حيث أن ذلك عنوان الخير ودليل رضى الله سبحانه عنه وحبه له، بدليل قوله في الحديث المتقدم ثم يوضع له القبول في الأرض هـ.

قوله : (فيطلع عليه) على البناء المفعول (فيعجبني)، أي اطلاع الناس عليه رجاء أن يرغب أحد فيه (قال لك أجران أجر السر وأجر العلانية) قال الترمذي في الجامع : قد فسر أهل العلم هذا الحديث إذا اطلع عليه فأعجبه، إنما معناه أن يعجبه ثناء الناس عليه بالخير لقول النبي ﷺ: أنتم شهداء الله في الأرض فيعجبه ثناء الناس عليه لهذا، فأما إذا أعجبه ليعلم الناس منه الخير ويكرم ويعظم على ذلك فهذا رياء. وقال بعض أهل العلم: إذا طلع عليه فأعجبه رجاء أن يعمل بعمله فتكون له مثل أجورهم فهذا له مذهب أيضا هـ. منه بلفظه.

باب النية

قوله : (إنما الأعمال) قال العلامة الشوكاني في نيل الأوطار ما نصه هذا التركيب يفيد الحصر من جهتين : الأولى إنما، فإنها من صيغ الحصر، واختلف هل تفيده بالمنطوق أو بالمفهوم أو بالوضع أو العرف وبالحقيقة أم بالمجاز ؟ ومذهب المحققين أنها تفيده بالمنطوق وضعا حقيقيا. قال الحافظ : ونقله شيخنا شيخ الإسلام عن جميع أهل الأصول من المذاهب الأربعة إلا اليسير، وعلى العكس من ذلك أهل العربية، وموضع البحث عن بقية أبحاث إنما الأصول وعلم المعاني فليرجع إليهما. الجهة الثانية : الأعمال، لأنه جمع محلى باللام المفيد للاستغراق وهو مستلزم للقصر، لأن معناه كل عمل بنية فلا عمل إلا بنية، وهذا التركيب من المقتضى المعروف في الأصول، وهو ما احتمل أحد تقديرات لاستقامة الكلام ولا عموم له عند المحققين فلا بد من دليل في تعيين أحدهما. وقد اختلف الفقهاء في تقديره ها هنا، فمن جعل النية شرطا قدر صحة الأعمال ومن لم

يشترط قدر كمال الأعمال. قال ابن دقيق العيد وقد رجع الأول بأن الصحة أكثر لزوما للحقيقة، فالحمل عليها أولى لأن ما كان ألزم للشيء كان أقرب إلى خطوره بالبال هـ.

قال الحافظ : وقد اتفق العلماء على أن النية شرط في المقاصد واختلفوا في الوسائل، ومن تم خالفت الحنفية في اشتراطها للوضوء.

قوله : (بالنيات)، جمع نية والباء للمصاحبة ويحتمل أن تكون للسببية بمعنى أنها مقومة للعمل، فكأنها سبب في إيجاده. قال النووي : والنية القصد وهو عزيمة القلب. وتعبه الكرمانى : بأن عزيمة القلب قدر زائد على أصل القصد. وقال البيضاوي : النية عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقا لغرض من جلب نفع أو دفع ضرر حالا أو مآلا، والشرع خصصه بالإرادة المتوجهة نحو الفعل لابتغاء رضاء الله وامتثال حكمه والنية في الحديث محمولة على المعنى اللغوي ليصح تطبيقه على ما بعده، وتقسيمه أحوال المهاجر فإنه تفصيل لما أجمل والجار والمجرور متعلق بمحذوف هو ذلك المقدر، أعني الكمال أو الصحة أو الحصول أو الاستقرار. قال الطيبي : كلام الشارع محمول على بيان الشرع لأن المخاطبين بذلك هم أهل اللسان فكأنهم خوطبوا بما ليس لهم به علم إلا من قبل الشارع فيتعين الحمل على ما يفيد الحكم الشرعي هـ.

﴿وإنما لكل امرئ ما نوى﴾، فيه تحقيق لاشتراط النية والإخلاص في الأعمال قال القرطبي، فيكون على هذا جملة مؤكدة للتي قبلها وقال غيره : بل تفيد غير ما أفادته الأولى، لأن الأولى نبهت على أن العمل يتبع النية ويصاحبها فيترتب الحكم على ذلك. والثانية أفادت أن العامل لا يحصل له إلا ما نواه. قال ابن دقيق :

العيد، والجملة الثانية أن من نوى شيئاً يحصل له وكل ما لم ينوّه لم يحصل فيدخل في ذلك ما لا ينحصر من المسائل. قال : ومن هنا عظموا هذا الحديث إلى آخر كلامه، ويدل على صحة كلامه أحاديث كثيرة واردة بثبوت الأجر لمن نوى خيراً ولم يعمله، كحديث رجل أتاه الله مالا وعلماً وسيأتى بعد هذا للمؤلف. قال الحافظ إنه يحصل إذا عمله بشرائطه أو حال دون عمله له ما يعذر شرعاً بعدم عمله. والمراد بعدم الحصول إذا لم تقع النية لا خصوصاً ولا عموماً، أما إذا لم ينو شيئاً مخصوصاً لكن كانت هناك نية تشملها فهذا ما اختلف فيه أنظار العلماء ويتخرج عليه من المسائل ما لا يحصى هـ.

﴿فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله﴾ الهجرة الترك والهجرة إلى الشيء الانتقال إليه عن غيره، وفي الشرع : ما نهى الله عنه. وقد وقعت في الإسلام على وجوه الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة وهجرة القبائل وهجرة من أسلم من أهل مكة وهجرة من كان مقيماً بدار الكفر والهجرة إلى الشام في آخر الزمان عند ظهور الفتن. وأخرج أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ستكون هجرة بعد هجرة فخير أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم ويبقى في الأرض شرار أهلها، ورواه أيضاً أحمد في المسند.

قوله : (فهجرته إلى الله ورسوله)، وقع الاتحاد بين الشرط والجزاء وتغايرهما لابد منه وإلا لم يكن كلاماً مفيداً. وأجيب : بأن التقدير فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله نية وقصداً، فهجرته إلى الله ورسوله حكماً وشرعاً، فلا اتحاد وقيل : يجوز الاتحاد في الشرط والجزاء والمبتدأ والخبر لقصد التعظيم أو التحقير كأنت أنت،

أي العظيم أو الحقير ومنه قول أبي النجم : وشعري شعري، أي العظيم وقيل : الخبر محذوف في الجملة الأولى منهما، أي هجرته إلى الله ورسوله محمود أو مثاب عليها، وفي هجرته إلى الله ورسوله محمود أو مثاب عليها، وفي هجرته إلى ما هاجر إليه مذمومة أو قبيحة أو غير مقبولة.

قوله : (لدينا يصيبها)، بضم الدال. وحكى ابن قتيبة : كسرهما وهي فعل من الدنو أي القرب سميت بذلك لسبقها للأخرى وقيل : لدنوها إلى الزوال. واختلف في حقيقتها فقيل : ما على الأرض من الهواء والجو وقيل : كل المخلوقات من الجواهر والأعراض وإطلاق الدنيا على بعضها، كما في الحديث مجازا (أو امرأة يتزوجها) إنما خص المرأة بالذكر بعد ذكر ما يعمها، وغيرها للإهتمام بها وتعقبه النووي بأن لفظ دنيا نكرة وهي لا تعم في الإثبات، فلا يلزم دخول المرأة فيها، وتعقب بأنها نكرة في سياق الشرط فتعم ونكتة الإهتمام الزيادة في التحذير، لأن الإفتتان بها أشد. وحكى ابن بطال عن أبي سراج : أن السبب في تخصيص المرأة بالذكر أن العرب كانوا لا يزوجون المولى للعربية ويراعون الكفاءة في النسب، فلما جاء الإسلام سوى بين المسلمين في مناكحهم، فهاجر كثير من الناس إلى المدينة ليتزوج بها من كان لا يصل إليها وتعقبه ابن حجر بأنه يفتقر إلى نقل أن هذا المهاجر كان مولى، وكانت المرأة عربية، ومنع أن يكون عادة العرب ذلك ومنع أيضا أن الإسلام أبطل الكفاءة ولو قيل : إن تخصيص المرأة بالذكر لأن السبب في الحديث مهاجر أم قيس، فذكرت المرأة بعد ذكر ما يشملها لما كانت هجرة ذلك المهاجر لأجلها لم يكن بعيدا من الصواب وهذه نكتة سرية. والحديث يدل على اشتراط النية في أعمال الطاعات وإن ما وقع من الأعمال

بدونها غير معتد به، وفي الحديث فوائد مبسوبة في المطولات، ولا يتسع لها المقام وهي على انفراده حقيق بأن يفرد ذلك مصنف مستقل وهو قاعدة من قواعد الإسلام حتى قيل : إنه ثلث العلم ووجهه أن كسب العبد بقلبه وجوارحه ولسانه وعمل القلب أرجحها، لأنه يكون عبادة بانفراد دون الآخرين والله علم.

قوله : (عن أبي كبشة) اسمه سعيد بن عمرو أو عمرو بن سعيد وقيل عامر بن سعيد صحابي نزل الشام. (الأنمار) بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الميم وآخره نسبة إلى أنمار.

قوله : (رجل أتاه الله مالا)، أي من حل (وعلما)، أي من العلوم الشرعية النافعة في الدين.

قوله : (ولم يوته مالا)، أي يتصدق منه وينفق منه في وجوه القرب.

قوله : (فهما في الأجر سواء)، أي فأجر علم هذا أو مال هذا سواء في المقدار، أو فأجر عقد عزمه على أنه لو كان له من المال ما ينفق منه في الخير، وأجر من له مال ينفق منه سواء لأنه لو كان يملكه لفعل، وعلى هذا فيكون أجر العلم زيادة له.

قوله : (ورجل أتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو يخبط) كيضرب، أي يجري فيه من غير هدى ويصرفه في الباطل.

قوله : (فهو يقول)، أي بنية صادقة وعزيمة قوية.

قوله : (فهما في الوزر)، أي في أصله أي في أن كلا منهما صاحب إثم سواء. والحديث رواه أيضا أحمد والترمذي ولفظهما : ثلاث أقسم عليهم، ما نقص مال عبد من صدقة ولا ظلم عبد مظلما صبر عليها، إلا زاده الله عز وجل عزاء، ولا فتح عبد باب

مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر. وأحدثكم حديثاً فأحفظوه إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالا وعلماً فهو يتقى فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقا، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالا فهو صادق النية يقول : لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علماً يخبط في ماله بغير علم لا يتقى فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقا، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علماً فهو يقول : لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء هـ.

قوله : (إنما يبعث الناس على نياتهم)، في إسناده ليث بن سليم وتقدم أنه ضعيف، لكن يشهد له حديث جابر الذي ذكر بعده، وقد رواه مسلم في صحيحه والله أعلم.

باب الأمل والأجل

قوله : (خط خطأ مربعاً)، أي مستوي الزوايا.
قوله : (وخطوطاً إلى جانب لـ). وفي رواية البخاري : وخط خططا صغارا، إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط. قال القسطلاني : وصورته التي يتنزل سياق لفظ الحديث عليها هكذا.

وقيل هكذا

الإنسان

وقيل هكذا

قوله : (قال هذا الإنسان) مبتدأ وخبر، أي هذا الخط هو الإنسان على سبيل التمثيل (وهذه الخطوط)، أي الشطبات التي في الخط الخارج من وسط المربع من أسفله أو من أسفله وأعلاه (الأعراض) بالعين المهملة والضاد المعجمة، أي الآفات العارضة له كمرض أو فقد مال أو ولد أو غير ذلك. والمراد بالخطوط المثال لا عدد معين، (تنهشه أو تنهسه) أحدهما بالشين المعجمة والثاني بالمهمل، ومعناها قريب لا واحد وهو الأخذ بالأسنان، والمقصود من الحديث التعجب من حال الإنسان وأنه لا يفوت الأجل لكونه محيطاً به من الجوانب كلها وأنه معروض للأعراض قبل ذلك ومع ذلك يؤمل أملاً قد جاوز أجله والله أعلم.

قوله : (قلب الشيخ شاب في حب اثنين)، أي حريص قوي في حبهما، (في حب الحياة وكثرة المال). قيل : حكمة تخصيص هذين أن أحب الأشياء إلى ابن آدم نفسه فهو راغب في بقائها، فأحب لذلك طول العمر وأحب المال، لأنه أعظم في دوام الصحة التي ينشأ عنها غالباً طول العمر، فلما أحس بقرب نفاذ ذلك اشتد حبه له ورغبته في دوامه والله أعلم.

قوله : (يهرم) كيفرح، أي يكبر (ابن آدم ويشيب) من باب ضرب (منه اثنتان). وفي رواية للصحيحين وغيرهما : ويبقى معه اثنتان : (الحرص على المال والحرص على العمر). قال المناوي : وإنما لم تذهب، هاتين الخصلتان، لأن المرء جبل على حب الشهوات. قال تعالى : ﴿زِينٌ لِلنَّاسِ﴾ الآية، وإنما تنال هي بالمال والعمر، والنفس معدن الشهوات وأمانيتها لا تنقطع فهي أبداً فقيرة لتراكم الشهوات عليها والله أعلم هـ.

قوله : (لأحب أن يكون معها ثالث)، أي وهكذا إلى ما لا نهاية له (ولا يملأ نفسه)، وفي رواية : ولا يملأ جوف ابن آدم. وفي رواية: ولا يسد جوف وفي أخرى : ولا يملأ عين وفي أخرى : ولا يملأ فاه وفي أخرى : ولا يملأ بطنه (إلا التراب)، أي لا يزال حريصا على الدنيا حتى يموت ويمتلئ جوفه من تراب قبره، وليس المراد عضوا بعينه، والغرض من العبارات كلها واحد وهو من التفنن في العبارة ذكره الكرمانى، (ويتوب الله على من تاب) أي يقبل التوبة من الحرص المذموم ومن غيره وقيل : تاب بمعنى وفق يقال : تاب الله عليه، أي وفقه يعني جبل الآدمي على حب الحرص إلا من وفق الله وعصمه، فوقع يتوب موضع إلا من عصمه الله، إشعار بأن هذه الجبله مذمومة جارية مجرى الذنب، وأن إزالتها ممكنة بالتوفيق والله أعلم.

قوله : (أعمار أمتي)، أي أعمار المعمر منهم غالبا (ما بين الستين إلى السبعين)، أي ما بين الستين والسبعين وإنما عبر بإلى التي للانتهاء ولم يقل والسبعين الذي هو حق التعبير ليبين أنها لا تدخل إلا على متعدد، لأن التقدير ما بين الستين وفوقها إلى السبعين، فألى غاية الفوقية لدلالة الكلام عليه. وقال بعضهم : معناه آخر عمر أمتي ابتداءه إذا بلغ ستين وانتهاءه سبعين (وأقلهم من يجوز ذلك). قال المناوي قال لطيبى : هذا محمول على الغالب بدليل شهادة الحال، فإن منهم من لم يبلغ ستين وهذا من رحمة الله لهذه الأمة ورفقه بهم أخرهم في الاصلاح حتى أخرجهم إلى الأرحام بعد نفاذ الدنيا ثم قصر أعمارهم ليلا يلتبسوا بالدنيا إلا قليلا، فإن القرون السالفة كانت أعمارهم وأبدانهم وأرزاقهم أضعاف ذلك، كان أحدهم يعمر ألف سنة وطوله ثمانون ذراعا

وأكثر وأقل فكانوا يتناولون الدنيا بمثل تلك الأجساد، وفي تلك الأعمار فبطروا واستكبروا وأعرضوا عن الله فصب عليهم ربك سوط عذاب، فلم يزل الخلق ينقصون خلقا ورزقا وأجلا إلى أن صارت هذه الأمة آخر الأمم يأخذون أرزاقا قليلة بأبدان ضعيفة في مدة قصيرة كيلا يبطرون، فذلك رحمة بهم هـ.

والحديث رواه أيضا الترمذي وابن حبان والحاكم قال في الفتح سنده حسن هـ.

باب المداومة على العمل

قوله : (حتى كان أكثر صلاته)، أي نافلته لقول أم سلمة : إلا المكتوبة (وهو جالس)، أي حتى أكثر نافلته حال جلوسه فكان تامة قاله ابان حجر. وفي مسلم عن عائشة قالت لما بدن رسول الله ﷺ وثقل كان أكثر صلاته جالسا. ومعنى بدن أسن. وقد ورد أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم فحمله ابن الماجشون على المتنفل من جلوس لغير عذر وأما للعذر فأجره غير ناقص، لكن في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال حدثت أن رسول الله ﷺ قال : صلاة الرجل قاعدا نصف الصلاة قال : فأتيته فوجدته يصلي جالسا فوضعت يدي على رأسه فقال : ما لك يا عبد الله؟ قلت : حدثت يارسول الله أنك قلت صلاة الرجل قاعدا نصف الصلاة، وأنت تصلي قاعدا قال : أجل ولكنني لست كأحد منكم. فقال عياض في شرحه : يعني لست كأحدكم في السلامة من العذر، لأنه إنما فعله للمشقة التي لحقته في آخر عمره من كبر سنه،

ويحتمل لست كأحدكم في الحكم بل أجري قاعدا كأجري قائما،
ويكون هذا من خصائصه ﷺ هـ.

قوله : (وكان أحب الأعمال إليه العمل الصالح الذي يدوم عليه العبد لخ) وفي الآخر : وكان أحب الدين إليه الذي يدوم عليه صاحبه، وإن قال أي ذلك العمل الدوام عليه يعني ما واطب عليه مواظبة عرفية وإلا فحقيقة الدوام شمول جميع الأزمنة، وذلك غير مقدور وإنما كان أحب إليه، لأن الدوام يدوم له الإمداد والإسعاد من حضرة الكريم الجواد، وتارك العمل بعد الشروع كالمرعوض بعد الوصول وبدوام القليل تستمر الطاعة والإقبال على الله بخلاف الكثير المشاق والله أعلم.

قوله : (مه) أي اسكتي عن مدحها (عليكم بما تطيقون)، أي الزموا ما تطيقون الدوام عليه بلا ضرر ولا تحملوا أنفسكم أورادا كثيرة لا تقدر على أدائها، فمنطوقه يقتضي الأمر بالاعتصار على ما يطاق من العبادة ومفهومه يقتضي النهي عن تكلف ما لا يطاق (فوالله) وفي رواية : فإن الله (لا يمل) بمثناة تحتية وميم مفتوحتين، أي لا يقطع الثواب عنكم (حتى تملوا) بفتح أوليه أي تتركوا عبادته، فإن من مل شيئا تركه وأتى بهذا اللفظ للمشكلة كقوله وجزاء سيئة سيئة، وأفاد أفضلية المداومة على الطاعة وإن قلت وشفقته على أمته ورأفته بهم وكارهة التشديد في العبادة، وأصل الملل استئقال الشيء ونفور النفس عنه بعد محبته وهو محال عليه تعالى فأول بما مر. قال البيضاوي : الملل فتور يعرض للنفس من كثرة مزاوله شيء فيورث الكلال في الفعل والإعراض عنه وأمثال ذلك إنما يصدق في حق من يعتريه التغيير والانكسار، أما من تنزه عنه فيستحيل تصوره في حقه، فإذا أسند إليه أول بما هو

منتهاه وغاية معناه كإسناد الرحمة والغضب والحياء والضحك إليه تعالى والله أعلم هـ.

قوله : (عن حنظلة الأسدي المازري) هو بسكون الياء قبيلة من تميم ومن رواه الأسدي فقد أخطأ، قال النووي ضبطوه بوجهين أصحهما وأشهرهما ضم الهمزة وفتح السين وكسر الياء المشددة والثاني كذلك إلا أنه بإسكان الياء، ولم يذكر القاضي إلا الثاني وهو منسوب إلى بني أسيد بطن من تميم.

قوله : (كانا رأي العين) ضبط بالرفع أي كانا بحال من يراها بعينه ويصح النصب على المصدر، أي نراها رأي عين، (فقمت إلى أهلي لخ). وفي رواية مسلم : فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا. بالعين المهملة والفاء والسين المهملة ومعناه : عالجنا وحاولنا الأزواج والأولاد والضيعات، أي إذا خرجوا من عنده اشتغلوا بهذه الأمور وتركوا تلك الحالة الشريفة التي كانوا عليها.

قوله : (نافقت نافقت) وفي رواية مسلم نافق حنظلة قال القرطبي : إنكار منه على نفسه لما وجد منها في خلوتها خلاف ما يظهر منه بحضرته ﷺ خوف أن يكون ذلك من أنواع النفاق، وأراد من نفسه أن يستديم تلك الحالة التي يجدها عند موعظته ولا يشتغل عنها بشيء هـ.

قوله : (فقال يا حنظلة لو كنتم لخ). وفي رواية مسلم : والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونوا عندي وفي الذكر لصافحتكم لخ. قال القرطبي : يفيد أنه وقف مصافحة الملائكة عليهم السلام على أمرين هما : رؤية الجنة والنار ودوام الذكر، فإذا شاهد الجنة لم يحجبه ما شاهد من نعيمها وحسنها عن رؤية الله تعالى، بل لا يلتفت إليها من حيث كونها جنة، بل من حيث أنها محل القرب من

الله تعالى ومحل رؤيته، ومن كان كذلك ناسب الملائكة عليهم السلام في معرفتها، فبادرت إلى إكرامه ومصافحته ومهابته وإعظامه هـ.

قوله : (يا حنظلة). وفي رواية مسلم : ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات. قال القرطبي : سنة الله في عالم الإنسان أن فعله متوسط بين عالم الملائكة وعالم الشياطين، فمكن الثلاثة في الخير بحيث يفعلون ما يؤمرون ويسبحون الليل والنهار لا يفترون، ومكن الشياطين في الشر والإغواء بحيث لا يغفلون وجعل عالم الإنسان متلونا، وإليه أشار صاحب الشرع عليه السلام، ولكن يا حنظلة ساعة ساعة هـ.

وقال بعض شراح مسلم : يعني قال عليه السلام تكونون ساعة في الحضور، وفي الذكر ساعة، وفي المعافسة ثلاث مرات تأكيداً لتأثير القول حتى يزيل بذلك عن حنظلة رضي الله عنه ما اتهم به نفسه من النفاق هـ.

وفي حديث أبي داود وغيره عن أنس مرفوعا : روحوا القلوب ساعة ساعة، أي أريحوها بعض الأوقات من مكيدة العبادات بمباح لا عقاب فيه ولا ثواب قال أبو الدرداء : إني لأجم فؤادي ببعض الباطل، أي اللهو لأنشط للحق، وذكر عند المصطفى عليه السلام القرآن والشعر، فجاء أبو بكر فقال : أقرأه وشعر ؟ فقال : نعم ساعة هذا وساعة ذلك. وقال علي رضي الله عنه : أجموا هذه القلوب، فإنها تمل كما تمل الأبدان، أي تكل والله أعلم.

قوله : (اكلفوا) بفتح اللام من كلف بكسر اللام أي تحملوا من العمل ما تطيقون المداولة والثبات عليه، والحديث في إسناده ابن لهيعة وتقدم أنه ضعيف.

قوله : (مليا)، أي زمانا طويلا.
قوله : (عليكم بالقصد) هو الوسط المعتدل الذي لا يميل إلى أحد طرفي التفريط والإفراط والله أعلم.

باب ذكر الذنوب

قوله : (من أحسن في الإسلام)، أي بالإخلاص فيه أو بالدخول فيه بالظاهر والباطن أو بالتمادي على محافظته والقيام بشرائطه والانقياد لأحكامه بقلبه وقالبه أو بثبوتيه عليه إلى الموت (لم يؤاخذ بما كان في الجاهلية)، أي ما عمل في زمن الفترة قبل البعثة من جناية على نفس أو مال ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ (ومن أساء)، أي في الإسلام، أي بعدم الإخلاص أو في عقده بترك التوحيد (ومات على ذلك)، أو بعد الدخول فيه بالقلب والانقياد ظاهرا وهو النفاق (أخذ بالأول)، أي الذي عمله في الجاهلية (والآخر) بكسر الخاء أي الذي عمله في الكفر، فالمراد بالإساءة الكفر وهو غاية الإساءة، فإذا ارتد ومات مرتدا كان كمن لم يسلم، فيعاقب على كل ما تقدم والله أعلم.

قوله : (إياك ومحقرات الأعمال)، أي ما لا يبالي المرء بها من الذنوب، (فإن لها من الله طالبا)، أي مكلفا فرض عليه أن يكتبها فهي عند الله عزيمة، حيث خص لأجلها ملكا.

قوله : (إن المؤمن) وفي رواية : إن العبد إذا أذنب. وفي رواية : إذا أخطأ خطيئة (كانت نكتة). وفي رواية : نكتت نكتة، أي أثر قليل كنقطة سوداء (في قلبه)، أي لأن القلب كالقرف يقبض منه بكل ذنب أصبع ثم يطبع عليه، وأصل النكتة نقطة بياض في سواد وعكسه.

قال بعضهم : وفي إشعاره إعلام بأن الجزاء لا يتأخر عن الذنب، وإنما يخفى لوقوعه في الباطن وتأخره عن معرفة ظهوره في الظاهر، (فإن تاب ونزع واستغفر) نص على النزع، أي الإقلاع والإستغفار مع دخولهما في مسمى التوبة، إذ هما من أركانها اهتماما بشأنها. (صقل). وفي نسخة سقل بسين مهملة، أي رفع الله تلك النكتة فينجلي (قلبه) بنور كشمس خرجت عن كسوفها (فإن زاد زادت). وفي رواية : وإن عاد أي إلى ذلك الذنب أو غيره زيد بالبناء للمفعول فيها، أي نكتة أخرى وهكذا حتى تعلو على قلبه، أي تغطيه وتغمره وتستتر سائره كمرآة علاها الصدا فستر سائرها وتصير كمنخل وغربال، لا يعي خيرا ولا يثبت فيه خير، ومن ثم قال بعض السلف : المعاصي بريد الكفر أي رسوله باعتبار أنها إذا أورثت القلب هذا السواد وعمته يصير لا يقبل خيرا قط فيقسو ويخرج منه كل رافة ورحمة وخوف فيرتكب ما شاء ويفعل ما أراد، ويتخذ الشيطان وليا من دون الله فيضله ويغويه ويعدده ويمنيه، ولا يقنع منه بدون الكفر ما وجد إليه سبيلا، ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا.

قوله : (فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه كلا بل ران لخ)، أصل الران الغلبة، ومعنى الآية أن الذنوب والمعاصي غلبت على قوم وأحاطت بقلوبهم وقيل : هو الذنب على الذنب حتى يموت القلب. وقال ابن عباس : وران على قلوبهم طبع عليها وقيل : الران أن يسود القلب من الذنوب والطبع أن يطبع الله على القلب وهو أشد من الران، والإقفال أشد من الطبع وقيل الرين التغطية. والمعنى أنه يغشى القلب شيء كالصدا فيغطيه، فعند ذلك يموت والله أعلم. قال الغزالي : القلب كالمرآة، ومنه الآثار المذمومة كدخان مظلم يتصاعد

إلى مرآة القلب، فلا يزال يتراكم عليه مرة بعد أخرى حتى يسود ويظلم ويصير محجوبا عن الله وهو الطبع والرین ومهما تراکمت الذنوب طبع على القلب، وعند ذلك يعمى عن إدراك الحق وصلاح الدين ويستتهين بالآخرة ويستعظم أمر الدنيا ويهتم بها، وإذا قرع سمعه أمر الآخرة وأخطارها دخل من أذن وخرج من أخرى، ولم يستقر في القلب ولم يحركه إلى التوبة أولئك يئسوا من الآخرة، كما يئس الكفار من أصحاب القبور هـ.

قال المناوي : قيل لحكيم لم لا تعظ فلانا ؟ قال : ذاك على قلبه، قفل ضاع مفتاحه فلا سبيل لمعالجة فتحه هـ.

والحديث رواه أيضا أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم والبيهقي وصححه الترمذي وقال الذهبي : إسناده صالح. والله أعلم.

قوله : (جلهم لنا) بالجيـم من التجلية، أي اكشف حالهم لنا.

قوله : (ومن جلدتكم)، بكسر الجيم أي من جنسكم.

قوله : (ويأخذون من الليل)، أي يأخذون من عبادة الليل نصيبا. والحديث قال في الزوائد : إسناده صحيح، رجاله ثقات، وأبو عامر الالهاني إسمه عبد الله بن غابر هـ.

قوله : (ما أكثر ما يدخل الجنة لخ)، رواه أيضا الترمذي وابن حبان في صحيحه والبيهقي في الزهد وغيره، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب هـ.

باب ذكر التوبة

قوله : (إن الله أفرح بتوبة أحدكم لخ)، المراد بالفرح الرضا، والمعنى أن الله سبحانه يرضى توبة العبد أشد مما يرضى الواجد

لناقته في الفلاة، فعبر عن الرضا بالفرح تأكيدا لمعنى الرضى في نفس السامع قاله المازري. قال النووي : وذهب بعض مشايخنا إلى أن التوبة الإقلاع والندم والعزم على أن لا يعود وإن كان الذنب حقا لأدمي، أضيف إلى ذلك ركن رابع وهو رد الحق إلى ربه والتحليل منه، وهي واجبة من الصغائر والكبائر، ودليل وجوبها عنده الشرع لا العقل خلافا للمعتزلة، المازري : وجوبها على الفور وقد يغلط بعض المذنبين فيدوم على الإصرار خوف أن يتوب وينقض وهذا جهل إذ لا يترك واجب على الفور خوف أن يقع بعده ما ينقضه، وهي من الكفر مقطوع بقبولها، وأختلف فيها من المعاصي فقليل : كذلك وقيل : لا تنتهي إلى القطع لأن الظواهر التي جاءت بقبولها ليست بنص، وإنما هي عمومات معروضات للتأويل عياض. واختلف هل من شرطها أن يجدها كلما ذكر الذنب ؟ هـ.

قال الأبى : أوجب القاضى وخالفه إمام الحرمين وقيل عند ذكر الذنب أن لا يبتهج ولا يفرح ولا يتلذذ عند ذكره المازري : وتصح عندنا من بعض الذنوب دون بعض وقالت المعتزلة : لا تصح هـ.

قوله : (لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء، ثم تبتم لتاب الله عليكم) قال المناوي : لأن نار الندم تحرق جميع الخطايا ونور الخشية يحرق عن القلب ظلمة السيئة ولا طاقة لظلام الخطايا بنور الحسنات، كما لا طاقة لكدر الوسخ ببياض الصابون هـ.

والحديث قال المنذري : إسناده جيد. وقال الحافظ العراقي في إسناده حسن وتبعه الحافظ السيوطي في الجامع فرمز لحسنه، ورواه أحمد وأبو يعلى عن أنس يرفعه، وزاد في رواية في أوله القسم فقال : والذي نفس محمد بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما

بين السماء والأرض، ثم استغفرتم لغفر لكم. قال الهيثمي : رجاله ثقات هـ.

قوله : (لله) بفتح اللام مبتدأ خبره أفرح.

قوله : (بفلاة) بفتح الفاء أي بمفازة (حتى إذا اعيأ)، أي جعله الإلتماس عاجزا (تسجى)، أي تغطى بثوبه ليموت مكانه، (فبينما هو كذلك إذ سمع وجبة الراحلة)، أي صوت وضع قدمها على الأرض. والحديث في إسناده عطية العوفي وسفيان بن وكيع وتقدم أنهما ضعيفان، وأصل الحديث أخرجه الشيخان من حديث ابن مسعود وأنس، ولفظه عند مسلم : لله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دوية، أي قفراء خالية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنام فاستيقظ، وقد ذهب فطلبها حتى أدركه العطش ثم قال : أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ وعنده راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه فآله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده. زاد في رواية ثم قال : من شدة الفرح اللهم أنت عبيدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح. قال عياض : فيه أن ما قيل من مثل هذا الدهش أو ذهول غير مؤاخذ به وكذلك حكايته عنه على طريق علم وفائدة شرعية لا على وجه المحاكاة والهزء كحكايته عليه السلام ذلك ولو كان منكرا لم يحكه هـ.

قوله : (التائب من الذنب كمن لا ذنب له) قال المناوي : لأن العبد إذا استقام ضعفت نفسه وانكسر هواه وتغيرت أحواله وساوى الذي قبله فمن لا صبوة له. قال الطيبي : هذا من قبيل إلحاق الناقص بالكامل مبالغة كما تقول زيد كالأسد، ولا يكون المشرك التائب معادلا بالنبي المعصوم هـ.

والحديث قال في المقاصد الحسنة رواه ابن ماجة والطبرانى في الكبير والبيهقى في الشعب من طريق أبي عبيد بن عبد الله بن مسعود عن أبيه رفعه ورجاله ثقات، بل حسنه شيخنا يعني لشواهده، وإلا فأبو عبيدة جزم غير واحد بأنه لم يسمع من أبيه هـ.

زاد في رواية لابن النجار في التاريخ عن أنس وحسنه السيوطي: وإذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب قال حجة الإسلام: معناه إذا أحبه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت، كما لا يضره الكفر الماضي بعد الإسلام هـ.

قوله: (كل بني آدم خطاء)، يشد الطاء والتنوين يقال: رجل خطاء إذا كان ملازما للخطأ وهو من أبنية المبالغة. قال الطيبي: إن أريد بلفظ كل الكل من حيث هو كل فهو تغليب، لأن الأنبياء ليسوا بمبالغين في الخطأ، وإن أريد الإستغراق، وأن كل واحد خطاء لم يستقم إلا على التوزيع كما يقال هو ظلام للعبيد، أي يظلم كل واحد واحد، فهو ظالم بالنسبة إلى كل أحد ظلام بالنسبة إلى المجموع، وإذا قلت: هو ظلام لعبده كان مبالغا في الظلم هـ.

(وخير الخطائين التوابون): قال المناوي: يعني أن العبد لابد أن يجرى عليه ما سبق به القدر فكأنه قال: لابد لك من فعل الذنوب والخطايا، لأن ذلك مكتوب عليك فأحدث توبة، فإنه لا يؤتى العبد من فعل المعصية وإن عظمت وكثرت، وإنما يؤتى من ترك التوبة وتأخيرها، فإن الله عفو يحب التوابين وقد قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾، فما وصفهم بعدم السيئة أصلا هـ.

والحديث رواه أيضا أحمد والترمذي والحاكم. قال الترمذي :
غريب لا نعرفه إلا من حديث علي بن مسعدة هـ.
قال الحاكم : صحيح وقال الذهبي : بل فيه لين وقال في موضع
آخر : فيه ضعف. وقال الزين العراقي : فيه علي بن مسعدة. ضعفه
البخاري هـ.

لكن انتصر ابن القطان لتصحيح الحاكم وقال ابن مسعدة :
صالح الحديث وغرابته إنما هي فيما انفرد به عن قتادة هـ.
قوله : (الندم توبة) أي هو معظم أركانها لا أن الندم وحده
كاف فيها من قبيل الحج عرفة، وإنما كان أعظم أركانها، لأن الندم
شيء متعلق بالقلب والجوارح تبع له، فإذا ندم القلب انقطع عن
المعاصي فرجعت برجوعه الجوارح. قال الغزالي : إنما نص على أن
الندم توبة. ولم يذكر جميع شروطها ومقدماتها، لأن الندم غير
مقدور للعبد، فإنه قد يندم على أمر وهو يريد أن لا يكون والتوبة
مقدورة له مأمور بها فعلم أن في هذا الخبر معنى لا يفهم من
ظاهره وهو أن الندم لتعظيم الله وخوف عقابه، مما يبعث على
التوبة النصوح فإذا ذكر مقدمات التوبة الثلاث وهي ذكر غاية قبح
الذنوب وذكر شدة عقوبة الله وأليم غضبه وذكر ضعف العبد وقلة
حيلته، يندم ويحمله الندم على ترك اختيار الذنب وتبقى ندامته
بقلبه في المستقبل، فتحمله على الابتغال والتضرع ويجزم بعدم العود
إليه، وبذلك تتم شروط التوبة الأربعة، فلما كان الندم من أسباب
التوبة سماه باسمها هـ.

والحديث رواه أيضا أحمد والترمذي والبخاري في التاريخ،
والحاكم في المستدرک والبيهقي. قال في شرح الشبهات : هو حديث
صحيح. وقال ابن حجر في الفتح : حديث حسن.

قوله : (ما لم يغفر)، أي تصل روحه حلقومه فيكون بمنزلة الشيء الذي يتغفر به، لأنه لم يعاين ملك الموت ولم ييأس من الحياة فتصح توبته بشروطها، فإن وصل لذلك لم يعتد بها لقوله تعالى : ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات﴾ الآية، ولأن من شروط التوبة العزم على ترك الذنب المكتوب عنه وعدم المعاودة عليه وذلك إنما يتحقق مع تمكن التائب منه وبقاء الأوان الاختياري ذكره القاضي، وكما أن من وصل لتلك الحالة لا تقبل توبته لا ينفذ تصرفه. والحديث في إسناده الوليد بن مسلم وتقدم أنه مدلس وقد عنعنه، وكذلك مكحول الدمشقي وقد رواه أيضا أحمد والترمذي : حسن غريب ولم يبين لم لا يصح. قال ابن القطان : وذلك لأن فيه عبد الرحمان بن ثابت وثقه أبو حاتم وقال أحمد : أحاديثه مناكير ونقل في الميزان تضعيفه عن ابن معين وتوثيقه عن غيره ثم أورد من مناكيره أخبارا هذا منها والله أعلم.

قوله : (فذكر أنه أصاب من امرأة قبله) وعند مسلم وأصحاب السنن من طريق سماك بن حرب عن إبراهيم النخعي عن علقمة والأسود عن ابن مسعود : جاء رجل إلى النبي ﷺ قال : يا رسول الله إني وجدت امرأة في بستان ففعلت بها كل شيء غير أني لم أجامعها قبلتها ولزمتها فأفعل ما شئت فأنزلت عليه ﷺ : ﴿أقم الصلاة طرفي النهار﴾ إلى قوله : ﴿ذلك ذكرى للذاكرين﴾.

قوله : (فقال : لمن عمل بها من أمتي، أي بهذه الآية فإنه أتى بالحسنة بعد السيئة وإطلاق الآية يشمل الكبائر، إلا أن هذه الآية في الصغائر والله أعلم.

قوله : (أسرف رجل على نفسه)، أي بالغ وغلا في المعاصي، والسرف مجاوزة الحد (فلما حضره الموت أوصى بنيه) وفي رواية

للبخاري عن أبي سعيد مرفوعا أن رجلا كان قبلكم رغبه الله، بفتح الراء والغين المعجمة المخففة والسين المهملة، أعطاه الله مالا فقال لبنيه لما حضر بضم الحاء المهملة وكسر المعجمة، أي لما حضره الموت أي أب كنت لكم ؟ قالوا : خير أب قال : فإنني لم أعمل خيرا قط فإذا مت لخ.

قوله : (ثم دروني) بفتح الذال المعجمة وتشديد الراء. وفي رواية: ثم أذروني بألف وصل وسكون معجمة وقال في الفتح : أذرنى بزيادة مفتوحة، أي طيرونى (في الريح) وفي رواية : في يوم عاصف. وفي رواية للبخاري : فأجمعوا لي حطبا كثيرا ثم أوروا بفتح الهمزة وسكون الواو، أي أقدحوا وأشعلوا نارا حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي فخذوها فأطحنوها فذروني في اليم في يوم حارا وراح براء فألف فمهملة كثير الريح (فوالله لأن قدر علي ربي)، بتخفيف الدال. وفي رواية : لئن قدر الله علي، أي ضيق الله علي كقوله تعالى : ﴿ومن قدر عليه رزقه﴾، أي ضيق عليه وليس شكا في القدرة على إحيائه وإعادته ولا إنكار لبعثه كيف وقد أظهر إيمانه باعترافه بأنه فعل ذلك من خشية الله، ولا يقال أن جحد بعض الصفات لا يكون كفرا، لأن الاتفاق على جحد صفة القدرة كفر بلا ريب وأحسن الأقوال قول النووي أنه قال : ذلك في حال دهشة وغلبة الخوف عليه بحيث ذهب تدبره فيما يقوله فصار كالغافل والناسي الذي لا يؤاخذ بما صدر منه ولم يقله قاصدا الحقيقة معناه هـ.

قوله : (ليعذبني عذابا ما عذبه أحدا) بفتح الموحدة من ليعذبني وفي رواية : فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبه عذابا لا يعذبه أحد من العالمين.

قوله : (فإذا هو قائم)، أي بين يديه سبحانه وتعالى.

قوله : (قال : خشيتك) قال ابن مالك : خشيتك بفتح التاء وكسرهما والفتح أعلى هـ.

ووجه الكرمانى النصب على نزع الخافض، أي لخشيتك، ووجه الزركشي الثانى على تقدير من، وقال البرماوي كالكرمانى خشيتك خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ حذف خبره، وللكشميةنى : من خشيتك (فغفر له)، وعند مسلم من طريق ربعي عن حذيفة فقال الله تعالى : أنا أحق بذلك منك تجاوزا عن عبدي.

قوله : (دخلت امرأة النار في هرة)، وفي رواية للبخاري : عذبت امرأة في هرة، بكسر الهاء وتشديد الراء واخرها (ربطتها). وفي رواية سجنتها حتى ماتت (فلا هي أطعمتها) زاد في رواية ولا سقتها إذ حبستها، (ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض)، بالخاء المعجمة والشينين المعجمتين بينهما ألف، أي حشراتهما وهوامها. قال الطيبي : وذكر الأرض هنا كذكرها في قوله تعالى : ﴿وما من دابة في الأرض﴾ للإحاطة والشمول. وقال الدميري : كانت هذه المرأة كافرة كما رواه البزاز في مسنده وأبو نعيم في تاريخ أصبهان والبيهقي في البعث والنشور عن عائشة فاستحقت التعذيب بكفرها وظلمها وقال عياض في شرح مسلم : يحتمل أن تكون كافرة، وأبقى النووي هذا الاحتمال وكأنهما لم يطلعا على نقل في ذلك، وفي مسند أبي داود الطيالسي من حديث الشعبي عن علقمة قال : كنا عند عائشة ومعنا أبو هريرة فقالت : يا أبا هريرة أنت الذي تحدث عن النبي ﷺ أن امرأة عذبت بالنار من أجل هرة قال أبو هريرة : نعم سمعته منه ﷺ فقالت عائشة : المؤمن أكرم على الله من أن يعذبه من أجل هرة، إنما كانت المرأة مع ذلك كافرة،

يا أبا هريرة إذا حدثت عن رسول الله ﷺ فانظر كيف تحدث، ورواه أحمد أيضا قال الحافظ الهيثمي : رجاله رجال الصحيح وفيه تفخيم الذنب ولو صغيرا وأن تعذيب الحيوان حرام، وأنه يسلط يوم القيامة على ظالمه وحل اتخاذ الهر ورباطها بشرط إطعامها وسقيها وألحق به غيرها في معناها قاله المناوي هـ.

قوله : (ليلا يتكل رجل ويأس رجل) يعني أن الزهري حدث بحديث الرجل الذي أسرف على نفسه ليلا يأس رجل أسرف على نفسه فلا يتوب، وحدث بحديث الهرة لئلا يتكل رجل سمع منه حديث المسرف على نفسه على ما فيه من سعة رحمة الله فيتمادي على المعاصي، وهكذا ينبغي للواعظ أن يجمع بين التخويف والترجي، وليكن التخويف أكثر والله أعلم.

قوله : (وكلكم ضال)، أي غافل عن الشرائع قبل إرسال الرسل (ووجدك ضالا) فهذا، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان أو ضال عن الحق وما يدعوه له الطبع من الراحة وإعمال النظر المؤدي إلى المعرفة وامتنال الأمر وتجنب النهي (إلا من هديت)، أي وفقته للإيمان وللخروج عن مقتضى طبعه ولا يناقضه خبر كل مولود يولد على الفطرة، لأن ذلك ضلال طارئ على الفطرة الأولى (فسلونى الهدى)، أي الهداية بمعنى الدلالة على طريق الخير والإيصال إليها (أهدكم) أي أنصب لكم أدلة واضحة على ذلك أو أصل من شئت إيصاله في سابق علمي الأزلي من يهد الله فهو المهتدي، وحكمة الطلب إظهار الافتقار والإذعان والاعتراف بمقام الربوبية ورتبة العبودية قال الراغب : الضلال العدول عن الطريق المستقيم ويضاده الهداية ويقال : الضلال لكل عدول عن المنهج عمدا وسهوا قليلا أو كثيرا، فإن الطريق المستقيم الذي هو المرتقى

صعب جدا ونحن وإن كنا مصيبين من وجه لا كنا ضالين من وجوه كثيرة، فإن الاستقامة والصواب يجري مجرى المقرطس من المرمى وما عداه من الجوانب كلها ضلال وإليه أشار ﷺ بقوله : استقيموا ولن تحصوا فإذا كان ذلك كذلك صح أن يستعمل لفظ الضلال فيمن يكون له حظا، ولذلك نسب الضلال إلى الأنبياء وإلى الكفار وإن كان بينهما بون بعيد قال في حق المصطفى ﷺ ﴿ووجدك ضالا فهدى﴾، أي غير مهتد لما سبق لك من النبوة ﴿وقال موسى وأنا من الضالين﴾ تنبيها على أن ذلك منه سهو هـ.

قوله : (فغمس فيها إبرة ثم نزعها) وفي رواية : ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر، وذلك لأن النقص إنما يدخل المحدود الفاني والله سبحانه واسع الفضل عظيم النوال لا ينقص العطاء خزائنه فخاطب العباد من حيث يعقلون وضرب لهم المثل بما هو غاية القلة ونهاية ما يشاهدونه فإن البحر من أعظم المرئيات، والإبرة صغيرة صقيلة، لا يعلق بها شيء وإن فرض لكنه لا يظهر حسا ولا يعتد به عقلا فلذا شبه بها.

قوله : (ذلك بأنى جواد) بيان لسبب ما تقدم وذلك لأنه إذا كان عطاؤه الكلام فلا يتصور في خزائنه النقصان والله أعلم. وهذا الحديث رواه مسلم في صحيحه ولفظه : (قال الله تعالى يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضرونى ولن تبلغوا نفعي فتنفعونى، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم

كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسأله ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه) هـ.

باب ذكر الموت والإستعداد له

قوله : (أكثرُوا ذكر هاذم الذات) بذال معجمة، أي قاطع أما بمهملة، فمعناه مزيل الشيء من أصله قال الغزالي : أي نغصوا بذكره لذاتكم حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله هـ.

وقال الطيبي : شبه الذات الفانية والشهوات العاجلة ثم زوالها ببناء مرتفع ينهدم بصدمات هائلة ثم أمر المنهمك فيها بذكر الهادم ليلا يستمر على الركون إليها ويشغل عما عليه من التزود إلى دار القرار، وفيه ندب ذكر الموت، بل أكثريته لأنه أضر للمعصية وأدعى للطاعة هـ.

والحديث رواه أيضا الترمذي وحسنه والنسائي والحاكم والبيهقي في الشعب والطبراني في الأوسط بإسناد حسن وابن حبان في صحيحه وزاد فإنه ما ذكره أحد في ضيق إلا وسعه، ولا ذكره في سعة إلا ضيقها عليه.

قوله : (أحسنهم خلقا)، بضمّتين أي الذين يحسنون معاملتهم مع الله ومع الناس. والحديث في إسناده فروة بن قيس وهو مجهول وكذا الراوي عنه وخبره باطل قاله الذهبي في طبقات التهذيب.

قوله : (الكيس)، أي العاقل قال الزمخشري : الكيس حسن التأنى في الأمور والكيس المنسوب إلى الكيس المعروف به، وقال ابن الأثير : الكيس في الأمور يجري مجرى الرفق فيها. وقال الراغب : الكيس القدرة على جودة استنباط ما هو أصلح في بلوغ الخير وتسميتهم الغادر كيسا إما على طريق التهكم أو تنبيها على أن الغادر يعد ذلك كيسا هـ.

قوله : (من دان نفسه)، أي حاسبها وأذلها واستعبدتها وقهرها، يعني جعل نفسه مطيعة منقادة لأوامر ربها. قال أبو عبيد الدين : الدأب وهو أن يداوم على الطاعة والدين الحساب. قال ابن عربي : كان أشياخنا يحاسبون أنفسهم على ما يتكلمون به وما يفعلونه ويقيّدونه في دفتر، فإذا كان بعد العشاء حاسبوا أنفسهم وأحضروا دفترهم ونظروا فيما صدر منهم من قول وعمل، وقابلوا كلا بما يستحقه، إن استحق استغفاراً استغفروا أو التوبة تابوا أو شكراً شكروا ثم ينامون فزدنا عليهم في هذا الباب الخواطر فكنا نقيد ما نحدث به أنفسنا ونهم به ونحاسبها عليه هـ.

(وعمل لما بعد الموت)، أي قبل نزوله ليصير على نور من ربه، فالموت عاقبة أمور الدنيا، فالكيس من أبصر العاقبة والأحمق من عمى عنها، وحجبته الشهوات والغفلات، (والعاجز) أي المقصر في الأمور، وفي رواية للعسكري : بلفظ الفاجر بالفاء (من اتبع نفسه هواها)، فلم يكفها عن الشهوات ولم يمنعها عن مفارقة المحرمات

واللذات (ثم تمنى على الله). زاد في رواية الأمانى بتشديد الياء جمع أمنية، أي فهو مع تقصيره في طاعة ربه واتباع شهوات نفسه لا يستعد ولا يعتذر ولا يرجع، بل يتمنى على الله العفو والعافية والجنة مع الإصرار وترك التوبة والاستغفار. قال الطيبي : والعاجز الذي غلبت عليه نفسه وقهرته فأعطاهما ما تشتهييه، وأصل الأمنية ما يقدره الإنسان في نفسه من منى إذا قدر ولذلك يطلق على الكذب وعلى ما يتمنى. قال الحسن : إن قوما ألتهتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة. ويقول أحدهم : إني أحسن الظن بربي وكذب لو أحسن الظن لأحسن العمل وذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين. وقال سعيد بن جبير : الغرة بالله أن يتمادى الرجل بالمعصية ويتمنى على الله المغفرة بالله. قال العسكري : وفيه رد على المرجئة وإثبات الوعيد هـ.

قال المناوي : قد أفاد الخبر أن التمني مذموم وأما الرجاء فمحمود، لأن التمني يفضي بصاحبه إلى الكسل بخلاف الرجاء فإنه تعليق القلب بمحبوب يحصل حالا، قال الغزالي : الرجاء يكون على أصل والتمنى لا يكون على أصل، فالعبد إذا اجتهد في الطاعات يقول : أرجو أن يتقبل الله مني هذا اليسير ويتم هذا التقصير ويعفو وأحسن الظن وهذا رجاء، وأما إذا غفل وترك الطاعة وارتكب المعاصي ولم يبال بوعد الله ولا وعيده ثم أخذ يقول : أرجو منه الجنة والنجاة من النار، فهذه أمنية لا طائل تحتها سماها رجاء وحسن ظن، وذلك خطأ وضلال وهو المشار إليه في الحديث، وفيه قال الحسن : إن أقواما ألتهتهم أمانى المغفرة لخ هـ.

والحديث رواه أيضا أحمد والترمذي والحاكم وقال : صحيح على شرط البخاري هـ.

قوله : (لا يجتمعان في قلب عبد لخ) يدل على أنه ينبغي وجود الأمرين على الدوام حتى في ذلك الوقت، وإنه لا ينبغي أن يغلب الرجاء في ذلك الوقت بحيث لا يوجد شيء من الخوف والله أعلم. والحديث رواه أيضا الترمذي وقال : حديث غريب، وابن أبي الدنيا كلهم من رواية جعفر بن سليمان الضبعي عن ثابت عن أنس قال المنذري : إسناده حسن فإن جعفرًا صدوق صالح احتج به مسلم ووثقه النسائي وتكلم فيه الدارقطني وغيره هـ.

قوله : (اخرجني) الخطاب للنفس فيستقيم هذا الخطاب مع عموم المؤمن للذكر والأنثى.

قوله : (وابشري بروح) بفتح الراء أي رحمة (وريحان) أي طيب.

قوله : (التي فيها الله) أي سلطانه وحكمه وأمره.

قوله : (بحميم)، وهو الماء الحار (وغساق). قال ابن عباس : هو الزمهرير يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار بحرهما. وقيل : هو ما يسيل من القيح والصدید من جلود أهل النار ولحومهم وفروج الزناة. وقيل : الغساق عين في جهنم وقيل : هو البارد المنتن والله أعلم. (وآخر من شكله)، أي مثل الحميم والغساق (أزواج) أي أصناف أخر من العذاب، والحديث قال في الزوائد : إسناده صحيح ورجاله ثقات هـ.

قوله : (إذا كان أجل أحدكم بأرض أو ثبته إليها حاجة). وفي رواية للترمذي : إذا قضى الله لعبد أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة. قال القرطبي : قال العلماء وهذا تنبيه للعبد على التيقظ للموت والاستعداد له بالطاعة والخروج من المظالم وقضاء الدين،

والوصية بما له وعليه في الحضر فضلا عن الخروج إلى سفرة فإنه لا يدري أين كتبت منيته من البقاع وأنشد بعضهم :

مشيناها خطا كتبت علينا

ومن كتبت عليه خطا مشاها

ومن كتبت منيته بأرض

فليس يموت في أرض سواها

قوله : (فإذا بلغ أقصى أثره)، أي غاية ما قدر له من الأثر. والحديث رواه أيضا الترمذي والحاكم عن مطر بن عكاس والترمذي أيضا عن أبي عزة وقال الترمذي : حسن غريب ولا يعرف لمطر غيره هـ.

قوله : (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه) قال عياض : فهمت عائشة رضي الله عنها أن هذا خبر عما يكون من الأمرين في حال الصحة فقالت : كلنا يكره الموت فقال لها : ليس كذلك وإنما أخبر عما يكون من ذلك عند النزاع وفي وقت لا تقبل فيه التوبة، فإن الله تعالى يكشف له عن كل ما يصير له فأهل السعادة يرون ما يحبون فيحبون لقاء الله تعالى ليصلوا إلى ما رأوا فيحب الله لقاءهم، أي يجزل لهم العطاء والكرامة وهو معنى محبته لقاءهم، وأهل الشقاء يرون ما يسوءهم فيكرهون لقاء الله لما يتيقنونه من عذابهم فيكره الله سبحانه وتعالى لقاءهم، أي يبعدهم عن رحمته وهو معنى كراهة الله لقاءهم وإلا لو كره الله لقاءهم أي موتهم لم يموتوا، وليس معنى الحديث أن سبب محبة الله لقاءهم محبتهم لقاءه، ولا أن سبب كراهة الله تعالى لقاءهم كراحتهم لقاءه، فذلك حالهم وصفتهم حينئذ، فمن خبرية أي موصولة لا شرطية هـ.

قوله : (لا يتمنى أحدكم الموت)، أي لا ينبغي للمؤمن المتزود للآخرة والساعي في ازدياد ما يثاب عليه من العمل الصالح أن يتمنى ما يمنعه عن البر والسلوك لطريق الله وعليه خبر خياركم من طال عمره وحسن عمله، لأن من يريد الازدياد والترقي من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام حتى ينتهي إلى مقام القرب كيف يطلب القطع عن مطلوبه (لضر نزل به) من مرض أو فاقة أو نحو ذلك من مشاق الدنيا لدلالته على عدم الرضى بما نزل به من المشاق، ولأن ضرر المرض مطهر للإنسان من الذنوب والموت قاطع له، ولأن الحياة نعمة وطلب إزالة النعمة قبيح (فإن كان ولا بد لـخ)، أي لا بد من تمنيه عند نزول الضرر (فليقل لـخ).

باب ذكر القبر والبلأ

قوله : (ليس من الإنسان)، أي غير النبي والشهيد (إلا يبلى) بفتح أوله، أي يفنى بمعنى تعدم أجزأؤه بالكلية أو المراد يستحيل فتزول صورته المعهودة ويصير بصفة التراب ثم يعاد إذا ركب إلى ما عهد (إلا عظما واحدا وهو عجب) بفتح فسكون ويقال عجم بالميم (الذنب) بالتحريك عظم لطيف كحبة خردل عند رأس العصص مكان رأس الذنب من ذوات الأربع وزعم المزنئ أنه يبلى، يرده قوله ومنه يركب الخلق يوم القيامة، قال ابن عقيل : فيه سر لا يعلمه إلا هو إذ من يظهر الوجود من العدم لا يحتاج لشيء يبني عليه ويحتمل أنه جعل علامة للملائكة على إحياء كل إنسان بجوهره والله أعلم.

قوله : (فإن نجا) أي الميت (منه) أي من القبر أي من عذابه ونكاله (فما بعده) أي من أهوال الحشر والموقف والحساب والصرط والميزان وغيرها أيسر.

قوله : (وإن لم ينج لخ) قال المناوي : فما يراه الإنسان فيه عنوان ما سيصير إليه ولا ينافيه قوله تعالى : ﴿وإنما توفون أجوركم يوم القيامة﴾، أي على طاعتكم ومعصيتكم، لأن كلمة التوفية يزيل هذا الوهم إذا المعنى أن توفية الأجور وتكميلها يكون ذلك اليوم، وما يكون قبل ذلك فبعض الأجور. ذكره في الكشف هـ.

قوله : (ما رأيت منظرا قط إلا والقبر أفضع)، أي أقبح وأشنع منه، بالنصب صفة لمنظرا، وقال الطيبي : الواو للحال والاستثناء مفعول أي ما رأيت منظرا وهو ذو هول وفضاعة إلا والقبر أفضع منه وعبر بالمنظر عن الوضع مبالغة، فإنه إذا نفى الشيء مع لازمه ينتفي الشيء بالطريق البرهاني، وإنما كان فظيحا لأنه بيت الدود والوحدة والغربة، ولهذا كان يزيد الرقاشي إذا مر بقبر صرخ صراخ الثور. وذكر المناوي عن ابن سماك أن الميت إذا عذب في قبره نادته الموتى أيها المتخلف بعد إخوانه وجيرانه، أما كان لك فينا معتبرا ما كان لك في تقدمنا إياك فكرة، أما رأيت انقطاع أعمالنا وأنت في مهلة، أما أما، وفي العاقبة لعبد الحق عن أبي الحجاج مرفوعا يقول القبر للميت إذا وضع فيه ويح ابن آدم ما غرك بي ألم تعلم أني بيت الفتنة وبيت الدود قال ثم فظاعته، إنما هي بالنسبة للعصاة والمخلفين لا للشهداء، كما يشير إليه خبر البيهقي وابن أبي الدنيا عن ابن عمر مرفوعا : القبر حفرة من حفر جهنم أو روضة من رياض الجنة، وأخرج أحمد في الزهد وابن المبارك في كتاب القبور

عن وهب قال : كان عيسى عليه السلام واقفا على قبر ومعه الحواريون فذكر القبر ووحشته وظلمته وضيقه فقال عيسى: كنتم في أضيق منه في أرحام أمهاتكم فإذا أحب الله أن يوسع وسع. وأخرج ابن عساكر عن عبد الرحمان المعيطي قال : حضرت جنازة الأحنف فكنت فيمن نزل قبره فلما سويته رأيته فسح له مد بصري فأخبرت به أصحابي فلم يروا ما رأيته هـ.

والحديث رواه أيضا الترمذي والحاكم وصححه وتعقبه الذهبي بأن بجيرا ليس بعمدة، لكن منهم من يقويه وهانئ روى عنه جمع ولا ذكر له في الكتب الستة.

قوله : (إن الميت يصير إلى القبر)، وفي رواية الصحيحين وغيرهما: أن العبد إذا وضع في قبره، القبر خرج مخرج الغالب، وإلا فالغريق ومن في الفلاة ومن ترك في بيت حتى صار له كالقبر يسألون (فيجلس). وفي الصحيحين وغيرهما : أتاه ملكان فيقعدانه قال المناوي : حقيقة بأن يوسع اللحد حتى يجلس فيه، زاد في رواية فتعاد روحه في جسده. وظاهره في كله ونقله السيوطي في أرجوزته عن الجمهور، لكن قال ابن حجر : ظاهر الخبر في النصف الأعلى وجمع بأن مقرها في النصف الأعلى، ولها اتصال بما فيه، وجزم القاضي والمراد بالإقعاد التنبيه والإيقاظ عما هو عليه بإعادة الروح فيه أجرى الإقعاد مجرى الإجلال هـ.

قوله : (ولا مشغوف) قال السيوطي : الشغف بشين معجمة وعين مهملة شدة الفزع حتى يذهب بالقلب هـ.

قوله : (فيم كنت)، أي في أي دين.

قوله : (ما هذا الرجل)، وفي رواية : ما كنت تقول في هذا الرجل

محمد ﷺ

قوله : (يحطم) بكسر الطاء (بعضها بعضا)، أي من شدة المزاحمة.

قوله : (وعليه تبعث إن شاء الله) للتبرك لا للشك.

قوله : (على الشك لخ)، أي خلاف اليقين اللائق بالإنسان. وهذا الحديث روي في الصحيحين وغيرهما عن أنس مرفوعا أن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه حتى إنه يسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل لمحمد فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة فيراهما جميعا ويفسح له في قبره سبعون ذراعا ويملاؤه عليه خضرا إلى يوم القيامة، وأما الكافر أو المنافق فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل فيقول : لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيقال له : لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطراق من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه.

قوله : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ﴾ الآية، نزلت في عذاب القبر، أي فتنة سؤاله. قال القرطبي : يثبتهم في الدنيا على الإيمان حتى يموتوا عليه وفي الآخرة عند المسألة.

قوله : (إذا مات أحدكم عرض على مقعده) لا هو من باب القلب، والأصل عرض عليه مقعده كما في رواية الصحيحين وغيرهما قال عياض : عرض المقعد تنعيم للمؤمنين وتعذيب للكافرين بمعاينة كل منهما ما يصير إليه وانتظار ذلك إلى اليوم الموعد، والمراد بالمقعد منزلته من الدارين هـ.

ورجح ابن حجر أن العرض يقع على الروح حقيقة وعلى ما يتصل به من البدن (يقال له)، أي من قبل الله، أي يأمر الله الملك أو من شاء من خلقه يقول له ذلك (هذا مقعدك حتى تبعث يوم القيامة)، أي لا تصل إليه إلا بعد البعث، وفيه إثبات عذاب القبر، لأن عرض مقعده من النار عليه نوع عظيم من العذاب.

قوله : (إنما نسمة المؤمن) هي بفتحتين الروح والمراد روح المؤمن الشهيد كما جاء في بعض روايات الحديث، ففي رواية الترمذي والطبراني أن أرواح الشهداء في طير خضر. قال المناوي: أي يكون الطائر ظرفاً لها لقوله في خبر أبي داود في أجواف طير وليس هذا بحصر ولا بحبس لأنها إما أن توسع عليها كالفضاء أو يجعل في تلك الحواصل من النعيم ما لا يوجد في فضاء واسع، والمراد أنها نفسها تكون طيراً بأن تمثل بصورته كتمثل الملك بشراً سوياً والله أعلم. (طائر يعلق في شجر الجنة) وفي رواية تعلق من ثمر الجنة بضم اللام، أي تأكل تلك الطير بأفواهها من تلك الثمار فتجد بواسطة ريح الجنة ولذتها وبهجتها وسؤدها ما لم تحط به العقول. قال ابن القيم : وذا صريح في دخول الأرواح الجنة قبل القيامة وبه يمنع قول المعتزلة وغيرهم أن الجنة والنار غير مخلوقين الآن والله أعلم.

باب ذكر البعث

قوله : (إن صاحبي الصور) أي القرن، أي الملكين الموكولين به، والمراد إسرافيل مع آخر وإسرافيل الأمير، ولذلك أفرد في رواية : (بأيديهما أو في أيديهما قرنان) تثنية قرن بالتحريك ما ينفخ فيه

والمراد بيد كل واحد منهما قرن (يلاحظان النظر متى يؤمران)، أي من قبل الله بالنفخ فيهما أي هما متوقعان بروز الأمر بالنفخ في كل وقت متأهبان مستعدان لذلك لعلمهما بقرب الساعة. قال الحافظ : فهذا يدل على أن النافخ غير إسرائيل فليحمل على أنه ينفخ النفخة الأولى وأما الثانية فلا إسرائيل وهي نفخة البعث. وفي أبي الشيخ عن وهب خلق الله الصور من لؤلؤة بيضاء في صفار الزجاج. وفي أبي داود والترمذي وحسنه والنسائي وغيرهم أن أعرابيا سأل الرسول ﷺ عن الصور فقال : قرن ينفخ فيه. ولفظ الطبراني : كيف أنتم وصاحب الصور قد التقمه ينتظر متى يؤمر. وفي لفظ : قد التقم القرن لخ ثم قال للعرش خذ الصور فأخذه وفيه ثقب بعد كل روح مخلوقة ونفس منفوسة لا تخرج روحان من ثقب واحد وفي وسطه كرة كإستدارة السماء والأرض، وإسرائيل واضع فمه على تلك الكرة هـ.

والحديث في إسناده حجاج بن أرطاة وعطية العوفي وتقدم أنهما ضعيفان.

قوله : (قال رجل من اليهود بسوق المدينة) وفي رواية الصحيحين بينهما يهودي يعرض سلعة له أعطي بها شيئا كرهه أو لم يرضه شك عبد العزيز قال لا والذي اصطفى لخ. وفي رواية أخرى لهما أيضا إستبّ رجلان رجل من اليهود ورجل من المسلمين فقال المسلم : والذي اصطفى محمدا على العالمين وقال اليهودي : والذي اصطفى موسى عليه السلام على العالمين، (فرفع رجل من الأنصار يده فطمه)، أخرج سفيان بن عيينة في جامعه وابن أبي الدنيا في كتاب البعث من طريقه عن عمرو بن دينار وابن جدعان عن سعيد بن المسيب قال : كان بين رجل من أصحاب

النبي ﷺ وبين رجل من اليهود كلام في شيء قال عمرو بن دينار: هو أبو بكر الصديق فقال اليهودي : والذي اصطفى موسى على البشر وهذا يعكر على قوله في حديث الباب : فرفع رجل من الأنصار، إلا إن كان المراد بالأنصار المعنى الأعم فإن أبا بكر من أنصار النبي ﷺ قطعاً بل هو رأس من نصره ومقدمهم وسابقهم قاله في الفتح هـ.

قوله : (فذكر ذلك لرسول الله ﷺ)، وفي رواية الشيخين : فذهب اليهودي إليه ﷺ فقال : يا أبا القاسم إن لي ذمة وعهداً فما بال فلان لطم وجهي فقال : لم لطمت وجهه، فذكره أي أمره مع اليهودي فغضب النبي ﷺ حتى رأى في وجهه ثم قال لخ. قال الأبى في شرح مسلم : الرجل إنما قام بتغيير منكر في إعتقاده لا سيما إن فهم عن اليهودي أنه عرض بغير موسى وحينئذ، فغضبه ﷺ يحتمل لأن المسألة علمية وقد تتوقف على أمور لا يعلمها إلا العلماء، وما كان كذلك فالتغيير فيه مصروف إلى الإمام فلما افتات عليه غضب، ويحتمل أنه فضل النبي ﷺ تفضيلاً يؤدي إلى اهتضام موسى، ويحتمل أنه عدل عن وجه التغيير، لأنه إنما يكون أولاً بالقول فإن قلت لا يتعين في اليهودي أنه أتى منكراً لاحتمال أن يكون مسنده في التفضيل أن عندهم في التوراة ما هو بمعنى ما هو في القرآن من قوله تعالى : ﴿إني اصطفتك على الناس﴾ الآية، والجواب أنه وإن سلم ذلك فهو عام، والعمل بالعام قبل البحث عن المخصص منكر هـ.

قوله : (فأكون أول من رفع رأسه)، وفي رواية الصحيحين ثم قال : لا تفضلوا بين أنبياء الله، فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى

فأكون أول من بعث، (فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة لـخ). وفي رواية الصحيحين : فإذا موسى آخذ بالعرش فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أم بعث قبلي. ولهما أيضا : لا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله. قال القاضي عياض : هذا من أشكل الحديث، لأنه يقتضي أن موسى عليه السلام حي الآن وأن حياته تستمر إلى نفخة الصعق، ومن المعلوم أنه مات، فيحتمل أن هذه ليست صعقة الموت، بل صعقة فزع تلحق الناس وهم في المحشر إذا سمعوا صوت السموات حين تنشق، ويدل على أنها صعقة غشية لا صعقة موت. قوله : أفاق قبلي لأن الإفاقة هي من الغشية لا من الموت. وقال الداودي : حمل بعضهم هذه الصعقة أنها في الموقف وأن المستثنى فيها الشهداء قال : وهذا بعيد أن تصعق الأنبياء وهم أكرم. وقال بعض أهل المعاني : يحتمل أن موسى لم يمت، وأحاديث موته ترد عليه هـ.

قال الأبي : قال الغزالي : في صعقة المحشر بينما الناس في صعقات القيامة إذا دارت السماء فوق رؤوسهم وإنشقت مع شدتها وغلظها مسيرة خمسمائة عام، فيا هول صوت إنشقاقها في الأسماع وهيبته والأبين في الجواب، والجمع بين الأحاديث والآي أن يقال الصعق يطلق بالإشتراك على الموت وعلى الغشية والأنبياء عليهم السلام أحياء الحياة الحقيقية بدليل صلاة موسى عليه السلام في قبره وصلاة النبي ﷺ بهم في ليلة الإسراء ولقياهم لهم في السموات، ونص على حياتهم ابن عطية والقضاعي في شرحه موازنة الأعمال للحميدي : وإذا كانوا أحياء فعند نفخة الصعق الأولى فمن كان حيا من غير الأنبياء يموت بالصعق، ومن كان حيا من الأنبياء فإنه يصعق، أي يغشى عليه إلا موسى، فإنه لا يغشى

عليه لأنه جوزي بصعقة الطور ولم تكن صعقة يوم الطور صعقة الموت هـ.

عياض أما قوله : فلا أدري أفاق قلبي، فيحتمل أنه قبل أن يوحى إليه أنه أول من تنشق عنه الأرض إن حمل اللفظ على ظاهره في أنه المنفرد بذلك، وإن حمل على أنه من الزمرة التي هي أول من تنشق الأرض عنها فيكون موسى عليه السلام في تلك الزمرة وهي زمرة الأنبياء عليهم السلام هـ.

قوله : (ومن قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب) وفي رواية الصحيحين. لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى. قال ابن أبي جمرة : يريد بذلك نفي التكليف والتحديد على ما قاله ابن الخطيب، لأنه قد وجدت الفضيلة بينهما في عالم الحس، لأن نبينا ﷺ أسرى به إلى فوق السبع الطباق ويونس نزل به إلى قعر البحر، وقد قال نبينا ﷺ: أنا سيد ولد آدم يوم القيامة فهذه فضيلة وجدت بالضرورة فلم يبق أن يكون قوله ﷺ: لا تفضلوني على يونس بن متى، ولا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى، إلا بالنسبة إلى القرب من الله والبعد، فمحمد ﷺ وإن أسرى به إلى السبع الطباق واخترق الحجب، ويونس إن نزل به لقعر البحر فهما بالنسبة للقرب والبعد من الله على حد واحد هـ. والله أعلم.

قوله : (ياخذ الجبار سماواته الخ) هذا الحديث كالتفسير لقوله تعالى : ﴿والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه﴾ ومعلوم أنه يجب كما قال المازري وعياض صرف اللفظ عن محله المحال الذي هو الجارحة، وإن الأصوليين بعد صرفها عنه اختلفوا فمنهم من حمل اليد على صفة لا نعلمها

فيجب الإيمان بها ويصرف علم حقيقتها إلى الله ومنهم من أولها بالقدرة، فالمعنى أن الله سبحانه يطوى السموات بقدرته وكفى عن ذلك باليد، لأن به نحن نفعل فخاطب الخلق بما تفهم وأخرج المعقول إلى المحسوس ليتمكن المعنى في النفس ثم أكد في إبهام الجارحة فذكر اليمين والشمال حتى يورد المثال على كماله ثم لما كانت اليمين في العرف يتناول بها ما يحب، وبالشمال ما دونه ويحاول باليمين ما يصعب وبالشمال ما يأخذ أضاف خلق السماوات إلى اليمين، لأنه لا يبعد أن يكون في السموات ما هو أفضل من كل ما هو في الأرض ولا سيما على القول بتفضيل الملائكة عليهم السلام، أو يكون فضل السموات بأمر خفي عنا والسموات أعظم من الأرض بما لا يتقارب وإن كان لا أصعب ولا أخف بالنسبة إلى قدرته تعالى، ولكن جرى ذلك على حكم التمثيل الذي افتتح به والله أعلم هـ.

قوله : (فجعل يقبضها ويبسطها) قال عياض : قبضه عَلَيْهِ السَّلَامُ أصابعه وبسطها بعد تمثيل لقبض هذه المخلوقات وجمعها بعد بسطها، وحكى به المبسوط والمقبوض الذي هو السموات والأرض، ليس أنه إشارة إلى القبض والبسط الذي هو صفة القابض الباسط سبحانه وتعالى ولا تمثيلاً لصفاته السمعية المسماة باليد، وليست بجارحة وقيل : قد يكون بسطه وجمعه إشارة إلى إستيعاب جميع السموات والأرض ببسط اليد كلها وجمعها كما يشير الإنسان بذلك لنفسه في جمع الشيء هـ.

ثم يقول أنا الجبار أنا الملك لخ، يحتمل أن يخاطب بذلك الملائكة عليهم السلام، أو يخاطب به نفسه كقوله تعالى : ﴿لن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ قاله الأبي هـ.

قوله : (حتى نظرت إلى المنبر يتحرك لخ)، أي تحرك من أسفله إلى أعلاه، لأن بحركة الأسفل يتحرك الأعلى ثم حركته يحتمل أنها بحركة النبي ﷺ فوقه بهذه الإشارة، ويحتمل أنه تحرك من ذاته مساعدة لحركته ﷺ وهيبته لما سمع من عظمة الله كما حن له الجذع ويكون ذلك من أعلام نبوته والله أعلم بمراد نبيه ﷺ فيما أشكل من هذه الأحاديث.

قوله : (حفاة) بضم المهملة وتخفيف الفاء بلا خف ولا نعل (عراة) بضم العين المهملة وهذا ظاهره يعارض حديث أبي سعيد المروني عند أبي داود وصححه ابن حبان أنه لما حضره الموت دعا بثياب جدد فلبسها وقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الميت يبعث في ثيابه التي يموت فيها، لكن جمع بينهما بأنهم يخرجون من القبور بأثوابهم التي دفنوا فيها ثم تنتشر عنهم عند إبتداء الحشر فيحشرون عراة، وحمله بعضهم على العمل كقوله تعالى : ﴿ولباس التقوى﴾، زاد البخاري في رواية له عن ابن عباس : مشاة بضم الميم بعدها معجمة غير راكبين غرلا بضم المعجمة وسكون الراء جمع أغرل وهو الأخلق والغرلة القلفة وهو ما يقطع من فرج الذكر قال ابن عبد البر : يحشر الآدمي عاريا ولكل من الأعضاء ما كان له يوم ولد، فمن قطع منه شيء يرد عليه حتى الأكلف هـ.

قوله : (قال : يا عائشة الأمر أهم من أن ينظر بعضهم إلى بعض)، وفي رواية للبخاري : قالت عائشة : فقلت يارسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض فقال : الأمر أشد من أن يهتمم ذاك، أي فكل مشغول بأمره ولا يلتفت أحد إلى عورة أحد، وعند الترمذي والحاكم من طريق عثمان بن عبد الرحمان القرظي :

قرأت عائشة : ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾، فقالت واسوأناه الرجال والنساء يحشرون جميعا ينظر بعضهم إلى سوءة بعض فقال لكل امرئ شأن يغنيه وزاد لا ينظر الرجال إلى النساء والنساء إلى الرجال.

قوله : (فجدال ومعاذير) قال بعضهم في شرح الترمذي : المراد بالجدال دفع الذنوب بإنكار إبلاغ الرسل وبعدهم ثبوت صدقهم عندهم والمعاذير عبارة عن إقرار العبد بالذنوب والإعتذار بالسهو والنسيان وكونهم مضطرين مجبورين، وأما في العرض الثالثة فيثبت الحجة عليهم ويحق الحق بثبوت صدق الأنبياء بشهادة الأنبياء والملائكة ومحمد وأمه على ذلك.

قوله : (فأخذ بيمينه لـ)، أي منهم من يأخذ الصحيفة بيمينه ومنهم من يأخذها بشماله فتتم القضية ويرتفع الجدال والمعاذير. والحديث رواه أيضا الترمذي وقال : ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة، وقد رواه بعضهم عن علي بن علي وهو الرفاعي عن الحسن عن أبي موسى عن النبي ﷺ هـ.

وهكذا رواه المصنف فهو منقطع لأن الحسن أيضا لم يسمع من أبي موسى قاله علي بن المديني وأبو حاتم وأبو زرعة والله أعلم.

قوله : (في رشحه)، بفتح الراء وسكون الشين المعجمة بعدها حاء مهملة في عرف نفسه من شدة الخوف (إلى أنصاف أذنيه)، قال في الكواكب : هو كقوله تعالى : ﴿فقد صغت قلوبكما﴾، ويمكن الفرق بأنه لما كان لكل شخص أذنان فهو من باب إضافة الجمع إلى مثله بناء على أن أقل الجمع إثنان هـ.

وشبه برشح الإناء لكونه يخرج من البدن شيئا فشيئا والله تعالى أعلم.

قوله : عن قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْدِلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ
وَالسَّمَاوَاتِ﴾، ذكر المفسرون في معنى هذا التبديل قولين : أحدهما
أنه تبدل صفة الأرض والسماء لا ذاتهما، فأما تبديل الأرض
فبتغيير صفتها وهيئتها مع بقاء ذاتها وهو أن تدكدك جبالها
وتسوى وهادها وأوديتها وتذهب أشجارها وجميع ما عليها من
عمار وغيرها لا يبقى على وجهها شيء إلا ذهب وتمددم الأديم، وأما
تبديل السماء فهو أن تنتثر كواكبها وتطمس شمسها وقمرها
ويكوران وكونها تارة كالدهان وتارة كالمهل، وبهذا القول قال
جماعة من العلماء، ويدل على صحة هذا القول ما روي عن سهل
بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ (يحشر الناس يوم القيامة على
أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس بها علم لأحد). أخرجاه في
الصحيحين. (العفراء) بالعين المهملة وهي البيضاء إلى حمرة، ولهذا
شبهها بقرصة النقي وهو الخبز الجيد البياض الفائق المائل إلى
حمرة كأن النار ميلت بياض وجهها إلى الحمرة. وقوله : ليس بها
علم لأحد يعني ليس فيها علامة لأحد بتبديل هيئتها وزوال جبالها
وجميع بنائها فلا يبقى فيها أثر يستدل به. والقول الثاني : هو
تبديل ذوات الأرض والسماء وهذا قول جماعة من العلماء ثم
اختلفوا في معنى هذا التبديل فقال ابن مسعود في معنى هذه الآية
قال: تبدل الأرض كالفضة بيضاء نقية لم يسفك بها دم ولم يعمل
عليها خطيئة. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : الأرض من
فضة والسماء من ذهب. وقال أبي ابن كعب في معنى التبديل : بأن
تصير الأرض نيرانا والسماء جنانا. وقال أبو هريرة وسعيد بن
جبير ومحمد بن كعب القرظي : تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل

المؤمن من تحت قدمه، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ: تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفؤا أحدكم خبزته في السفر نزلا لأهل الجنة أخرجاه في الصحيحين بزيادة فيه. قال النووي في شرح هذا الحديث : أما النزول فبضم النون والزاي ويجوز إسكان الزاي، وهو ما يعد للضعيف عند نزوله، وأما الخبزة فبضم الخاء وقال أهل اللغة : هي الظلمة التي توضع في الملة يتكفؤها بالهمزة بيده، أي يميلها من يد إلى يد حتى تجتمع وتسوى، لأنها ليست مبسطة كالرقاقة وقد حققنا الكلام في اليد في حق الله سبحانه وتعالى وتأويلها مع القطع باستحالة الجارحة عليه ليس كمثله شيء، ومعنى الحديث أن الله سبحانه وتعالى يجعل الأرض كالظلمة، أي الرغيف العظيم وتكون طعاما نزلا لأهل الجنة والله على كل شيء قدير، فإن قلت إذا فسرت التبديل بما ذكرت فكيف يمكن الجمع بينه وبين قوله تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ تَحْدَثُ أَخْبَارُهَا﴾، ثم بعد ذلك تبدل تبديلا ثانيا : وهو أن تبدل ذاتها بغيرها كما تقدم أيضا وبدل على صحة هذا التأويل ما روى عن عائشة قالت : سألت رسول الله ﷺ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات فأين يكون الناس يومئذ يارسول الله ؟ فقال : على الصراط. أخرجه مسلم وروى ثوبان أن حبرا من اليهود سأل رسول الله ﷺ : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض ؟ قال هم في الظلمة دون الجسر ذكره البغوي بغير سند، ففي هذين الحديثين دليل على أن تبديل الأرض ثاني مرة يكون بعد الحساب والله أعلم بمراده وأسرار كتابه هـ.

قوله : (قال على الصراط) قال الأبي في شرح مسلم : الحديث من الإخبار عما لم يكن إن كان كيف يكون والصراط يحتمل أنه الصراط المعروف، ويحتمل أنه إسم لموضع غيره تستقر الخلق عليه وقال ابن عطية وروى حديث أنه ﷺ قال : المؤمن في وقت التبديل في ظل العرش. وفي حديث آخر : الناس وقت التبديل أضياف فلا يعجزهم ما لديه هـ.

قوله : (على حسك)، بفتحين قال السيوطي : جمع حسكة وهي شوكة صلبة (كحسك السعدان) بفتح السين وسكون العين وفتح الدال المهملات وبعد الألف نون جمع سعدانة نبات ذو شوك، (ثم يستجير الناس فجاج مسلم) بتشديد اللام المفتوحة أي محفوظ (ومحتبس) بفتح الباء به. (ومنكوس) فيها أي مقلوب بأن صار رأسه أسفل.

وفي رواية : فجاج مسلم ومخدوش مكدوس في جهنم حتى يمر آخرهم فيسحب سحباً والمكدوس بالمهملة. وروى بالمعجمة، ومعناه الشوق الشديد ويؤخذ منه كما في بهجة النفوس أن المارين على الصراط ثلاثة أصناف ناج بلا خدش وهالك من أول وهلة ومتوسط بينهما يصاب ثم ينجوا وكل قسم منها ينقسم أقساماً كما يعرف من قوله بقدر أعمالهم والله أعلم.

قوله : (قال ألم تسمعيه يقول : ﴿ثم ننجى الذين إتقوا﴾ الآية، فالورود غير الدخول وأهل الجنة لا دخول لهم، أو المراد أن الدخول إنما يضر إذا لم يكن معه نجاة من العذاب ابتداء وإلا فهو كلا دخول والله تعالى أعلم.

باب صفة أمة محمد ﷺ

قوله : (تردون عليّ غرا)، بضم العين المعجمة وتشديد الراء جمع أغر أي ذو غرة، وهي بياض في الجبهة والمراد به النور ويكون في وجوههم (محجلين) من التحجيل وهو بياض في اليدين والرجلين، والمراد به النور أيضا جعل الله تعالى ذلك لهذه الأمة دون سائر الأمم فتكون علامة لهم في الموقف وعند الحوض (من الوضوء)، أي بسبب آثار الوضوء، فإن الغرة والتحجيل نشأ عن الفعل بالماء، فيجوز أن ينسب إلى كل منهما والله أعلم.

قوله : (في قبة)، أي من آدم كما عند الإسماعيلي وغيره.

قوله : (أترضون) بهمزة الإستفهام (أن تكونوا ربع أهل الجنة لخ). قال السفاقي : ذكره بلفظ الإستفهام لإرادة تقرير البشارة بذلك وذكره بالتدرّج ليكون أعظم لسرورهم وعند أحمد وابن أبي حاتم من حديث أبي هريرة قال : لما نزلت ثلة من الأولين وقليل من الآخرين شق ذلك على الصحابة فنزلت ثلاثة من الأولين وثلة من الآخرين، فقال النبي ﷺ : إني أرجوا أن تكونوا ربع أهل الجنة بل ثلث أهل الجنة بل نصف أهل الجنة وتقاسمونهم في النصف الثاني. فقلوه : إني لأرجوا كذا في رواية عند مسلم. قال القرطبي : هذا المرجو محقق الحصول لقوله تعالى : ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾، ولحديث : أنا سأرضيك في أمّتك، وإنما قال ﷺ : أرجوا أدبا ووقوفا مع العبودية هـ.

قوله : (أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر)، وفي رواية الأبيض بدل الأحمر، أي فأكثر تلك الأمم أهل الشرك، فلذلك قل مومنوهم حتى غلب مؤمنوا هذه الأمة على مؤمني تلك الأمم كلها.

قوله : (يجيء النبي ومعه رجلان لخ) قيل : هذا معارض بحديث ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب لخ، أجيب أنه باعتبار الأكثر أي ما من نبي في الأكثر، أو بأنه على حذف الصفة، أي ما من نبي له أتباع والله أعلم.

قوله : (فيقول أخبره نبينا لخ) المقصود من هذه الشهادة إظهار فضلهم بين الأمم، وإلا فكفى بالله شهيدا. زاد البخاري بعد قوله ويكون الرسول عليكم شهيدا والوسط العدل، قال في الفتح : هو مرفوع من نفس الخبر لا مدرج هـ.

قوله : (صدرنا)، أي رجعنا من غزو أو من سفر.

قوله : (إلا سلك) على بناء المفعول، أي أدخل.

قوله : (وأرجوا أن لا يدخلوها) أي مومنون سائر الأمم (حتى تبوءوا أنتم لخ). والحديث قال في الزوائد في إسناده محمد بن مصعب قال فيه صالح بن محمد البغدادي : ضعيف، عن الأوزاعي وعامة أحاديثه عن الأوزاعي مقبولة، لكن لم ينفرد به وقد رواه النسائي من عمل اليوم والليلة عن يحيى بن حمزة عن الأوزاعي هـ.

ولفظه عند أحمد وإبن خزيمة وإبن حبان وصحاحه عن رفاعة الجهني مرفوعا : وعدني ربي أن يدخل من أمتي الجنة سبعين ألفا بغير حساب، وإنني لأرجوا أن لا يدخلوها حتى تبوءوا أنتم ومن صلح من أزواجكم وذرياتكم مساكن في الجنة هـ.

قوله : (مع كل ألف سبعون ألفا) وفي حديث أبي هريرة عند أحمد والبيهقي في البعث : قال ربي عز وجل فوعدني أن يدخل الجنة من أمتي زمرة هم سبعون ألفا وزاد فإستزدت ربي فزادني

مع كل ألف ألفا، وسنده جيد. وفي حديث أبي بكر الصديق عن أحمد وأبي يعلى : أعطاني من كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا، لكن في سنده راو ضعيف الحفظ وآخر لم يسم وعند الكلاباذي في معني الأخبار بسند واه عن عائشة مرفوعا : إن آتيا أتاني من ربي فبشرني أن الله يدخل من أمتي سبعين ألفا بغير حساب ولا عذاب، ثم أتاني فبشرني أن الله يدخل من أمتي مكان كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا بغير حساب ولا عذاب، ثم أتاني فبشرني أن الله يدخل من أمتي مكان كل واحد من السبعين المضاعفة سبعين ألفا بغير حساب ولا عذاب، فقلت : يارب لا تبلغ هذا أمتي قال : أكملهم لك من الأعراب فمن لا يصوم ولا يصلي. قال الكلاباذي : المراد بالأمة أولا أمة الإجابة وبقوله : آخر أمتي الاتباع فإن أمته ﷺ على ثلاث أقسام أحدها أخص من الآخر أمة الإجابة ثم أمة الإجابة ثم أمة الدعوة، فالأولى أهل العلم الصالح، والثانية مطلق المسلمين والثالثة : من عداهم ممن بعث إليهم هـ.

من شرح البخاري للقسطلاني.

قوله : (وثلاث حثيات)، يحتمل العطف على سبعون والنصب على أنه عطف على سبعين والأول أقرب لفظا وأبلغ معنى فلعله إن شاء الله هو المراد والله أعلم. قال السيوطي : قال في النهاية : هو كناية عن المبالغة عن الكثرة وإلا فلا كف ولا حتى جل عن ذلك وعز هـ.

قوله : (وفيتم) بالتشديد، أي أتممت وكملتم (سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله). قال المناوي : ويظهر هذا الإكرام في أعمالهم وأخلاقهم وتوحيدهم ومنازلهم في الجنة ومقامهم في الموقف ووقوفهم على تل يشرفون عليهم إلى غير ذلك، ومما فضلوا

به الذكاء وقوة الفهم ودقة النظر وحسن الإستنباط فإنهم أوتوا من ذلك ما لم ينله أحد ممن قبلهم، ألا ترى أن بني إسرائيل عاينوا من الآيات الملجئة إلى العلم بوجود الصانع الحكيم وتصديق الكليم كانفجار البحر ونتف الجبل وغير ذلك ثم اتخذوا بعده العجل، وقالوا : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة وما تواتر من معجزات المصطفى ﷺ أمور نظرية كالقرآن والتحدي به والفضائل المجتمعة فيه الشاهدة بنبوته دقيقة يدركها الأذكياء هـ.

والحديث رواه أحمد أيضا والترمذي والحاكم وقال على شرطهما. وقال الترمذي : حسن والله أعلم.

قوله : (نحن آخر الأمم)، أي وجودا.

قوله : (الأولون) أي في الحشر والحساب والقضاء لهم قبل الخلائق وفي دخول الجنة. والحديث إسناده صحيح ورجاله ثقات وأبو سلمة هو موسى بن إسماعيل البصري قاله في الزوائد هـ.

قوله : (إرفعوا رؤوسكم فقد جعلنا عدتكم فداءكم من النار)، قال بعضهم : ليس المراد أنهم يدخلون بمجرد أنهم فداء هذه الأمة بل أنهم يدخلونها لإستحقاقهم لذلك، ويكتفى بدخولهم عن دخول هذه الأمة فصاروا فداء.

قوله : (في الآخر فيقال : هذا فداؤك من النار)، وفي رواية لمسلم: إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقال : هذا فكاكك من النار. قال النووي في شرح مسلم : هذا الحديث يفسره حديث أبي هريرة : لكل رجل منزل في الجنة ومنزل في النار، فالمؤمن إذا دخل الجنة خلفه الكافر في منزله من النار لاستحقاقه ذلك بكفره هـ.

باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة

قوله : (إن لله مائة رحمة قسم منها رحمة بين الخلائق)، وفي رواية : وأرسل في خلقه كلهم رحمة. قال القرطبي : هذا نص في أن الرحمة يراد بها متعلق الإرادة وأنها راجعة إلى المنافع والنعم هـ. وقال الكرمانى : الرحمة هنا عبارة عن القدرة المتعلقة بإيصال الخير والقدرة في نفسها غير متناهية والتعلق غير متناه، لكن حصره في مائة على التمثيل تسهيلا للفهم وتقليلا لما عند الخلق وتكثيرا لما عند الله. وقال ابن أبي جمرة : نار الآخرة تفضل نار الدنيا بتسعة وستين جزءا، فإذا قوبل كل جزء برحمة زادت الرحمات ثلاثين جزءا فيفيد أن الرحمة في الآخرة أكثر من النعمة، وحكمة هذا العدد الخاص أنه عدد درج الجنة، والجنة محل الرحمة فكانت كل رحمة بإزاء درجة والله أعلم.

قوله : (فبها يتراحمون) أي الخلائق كلها.

قوله : (يرحم بها عباده أي المؤمنين).

قوله : (في الآخر يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة)، زاد مسلم في رواية : كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض، أي ملء ذلك.

قوله : (والبهائم بعضها على بعض والطير)، أي وغيرهما من كل نوع من أنواع ذوات الأرواح. قال القرطبي : وحكمة ذلك تسخير القوى للضعيف والكبير للصغير حتى يتحفظ نوعه وتتم مصلحته وذلك تدبير اللطيف الخبير هـ.

قوله : (فإذا كان يوم القيامة)، أكملها الله بهذه الرحمة، فالرحمة التي في الدنيا يتراحمون بها أيضا يوم القيامة قال المهلب :

الرحمة رحمتان رحمة من صفة الذات وهي لا تتعدد ورحمة من صفة الفعل وهي هذه، وقال البونى : الذاتية واحدة ورحمته متعددة وهي كما في هذا الخبر مائة، ففي الأرض منها واحدة يقع بها الارتباط بين الأنواع وبها يكون حسن الطباع والميل بين الجن والإنس والبهائم كل شكل إلى شكله، والتسعة والتسعون حظ الإنسان يوم القيامة يتصل بهذه الرحمة فتكمل مائة فيصعد بها في درج الجنة حتى ترى ذات الرحيم وتشاهد رحمته الذاتية هـ.

قوله : (كتب بيده على نفسه) أي أثبت في علمه الأزلي قال المناوي : قال القاضي : يعني أنه لما خلق الخلق حكم حكما جازما ووعد وعدا لازما لا خلف فيه، فشبه حكم الجازم والذي لا يعتريه نسخ ولا يتطرق إليه تغيير بحكم الحاكم إذا قضى أمرا وأراد إحكام أمر عقده سجلا وحفظه ليكون حجة باقية محفوظة عن التبديل والتحريف هـ.

(إن رحمتي تغلب غضبي)، أي غلبت عليه بكثرة آثارها والمراد بالغلبة سعة الرحمة وشمولها للخلق كما يقال غلب على فلان الكرم أي هو أكثر خصاله وإلا فرحمة الله وغضبه صفتان راجعتان إلى إرادة عقوبة العاصي وإثابة المطيع وصفاته تعالى لا توصف بغلبة أحدهما الأخرى، وإنما هو على سبيل المجاز للمبالغة. وقال الطيبي: الحديث على وزن قوله تعالى : ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾، أي أوجب وعدا أن يرحمهم قطعا بخلاف ما يترتب على مقتضى الغضب من العقاب، فإن الله عفو كريم يتجاوز عنه بفعله وأنشد :
وإنني وإن أو عدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدني
ألا ترى أن قسط الخلق من الرحمة أكثر من قسطهم من الغضب لنيلهم إياها بلا إستحقاق وأن قلم التكليف مرفوع عنهم

إلى البلوغ ولا يعجل بالعقوبة عليهم إذا عصوه، بل يرزقهم ويقبل توبتهم وما تعلق بالرحمة والفضل أحب إليه من فعل ما تعلق بالغضب والله تعالى أعلم.

قوله : (مرَّ بي رسول الله ﷺ وأنا على حمار)، وفي رواية الصحيحين عن معاذ بن جبل قال : كنت ردف النبي صلوات الله عليه ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرجل فقال : يا معاذ بن جبل فقلت : لبيك يا رسول الله وسعديك ثم سار ساعة ثم قال : يا معاذ بن جبل قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك قال : هل تدري لخ؟ هو إستفهام حقيقة وحق الله على عباده ما أوجبه عليهم من حق الشيء إذا ثبت.

قوله : (وما حق العباد على الله)، قال المازري : هو ما وجب لهم شرعا بوعده الصادق لا بالعقل كما تقوله المعتزلة، ويحتمل أنه من مجاز المقابلة كمكروا ومكر الله إذ لا يجب عليه تعالى شيء هـ.

قوله : (إذا فعلوا ذلك)، أي الحق الذي لله تعالى عليهم المفسر بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً (أن لا يعذبهم). وفي رواية ابن حبان من طريق عمر بن ميمون أن يغفر لهم ولا يعذبهم. وفي رواية يدخلهم الجنة، أي لا يعذبهم إذا اجتنبوا الكبائر والمناهي وآتوا بالمأمورات.

قوله : (وامرأة تحصب) كتضرب، أي ترمي فيه ما يوقد النار به فيه.

قوله : (وهج النار) بفتحتين أي حرها.

قوله : (لا تلقي ولدها في النار)، أي فكيف أرحم الراحمين يلقي بعض عبده المؤمنين فيها.

قوله : (إن الله لا يعذب من عباده إلا المارد المتمرد)، أي العاتى الشديد المفرط في الإعتداء أو العناد (الذي يتمرد على الله)، أي فأشرك معه غيره (وأبى) أي امتنع أن يقول (لا إله إلا الله) أي مع قرينتها وبقية شروطها، وهذا خبر كخبر لا يدخل النار من في قلبه مثقال حبة من إيمان وقد عورض بخبر أخرجوا من النار من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، ودفع التعارض بحمل الإيمان العاصم من النار على الإيمان العلمي والعملية وخلافه على خلافه والله أعلم. والحديث في إسناده إبراهيم بن أعين، قال في الكاشف : ضعفه أبو حاتم وإسماعيل بن يحيى الشيباني قال : متهم. وقال في الضعفاء : قال يزيد بن هارون كذاب، وله شاهد أخرجه البخاري ومسلم ولفظه عند مسلم : عن عمر بن الخطاب أنه قدم على رسول الله ﷺ بسبي فإذا امرأة من السبي تبتغي إذا وجدت صبيا في السبي أخذته فألصقته ببطنها فأرضعته فقال لنا رسول الله ﷺ : أترون هذه المرأة طارئة ولدها في النار ؟ قلنا : لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه فقال رسول الله ﷺ : لله أرحم بعباده من هذه بولدها هـ.

قوله : (من لم يعمل لله بطاعة لـخ)، أي : ما عمل عملا من حيث أنه طاعة، وما ترك عملا من حيث كونه معصية. والحديث في إسناده ابن لهيعة وتقدم أنه ضعيف.

قوله: قرأ أو تلا هذه الآية ﴿وَهُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾، أي هو حقيق بأن يتقيه عباده ويخافوا عقابه فيؤمنوا به ويطيعوه وهو حقيق بأن يغفر لهم ما سلف من كفرهم وذنوبهم. وقيل: هو أهل أن تتقى محارمه وأهل أن يغفر لمن اتقاه. والحديث رواه الترمذي أيضا وقال: حديث غريب، وفي إسناده سهيل بن عبد الله

القطيعي وليس بالقوي في الحديث، وقد تفرد به عن ثابت والله أعلم.

قوله : (يصاح) أي ينادى. وفي رواية الترمذي وغيره : إن الله يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، (فينشر له تسعة وتسعون سجلا)، السجل بكسرتين وتشديد اللام الكتاب الكبير.

قوله : (إن لك عندنا حسنات)، كان الجمع باعتبار الحسنة بعشر أمثالها. وفي رواية الترمذي : أن لك عنده حسنة بالإفراد، (وأنه لا ظلم عليك اليوم فتخرج له بطاقة)، البطاقة على وزن الكتابة. قال في النهاية : البطاقة رقعة صغيرة يثبت فيها مقدار ما يجعل فيه إن كان عينا فوزنه أو عدده، وإن كان متاعا فثمنه قيل : سميت بذلك لأنها تشد بطاقة من الثوب فتكون الباء حينئذ زائدة وهي كلمة كثيرة الإستعمال بمضر هـ.

قوله : (فيقول لك إنك لا تظلم)، أي هذه البطاقة وإن كانت حقيقة في نظرك لكنها عظيمة ثقيلة في نفس الأمر، لو تركناه لزم الظلم، والمراد لا نترك من عملك شيئا جليلا كان أو حقيرا ليلا يلزم الظلم عليك فلا بد من وزنها.

قوله : (فطاشت)، أي رفعت (السجلات وثقلت البطاقة). زاد الترمذي : ولا يثقل مع إسم الله شيء، أي ذكر الله يترجح عن جميع المعاصي ويمحيها. والحديث رواه أيضا الترمذي وقال : حديث حسن غريب وابن حبان في صحيحه والحاكم والبيهقي وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم والله أعلم.

باب ذكر الحوض

أي الذي لنبينا ﷺ قال في الصحاح : الحوض واحد الأحواض،
والحياض وحضت أحوض إتخذت حوضاً وإستحوض الماء إجتمع
والحوض بالتشديد شيء كالحوض تجعل للنخلة تشرب منه،
والحوض حيث تستقر المياه، أي تجتمع لتشرب منه الإبل، واختلف
في حوضه ﷺ هل هو قبل الصراط أو بعده ؟ قال أبو الحسن
القاسبي: الصحيح أن الحوض قبل. قال القرطبي في تذكرته :
والمعنى يقتضيه فإن الناس يخرجون عطاشاً من قبورهم واستدل
بما في البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعاً بينا أنا قائم على
الحوض إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم
فقال : هلم فقلت : أين ؟ قال : إلى النار الحديث . قال القرطبي :
فهذا الحديث يدل على أن الحوض يكون في الموقف قبل الصراط،
لأن الصراط إنما هو جسر على جهنم ممدود يجاز عليه، فمن جازه
سلم من النار هـ.

وقال آخرون إنه بعد الصراط، وصنيع البخاري في صحيحه
حيث أورد أحاديث الحوض بعد أحاديث الشفاعة بعد نصب
الصراط مشعر بذلك. وفي حديث أنس عند الترمذي ما يدل له
ولفظه : سألت رسول الله ﷺ أن يشفع لي فقال : أنا فاعل فقلت
«أين أطلبك ؟ قال : اطلبني أول ما تطلبني على الصراط قال : فإن
لم ألقك ؟ قال : أنا عند الميزان قلت : إن لم ألقك ؟ قال : أنا عند
الحوض. ويؤيده ظاهر قوله ﷺ في حديث الحوض : من شرب منه
لم يظمأ أبداً، لأنه يدل على أن الشرب منه يكون بعد الحساب
والنجاة من النار، لأن ظاهر حال من لا يظمأ أن لا يعذب بالنار،

وأما حديث أبي هريرة السابق المستدل على القبلية فأجيب عنه باحتمال أنهم يقربون من الحوض بحيث يرونه فيدفعون في النار قبل أن يخلصوا من بقية الصراط فليتأمل. وأما قول صاحب التذكرة والصحيح أن له ﷺ حوضين أحدهما في الموقف قبل الصراط والآخر داخل الجنة وكلاهما يسمى كوثرًا متعقب بأن الكوثر نهر داخل الجنة ومأوه يصب في الحوض ويطلق على الحوض كوثر لكونه يمد منه. وفي أبي ذر عند مسلم إن الحوض يشخب فيه ميزابان من الجنة وقد ثبت أن الصراط جسر جهنم، وأنه بين الجنة والموقف، فلو كان الحوض دونه لحالت النار بينه وبين الماء الذي يصب من الكوثر في الحوض والله أعلم. وفي الترمذي عن سمرة رفعه إن لكل نبي حوض، وأشار إلى أنه اختلف في وصله وإرساله وإن المرسل أصح والمرسل أخرجه ابن أبي الدنيا بسند صحيح عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : إن لكل نبي حوضًا وهو قائم على حوضه بيده عصا يدعوا من عرف من أمته، ألا وإنهم يتباهون أيهم أكثر تبعًا وإنى لأرجوا أن أكون أكثرهم تبعًا، وأخرج الطبراني من وجه آخر عن سمرة موصولًا مرفوعًا مثله وفي سنده لين وعند ابن أبي الدنيا عن أبي سعيد رفعه وكل نبي يدعوا أمته ولكل نبي حوض الحديث وفي إسناده لين، فالمختص به نبينا ﷺ الكوثر الذي يصب من مائه في حوضه ولم ينقل نظيره لغيره ولذا إمتن الله عليه به في التنزيل بقوله : ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ والله أعلم هـ.

من شرح البخاري للقسطلاني.

قوله : (مابين الكعبة إلى بيت المقدس) قال القرطبي أخذنا من كلام حجة الإسلام ظن بعضهم أن التحديد في أحاديث الحوض

فيه إضطراب، واختلاف وليس كذلك، وإنما تحدث المصطفى ﷺ بحديث الحوض مرات وذكر فيها تلك الألفاظ المختلفة مخاطباً لكل قوم بما يعرفه من مسافات مواضعها فقال : لأهل اليمن من عدن إلى عمان وهكذا، وتارة يقيد بالزمان فيقول : مسيرة شهر، والمعنى المراد أنه حوض كبير متسع الأرجاء والزوايا فكان ذلك بحسب من حضره، ممن يعرف ذلك الجهات، وليس الحوض على وجه هذه الأرض بل وجوده في الأرض المبدلة على مسافة هذه الأقطار، وهي أرض بيضاء كالفضة لم يسفك فيها دم ولم يظلم عليها أحد هـ.

قوله : (من إيلة إلى عدن) أيلة مدينة من بلاد الشام على ساحل البحر وعدن بفتحتين بلد باليمن مشتق من عدن بالمكان أقام. قوله : (وأحلى من العسل)، لم يقل من السكر لأنه لم يكونوا يعرفونه ولا كان ببلادهم مع ما تميز به العسل من المنافع التي لا تكاد تحصى.

قوله : (إنى لأذود عنه الرجال لخ)، أي من الأمم الآخرين، أي أطردهم حتى لا يزاحموا أمتي أو لأنهم لا يستحقون ذلك والله أعلم. قوله : (عن أبي سلام) بتشديد اللام الحبشي إسمه ممطور وهو شامي من ثقات التابعين.

قوله : (إن حوضي ما بين عدن إلى أيلة)، وفي رواية : من عدن إلى عمان فتح العين وشد الميم مدينة قديمة من أرض الشام. قوله : (أكاويبه) جمع كوب بالضم الكوز المستدير الرأس الذي لا أذن له.

قوله : (لم يظماً بعدها أبدا) الظمأ مهموز العطش قيل : لا يشرب منه إلا من قدر له بالسلامة من النار، ويحتمل أن من شرب منه من هذه الأمة وقدر عليه دخول النار لا يعذب فيها بالعطش،

بل يكون عذابه بغير ذلك، لأن ظاهر الحديث أن جميع الأمة تشرب منه إلا من ارتد وصار كافرا والعياد بالله.

قوله : (الذنس) بضم فسكون أي الوسخة أثوابهم (والشعت) بضم فسكون أيضا أي المغبرة رؤوسهم (الذين لا ينكحون المنعمات) بنون فعين مشددة أي من النساء (ولا يفتح لهم السدد) جمع سدة وهي كالظلمة على الباب لوقاية نحو مطر أو الباب نفسه أو الساحة أمامه أو الصفة أو السقيفة وأيا ما كان، فالمراد لا يؤذن لهم بالدخول على الكبراء ولا يؤهلون لمجالسة نحو الأمراء، زاد في رواية : الذين يعطون الحق الذي عليهم ولا يعطون الذي لهم، أي الحق الذي لهم لضعفهم وإزراء الناس بهم وإحتقارهم لهم.

قوله : (حتى اخضلت) بتشديد اللام أي ابتلت وزنا ومعنى. والحديث رواه أحمد أيضا والترمذي والحاكم وذكره في الجامع الصغير ورمز لصحته.

قوله : (ما بين ناحيتي حوضي) تثنية الناحية، بمعنى الطرف مضافة إلى الحوض.

قوله : (في الآخر يرى فيه)، أي حواليه وعنده.

قوله : (أتى المقبرة) بتثنية الباء ولغة الكسر قليلة موضع دفن الأموات.

قوله : (السلام عليكم دار قوم مؤمنين) قال النووي : ويجوز حفظه على البدل من الضمير في عليكم هـ.

(وإننا إن شاء الله بكم لاحقون) قال المازري : إن رجع الاستثناء إلى الموت فالموت لا يشك فيه، فيحمل على أنه تفويض لقوله تعالى : ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، لأنه خبر صدق وإن رجع إلى الموت على الإيمان فهو حقيقة لأنه غيب، لكن

لا يعني نفسه ولا من شهد له بالجنة، وإنما يعني من يجوز عليه ذلك من أصحابه أو يكون قبل أن يوحى إليه بحفظ من شهد له بذلك هـ.

عياض وقيل : إنه تبرك ومنتال لقوله تعالى : ﴿ولا تقولن لشيء﴾ الآية، وغلب عليه ذلك حتى صار يستعمله في المعلوم، ويحتمل أن يرجع إلى الموتى أي، أيها المؤمنون إن شاء الله، لأن حالهم غيب عنه وقيل : يرجع إلى اللحاق بهم في الدفن بالمدينة وقيل : إن بمعنى إذ وقيل : كان معه من يتهم في دينه فقال : ذلك بالنسبة إليه هـ.

قال الأبى : بعيد أن يرجع إلى موته بالمدينة لقوله للأنصار : المحيا محياكم والممات مماتكم، إلا أن يكون ذلك قبل هـ.

ثم قال : (وددنا أنا قد رأينا إخواننا) قال الأبى : يعني بإخوانه الذين لم يأتوا بعد ودادته ذلك أولئك الإخوان برؤيته وبه يتوجه قول القاضي فيه تمنى لقاء الفضلاء لأنه تمنى لهم أن يلقوه ووجه إتصال ودادته ذلك برؤية أصحاب القبور أنه عند تصويره السابقين تصور اللاحقين أو أنه كشف له عن عالم الأرواح السابقين واللاحقين. قال النووي : تمنى لهم أن يلقوه في الحياة وقيل : إنما تمناه بعد الموت ثم قال الأبى : قيل : على الأول كيف يصح أن يتمنى ذلك وهم معدومون والمعدوم لا يرى وأيضا فإنه من تمنى ما لا يكون لأن عمره لا يمتد إلى أن يرى آخرهم وأجيب : بأن الرؤية بمعنى العلم أو أنها رؤية تمثيل تمنى أن يمثلوا له كما مثلت له الجنة في عرض الحائط، وهذا على أنه تمنى حقيقة وقد لا يكون حقيقة، وإنما هو ترفيع وتشريف لقدر أولئك الإخوان هـ.

قالوا : (يارسول الله أولسنا إخوانك؟) قالوا ذلك لعلمهم أنهم إخوانه وقد رأهم فأجاب بقوله : (أنتم أصحابي). قال الباجي : أثبت لهم ما هو أخص من أخوة الإيمان والأكثر على أن من صحبه ولو برؤية ساعة أفضل ممن يأتي بعد. وقيل : يصح أن يأتي بعد عصرهم من هو أفضل من بعضهم وأخذه أبو عمر من الحديث قال: وحديث خير القرون قرنى، عام مخصوص يعني بقرنه السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وأما من خلط في زمانه ولم تكن له سابقة ولا أثر في الدين فيصيح أن يكون في القرن الذي بعد من هو أفضل من بعضهم وأجابوا عن حديث : لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبنا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفة بأنه إنما قال لبعضهم عن بعض هـ.

الأبي قال في شرح مسلم : حمل الباجي الأخوة على أنها في الإيمان فقط، ولا شك أن الصحبة أخص وحملها أبو عمر على أخوة العلم والقيام بالحق عندما يقل القائمون به المقول في أهلها وهو يخاطب أصحابه للعامل منهم أجر سبعين منكم وغير ذلك مما وصفهم به، ورأى أن هذه الأخوة أخص من مطلق الصحبة ولا يبعد، وما رجح به بعضهم قول الأكثر من سابقة الصحابة في الإسلام وذبحهم عنه وهجرتهم إليه ونصرتهم له وحفظهم الشريعة وتبليغها عند جوابه أنه لم يتفق ذلك لكل من رآه. وجاء في حديث أختلف في صحته أمتي كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره هـ.

قوله : (وانا فرطكم على الحوض)، أي سابقكم إليه لأصلحه لكم وأهينى لكم ما يليق بالوارد وأحوطكم وأخذ لكم طريق النجاة من قولهم فرس فرط متقدم الخيل ذكره الزمخشري، وهذا تحريض على العمل الصالح المقرب له في الدارين، وإشارة إلى قرب

وفاته وتقدمه على وفاة صحبه وفيه بشارة عظيمة لهذه الأمة المحمدية زادها الله شرفا.

قوله : (كيف تعرف)، أي يوم القيامة كأنهم فهموا من تمنى الرؤية وتسميتهم بإسم الإخوة دون الصحبة لا يراهم في الدنيا، فإنما التمني عادة ما لا يمكن حصوله ولو حصل اللقاء في الدنيا كانوا أصحابه وفهموا من قوله إنا فرطكم بعموم الخطاب أنه يعرفهم في الآخرة فسألوا عن كيفية ذلك.

قوله : (بين ظهراي خيل دهم) بضم فسكون، أي سود (بهم) بضم فسكون أيضا جمع بهيم، أي متشابهي الألوان لا يختلفون في السواد إذ قيل : إن البهيم هو الذي لا يخالط لونه لون سواه كان أبيض أو أسود أو أحمر.

قوله : (ليذاذن) بالنون الثقيلة على بناء المفعول من الذود وهو الطرد.

قوله : (فأناديهم) قيل : هو معارض لحديث : تعرض عليه أعمال أمته في الدنيا يوم الخميس ويوم الإثنين، لأنه لو علم أعمالهم لم ينادهم وأجيب: بأنها إنما تعرض عليه عرضا مجملا فيقال : عملت أمتك شرا عملت أمتك خيرا، وإنما تعرض دون تعيين عاملها قاله الأبي هـ.

قوله : (فيقال إنهم قد بدلوا بعدك) قيل : هم المنافقون والمتردون وقال الداودي : يحتمل أنهم أهل الكبائر والبدع الذين لم تخرجهم بدعتهم عن الإيمان تلحقهم هذه الشدة ويقال لهم ذلك، ثم يتداركهم الله برحمته ويشفع فيهم الرسول ﷺ. قال أبو عمر : ويخاف المترفون في الظلم والمعلنون بالكبائر أن يكونوا معنيين بهذا الحديث، وفيه من أعلام نبوته ﷺ المتعلقة بالإخبار عن المغيبات

أربعة : صفة أمته في الآخرة وتبديلهم بعده والثالث حالهم في الآخرة
وتقرير الحكم فيهم والرابع أن له ﷺ حوضا في الآخرة.
قوله : (ألا سحقا سحقا)، أي بعدا والله أعلم.

باب ذكر الشفاعة

قوله : (قال النووي في شرح مسلم ما نصه : قال القاضي
عياض : مذهب أهل السنة جواز الشفاعة عقلا ووجوبها سمعا
بصريح قوله تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ
الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ وقوله : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ
ارْتَضَى﴾ وأمثالهما وبخبر الصادق ﷺ، وقد جاءت الآثار التي
بلغت بمجموعها التواتر بصحة الشفاعة في الآخرة لمذنبى المؤمنين
وأجمع السلف والخلف ومن بعدهم من أهل السنة عليها ومنعت
الخوارج وبعض المعتزلة منها، وإحتجوا بقوله تعالى : ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ
شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ وبقوله : ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ
يُطَاعُ﴾، وهذه الآيات في الكفار وأما تأويلهم أحاديث الشفاعة
بكونها في زيادة الدرجات فباطل، وألفاظ الأحاديث الصحيحة
صريحة في بطلان مذهبهم وإخراج من إستوجب النار، لكن الشفاعة
خمس أقسام :

أولها : مختصة بنبينا ﷺ وهي للإراحة من هول الموقف
وتعجيل الحساب.

الثانية : في إدخال قوم الجنة بغير حساب، وهذه وردت أيضا
لنبينا ﷺ وقد ذكرها مسلم رحمه الله.

الثالثة : الشفاعة لقوم إستوجبوا النار فيشفع فيهم ﷺ ومن شاء الله تعالى.

الرابعة : فيمن دخل النار من المذنبين، فقد جاءت الأحاديث بإخراجهم من النار بشفاعته ﷺ والملائكة وإخوانهم من المؤمنين، ثم يخرج الله تعالى كل من قال : لا إله إلا الله كما جاء في الحديث: لا يبقى فيها إلا الكافرون.

الخامسة : الشفاعة في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها، وهذه لا ينكرها المعتزلة ولا ينكرون أيضا شفاعة الحشر الأول قال القاضي عياض: وقد عرف بالنقل المستفيض سؤال السلف الصالح شفاعة نبينا ﷺ ورغبتهم فيها وعلى هذا لا يلتفت إلى قول من قال : إنه يكره أن يسأل الله الإنسان أن يرزقه شفاعة محمد ﷺ لكونها لا تكون إلا للمذنبين فإنها قد تكون كما قدمنا لتخفيف الحساب وزيادة الدرجات، ثم كل عاقل معترف بالتقصير محتاج إلى العفو غير معتد بحمله مشفق من أن يكون من الهالكين، ويلزم هذا القائل أن لا يدعو بالمغفرة والرحمة، لأنها لأصحاب الذنوب وهذا كله خلاف ما عرف من دعاء السلف والخلف هذا آخر كلام القاضي رحمه الله هـ.

قوله : (لكل نبي دعوة مستجابة) قال النووي : معناه كل نبي له دعوة متيقنة الإجابة، وهو على يقين من إجابتها وأما باقي دعواتهم فهم على طمع من إجابتها وبعضها يجاب وبعضها لا يجاب هـ.

قال القرطبي : ثم الأكثر من هذا المرجو القبول لا سيما دعواته ﷺ فقد دعا لأئمة أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم وأن لا يهلكهم بالسنين العامة فأعطوها ودعا أن لا يجعل بأسهم بينهم

فمنعها. قال الأبى : وقد عوض عن ذلك الشفاعة فيهم. وفي أبى داود : أمتي أمة مرحومة ليس عليها عذاب في الآخرة عذابها في الدنيا الزلازل والفتن هـ.

(وإني إختبأت) بهمزة أي إدخرت (دعوتى شفاعة لأمتي) فيه بيان كمال شفقتة ﷺ على أمته ورأفته بهم وإعتناؤه بالنظر في مصالحهم المهمة، فأخر ﷺ دعوته لأمته إلى أهم أوقات حاجاتهم (فهي نائلة من مات لا يشرك بالله شيئاً)، فيه دلالة لمذهب أهل الحق أن كل من مات غير مشرك بالله لم يخلد في النار، وإن كان مصراً على الكبائر ودلائله من الكتاب والسنة كثيرة ومشهورة والله أعلم.

قوله : (أنا سيد ولد آدم)، وإنما قال ﷺ هذا تحدثاً بنعمة الله تعالى، وقد أمره الله بهذا ونصيحة لنا بتعريفنا حقه ﷺ قال القاضي عياض رحمه الله : قيل السيد الذي يفوق قومه والذي يفرغ إليه في الشدائد وهو ﷺ سيدهم في الدنيا والآخرة هـ.

(ولا فخر) أي لا ينبغي الإفتخار ولا فخر مني بهذا القول والفخر التعظيم والمباهاة، أي هذه النعمة كرامة من الله تعالى ما بلغتها بقوتي حتى أفخر بها (وأنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة)، هذا لا ينافي ما جاء في موسى أنه مستثنى من الصعق وتقدم تأويله.

قوله : (ولواء الحمد بيدي). قيل : اللواء الراية ولا يمسكها إلا صاحب الجيش يريد به إنفراده بالحمد يوم القيامة وشهرته على رؤوس الخلائق والعرب تضع اللواء موضع الشهرة، فاللواء مجاز عن الشهرة والانفراد وقيل : يحتمل أن يكون لحمده لواء يوم القيامة حقيقة يسمى الحمد، وعلى هذا قول من قال : من مقامات

الصالحين أعلى وأرفع من مقام الحمد ودونه تنتهي سائر المقامات ولما كان نبينا سيد المرسلين وأحمد الخلائق في الدنيا والآخرة أعطي لواء الحمد ليأوي إلى لوائه الأولون والآخرون، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: آدم ومن دونه تحت لوائي، ولهذا المعنى افتتح كتابه المنزل عليه بالحمد واشتق إسمه من الحمد فقال محمد وأحمد، وأقيم يوم القيامة المقام المحمود ويفتح عليه في ذلك المقام من المحامد ما لم يفتح على أحد قبله، ولا يفتح على أحد بعده وأمد أمته ببركته من الفضل الذي أتاه، فنعت أمته في الكتب المنزلة قبله بهذا النعت فقال : أمته الحامدون يحمدون الله في السراء والضراء ولله الحمد أولى وأخرى.

قوله : (أما أهل النار) في أكثر نسخ مسلم أهل النار، بحذف أما وعليه فالفاء في فإنهم الآتية زائدة (هم أهلها)، أي المختصون بالخلود فيها المستوجبون لعذاب الأبد، وفيه إيذان بأنه لا يسمى أهل النار إلا الكفار (فلا يموتون فيها)، أي موتا يريحهم (ولا يحيون) فيها حياة تريحهم كما قال تعالى : ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ وهذا مذهب أهل السنة أن النعيم والعذاب دائم. (ولكن ناس) أي من المؤمنين (أصابتهم نار بذنوبهم أو بخطاياهم فأماتهم) بتأين أي النار. وفي رواية مسلم : فأماتهم الله (إماتة)، أي بعد أن يعذبوا ما شاء الله، وهي إماتة حقيقية، قيل مجازية عبارة عن زهاب الإحساس بالألم ورجح الأول تأكده بالمصدر وفائدة النار مع عدم الإحساس بعذابها حصول التأديب بصرفهم عن نعيم الجنة تلك المدة ثم يحبسون في النار بلا إحساس ما شاء الله كالمسجون بدار عذاب الملك والإيمان على باب النار ينتظرهم قاله المناوي هـ.

(حتى إذا كانوا فحما)، أي كالحطب الذي أحرق حتى اسود. في الصباح : الفحم معروف قال في المصباح وقد تفتح الحاء وفحمت وجهه بالثقل سودته بالفحم، أذن لهم في الشفاعة فجاء بهم ضبائر ضبائر) بفتح الضاء المعجمة نصب على الحال، هكذا وقعت مكررة في الروايات، أي يحملون كالأمتعة جماعات منفردين في تفرقة عكس أهل الجنة، فإنهم يدخلون يتحدون بالمناكب لا يدخل آخره قبل أولهم ولا عكسه كما في خبر وهؤلاء لا يدخلون متفرقين إظهارا لأثر المخالفة عليهم، ومع ذلك ففضل الله شملهم، والضبائر جمع ضبارة بفتح الضاد المعجمة وكسرهما الحزمة قال في المصباح: ضرب الفرس جمع قوائمه وعنده إضبارة من كيت بكسر الهمزة جماعة وهي الحزمة هـ.

(فبتوا) بباء موحدة مضمونة ثم مثلثة، أي فرقوا.

قوله : (أفيضوا) أي صبوا عليهم من الماء ماء الحياة فيفيضون منه فيحيون.

قوله : (نبات الحبة)، ولفظ رواية مسلم : فينبتون منه كما تنبت الحبة وهو بكسر الحاء وشدة الموحدة حب الرياحين والعشب وبزر البقول ونحوه مما ينبت في البرية والصحراء، ما ليس بقوت (في حميل السيل) بفتح الحاء وكسر الميم ما حملة السيل من نحو طير أو غشاء، في معناه محمول السيل والمراد التشبيه في سرعة النبات وطراوته وحسن لونه وضعف النبات، فهو كناية عن سرعة نباتهم وحسن ألوانهم وضعف حالهم، ثم يشتد قواهم بعد ويصيرون إلى منازلهم فشبه سرعة عود إنباته بسرعة نباتها، وفي خبر يكتب على جباههم هؤلاء عتقاء الرحمان، وفيه رد على المرجئة حيث أفادوا دخول طائفة من الأمة النار وعلى المعتزلة لدلالته على عدم تخليد العاصي فيها والله أعلم.

قوله : (إن شفاعتي) الإضافة بمعنى العهدة، أي الشفاعة التي أعطانيها الله ووعدني بها ادخرتا (لأهل الكبائر) الذين إستوجبوا النار بذنوبهم الكبائر (من أمتي)، ومن شاء الله فيشفع لقوم في أن لا يدخلوا النار ولآخرين دخلوها أن يخرجوا منها كما تقدم. وقال الطيبي : معنى هذا الحديث أن شفاعتي التي تنجي الهالكين مختصة بأهل الكبائر وبالجملة فالشفاعة تعم أهل الكبائر وغيرهم حتى لأهل الطاعة في رفع الدرجات كما مر والله أعلم. والحديث رواه أيضا أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم عن أنس والترمذي وابن حبان والحاكم أيضا عن جابر قال الترمذي في العلل : قال جابر : ومن لم يكن من أهل الكبائر فماله وللشفاعة. ورواه أيضا الطبراني في الكبير وفي الأوسط عن ابن عباس قال الهيثمي فيه : عنده موسى بن عبد الرحمان الصنعاني وهو وضاع، ورواه الخطيب عن ابن عمرو بن العاص وعن كعب بن عجرة قال الترمذي في العلل : سألت محمدا يعني البخاري عن هذا الحديث فلم يعرفه هـ.

قوله : (خيرت) بالبناء للمفعول والفاعل هو الله، أي خيرني الله (بين الشفاعة) في عصاة المومنين (وبين أن يدخل نصف أمتي الجنة) أي بغير شفاعة فاخترت الشفاعة، لأنها أعم وأكفى إذ بها يدخل كلهم ولو بعد دخول من مات مؤمنا النار (أثرونها) إستفهام إستنكاري بمعنى النفي، أي لا يظنون الشفاعة التي اخترتها (للمتقين، ولكنها للمذنبين الخاطئين المتلوتين). قال المناوي : تنبيه قال القاضي : إن قلت ما ذكر يستدعي أن لا يدخل أحد من العصاة النار قلت : اللازم منه عموم العفو وهو لا يستلزم عدم دخول النار بجواز أن يعفو عن بعضهم بعد الدخول وقبل إستيفاء العذاب هذا

وليس بحتم أن يدخل النار أحد من الأمة، بل العفو عن الجميع بموجب وعده حيث قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وبقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ هـ.

والحديث رواه أيضا أحمد عن ابن عمر ورواه عنه أيضا الطبراني. قال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح وقال المنذري بعدما عزاه لأحمد والطبراني إسناده جيد هـ.

قوله : (يلهمون) على بناء المفعول من الإلهام (أو يهمون) على بناء الفاعل من ألهم، أي يهتمون بالأمر ويعتنو بسؤال الشفاعة وقيل : على بناء المفعول من أهتمني الأمر إذا أقلقني.

قوله : (لو تشفعنا إلى ربنا)، أي إتخذنا شفيعا لنا إليه.

قوله : (فيأتون آدم) إتيانهم آدم مع أنهم علموا في الدنيا أن المختص بهذه الشفاعة مولانا محمد ﷺ، فيحتمل أنه ممن لم يعلم ذلك أو علم، ولكنه علم أن الأمر هكذا يقع إظهارا لشرفه ﷺ بإجابته بعد عجز الجميع، ويحتمل أنه ممن علم ولكنه دهش.

قوله : (خلقك الله بيده) أي بقدرته وهو تنبيه على أن خلقه ليس كخلق بنيه من تقلبهم في الأرحام وغير ذلك من الوسائط، وإلا فكل شيء بقدرته جل وعز.

قوله : (لست هناك) يحتمل أنه تواضع أو لعلمه أنها لغيره على الجملة أو لعلمه أنها للنبي ﷺ خصوصا، ولكن علم أنه كذا يقع ومعنى ليست هناكم لست في المكان والمنزل الذي تحسبونني فيه، يريد مقام الشفاعة ويذكر ويشكو إليهم ذنبه الذي أصاب عياض تسمية الأنبياء عليهم السلام هذه الأشياء خطايا، إنما هو إشفاق إذ ليست بخطايا أما آدم عليه السلام فقد أكل نسيانا ونوح عليه

السلام دعا على قوم كفار وموسى عليه السلام قتل كافرا وإبراهيم عليه السلام دفع بقول هو بحسب مراده صدق، وعتب الله على بعضهم لعلو منزلتهم هـ لخ.

قوله : (إئتوا نوحا) قال عياض : إتيان الناس آدم عليه السلام وإحالة آدم على نوح فيه تقديم الآباء وذوي الأسنان في الأمر المهم هـ.

(فإنه أول رسول) قيل : المراد أول من أرسل إلى دعوة الكفار إلى الإيمان وكان من قبله من آدم وشئت وإدريس عليهم السلام لم يكونوا أرسلوا لذلك، وإنما أرسلوا لتعليم المؤمنين الشرائع إذ لم يكن في ذلك الوقت كافر والله أعلم.

قوله : (خليل الرحمان) أصل الخلّة الإصطفاء وقيل : الإنقطاع لأن الخليل ينقطع إلى من يخالل وقيل : من الخلّة وهي الحاجة وسمي إبراهيم عليه السلام خليلا، لأنه قصر حاجته على الله تعالى حين قال له الملك. وقد رمي في المنجنيق : ألك حاجة» : قال : أما إليك فلا. وقيل : الخلّة المحبة وقيل : صفاؤها الذي يتخيل موضع السير وللشاعر :

قد تخللت مسلك الروح مني ولذا سمي الخليل خليلا
قال النووي : قال الواحدي : لا يصح من الخلّة بمعنى الحاجة، لأنه الله تعالى خليل إبراهيم عليه السلام والحاجة عليه محال هـ.

قوله : (وكلمة الله وروحه) قال عياض : سمي عيسى عليه السلام كلمة لأنه كان عن كلمة الله، ثم اختلف فقيل : هي كن وقيل : هي التي بشر الملك بها مريم هـ.

وقال النووي قال الهروي : سمي كلمة لأنه عن الكلمة فسمي بها كما يقال للمطر رحمة الله: وقوله تعالى : ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾، أي رحمة. قال ابن عرفة : أي ليس من أب إنما نفخ في أمه الروح. وقال غيره : وروح منه أي رحمة مخلوقة من عنده، وعلى هذا تكون إضافتها إليه إضافة تشريف، كناية الله وبيت الله، وإلا فالعالم له سبحانه ومن عنده هـ.

وقيل غير ذلك والله أعلم.

قوله : (عبدا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر) عياض قيل : المتقدم ما قبل النبوة والمتأخر عصمته بعدها. وقيل : المتقدم ما وقع والمتأخر ما لم يقع على طريق الوعد وقيل : المراد بذلك أمته وقيل : المراد ما وقع سهوا أو غفلة أو تأويلا وإختاره القشيري وقيل : المعنى ما تقدم لأبيك آدم وما تأخر من ذنوب أمتك وقيل : المراد أنه مغفور له من ذنب إن لو كان وقيل : هو تنزيه له عن الذنوب. قال النووي : فعلى أن المراد أمته فالمراد بعضهم أو يعنى عدم الخلود في النار هـ..

قوله : (بين السماطين) السماط بكسر السين هو الصف من الناس.

قوله : (فأستأذن على ربي)، أي على أن أدخل في محل رؤيته أو محل الشفاعة عنده.

قوله : (فيحد لي حدا) قيل : يريد أنه يبين في كل طور من أطوار الشفاعة حدا أفق عنده فلا أتعده مثل أن يقول شفعتك فيمن أخل بالجماعات ثم يقول شفعتك فيمن أخل بالصلوات ومثله فيمن شرب الخمر ثم فيمن زنى، وعلى هذا ليريه علو الشفاعة في عظم الذنب.

قوله : (إلا من حبسه القرآن)، أي وجب عليه الخلود بنص القرآن. قال الأبى : فإن قلت الناس في الوزن ثلاثة من رجحت حسناته ومن تساوت كفتاه فهذان إلى الجنة، الأول يدخلها ابتداء والثاني بعد حبسه في الأعراف مدة والثالث من رجحت سيئاته فهذا إنما يعاقب ببقائه في النار مقدار ذلك الرجحان ثم يخرج إذا لا يخلد أحد في النار من أهل القبلة فأين أثر الشفاعة ؟ قلت : أثرها في إخراجهم قبل مكثه القدر الذي يستحق إذ لو وقعت الشفاعة عند تمامه لم تكن شفاعة هـ.

قوله : (وكان في قلبه مثقال شعيرة هـ) هذا ظاهر في أن هذه الأقدار زائدة على الإيمان، ثم يحتمل أن هذه الزيادة من الطاعات الظاهرة أو من الخفية كالخشوع والشفقة على مسلم ونحو ذلك والله أعلم.

قوله : (يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء) قال القرطبي: فأعظم بمنزلة هي بين النبوة والشهادة بشهادة المصطفى ﷺ ولما كان العلماء يحسنون إلى الناس بعلمهم الذي أفنوا فيه نفائس أوقاتهم أكرمهم الله تعالى بولاية مقام، الإحسان إليهم في الآخرة بالشفاعة فيهم جزاء وفاقا، وقد أخذ بقضية هذا الخبر جمع جم فصرحوا بأن العلم أفضل من القتل في سبيل الله، لأن المجاهد وكل عامل إنما يتلقى عمله من العالم فهو أصله وأسه وعكس آخرون، وقد رويت أحاديث من الجانبين وفيها ما يدل للفريقين قال ابن الزمكاني : وعند أنه يجب التفصيل في التفصيل وأن يحمل على بعض الأحوال أو بعض الأشخاص كل بديل هـ.

والحديث إسناده ضعيف فقد أعله ابن عدي والعقيلي بعنبرة ونقلوا عن البخاري أنهم تركوه ومن ثم جزم الحافظ العراقي بضعف الحديث والله أعلم.

قوله : (كنت إمام النبيئين) بكسر الهمزة قال القاضي : ولم يصب من فتحها ونصبه على الظرفية، وذلك لأنه لما كان أفضل الأولين والآخرين كان إمامهم فهم به مقتدون وتحت لوائه داخلون (وخطيبهم)، أي بما يفتح الله عليه من المحامد التي لم يحمد بها أحد قبله فهو المتكلم بين الناس إذا سكتوا عن الإعتذار فيعتذر لهم عند ربهم، فيطلق اللسان بالثناء على الله بما هو أهله ولم يؤذن لأحد في التكلم غيره (وصاحب شفاعتهم)، أي الشفاعة العامة بينهم أو صاحب الشفاعة لهم (غير فخر)، أي لا أقول ذلك تفاخرا به وإدعاء للعظمة، بل إعتدادا بفضله وتحدثا بنعمته، إذ المراد لا أفخر بذلك بل فخري بمن أعطاني هذه الرتبة ومنحني هذه المنحة فهو إعلام بما خفي من حاله على منوال قول يوسف، إجعلني على خزائن الأرض، وكان في أول الحديث تامة، بمعنى وجد يوم القيامة بالرفع فاعلها، وكأن الثانية ناقصة والتاء إسمها وإمام خبرها وغير فخر منصوب على الحال. والحديث رواه أحمد أيضا والترمذي والحاكم وقال : صحيح وأقره الذهبي.

قوله : (يسمون)، أي عند أهل الجنة (الجهنمين)، فيه إشارة إلى طول تعذيبهم في جهنم حتى أطلق عليهم هذا الإسم وأيسر من خروجهم فيخرجون بشفاعته قيل : ليس التسمية به تنقيصا لهم بل إستذكارا لما كانوا فيه ليزدادوا فرحا على فرح لكونهم عتقاء الله. والحديث أخرجه أيضا الترمذي ورمز الحافظ السيوطي في الجامع الصغير لحسنه.

قوله : (عن عبد الله بن أبي الجداء)، بضم الجيم وسكون المعجمة الكنانى صحابي له حديثان كذا في التقريب كأصله وقيل : ابن أبي الحمساء تميمي وقيل : كنانى وقيل : هو ميسرة الفجر.

قوله : (ليدخلن الجنة بشفاعة رجل من أمتي) قيل : هو أويس القرنى وقيل : عثمان (أكثر من بني تميم) أي القبيلة المشهورة. والحديث رواه أحمد أيضا وابن حبان والحاكم وقال : صحيح، ورواه بشر بن الفضل عن خالد هـ.

قوله : (أتدرون مثل هذا السؤال) للتشويق إلى الجواب حتى يتوجهوا إليه بكليتهم.

قوله : (هي لكل مسلم)، أي فاثبتوا على الإسلام على الدوام حتى تنالوها والله أعلم.

باب صفة النار

قوله : (إن ناركم هذه)، أي نار الدنيا بعد أن أخرجت من جهنم (جزء من سبعين جزءا من نار جهنم)، أي لو جمع حطب الدنيا فأوقد حتى صار نارا كان جزءا واحدا من أجزاء نار جهنم الذي هو سبعين جزءا أشد من حر نار الدنيا، (ولولا أنها أطفئت)، أي أزيل شدة حرها (بالماء مرتين ما أنفَعتم بها) أي ما أمكن لأحد أن يقربها ليتمكن من الانتفاع بها (وإنها لتدعوا الله أن لا يعيدها فيها) أي لشدة حرها، ومقصوده التحذير من جهنم والإعلام بفضاعتها وبشاعتها فعلى العاقل المحافظة على تجنب ما يقرب إليها من قول وعمل. والحديث رواه الحاكم أيضا وقال : صحيح الإسناد على شرط الشيخين وبعضه في الصحيحين من حديث أبي هريرة.

قوله : (إشتكت النار إلى ربها)، أي حقيقة بلسان المقال وقيل : شكواها مجاز بلسان الحال أو تكلم خازنها، أو من شاء الله عنها قال ابن عبد البر : لكلا القولين وجه ونظائر والأرجح حملة على الحقيقة أنطقها الله الذي أنطق كل شيء وقال عياض : إنه الأظهر والله قادر على خلق الحياة بجزء منها حتى تتكلم أو يخلق لها كلاما يسمعه من شاء من خلقه. وقال القرطبي : لا إحالة في حمل اللفظ على حقيقته وإذا أخبر الصادق بأمر جائز لم يحتج إلى تأويله فحملة على حقيقته أولى. وقال النووي : الصواب الحقيقة وجعل الله فيها إدراكا وتمييزا، بحيث تكلمت. ورجح البيضاوي المجاز فقال شكواها مجاز عن غليانها وأكل بعضها بعضا مجاز عن ازدحام أجزائها وتنفسها مجاز عن خروج ما يبرز منها. وقال الزين بن المنير المختار : الحقيقة لصلاحية القدرة لذلك، ولأن إستعارة الكلام للحال وإن عهدت وسمعت، لكن الشكوى وتفسيرها والتعليل له والإذن والقبول والنفس وقصره على اثنين فقط بعيد من المجاز خارج عما ألف من استعماله هـ.

قوله : (فجعل لها نفسين) وفي رواية : فأذن لها بنفسين، بفتح الفاء تثنية نفس وهو ما يدخل في الجوف ويخرج منه من الهواء فشبه الخارج من حرارتها وبردها إلى الدنيا بالنفس الخارج من جوف الحيوان (نفس في الشتاء ونفس في الصيف) هما بالجر على البذل أو البيان، ويجوز الرفع بتقدير أحدهما والنصب بتقدير أعني (فشدة ما تجدون من البرد الخ)، قال عياض قيل : معناه أنها إذا تنفست في الصيف قوي لهب تنفسها حر الشمس، وإذا تنفست في الشتاء دفع حرها شدة البرد إلى الأرض. وقال ابن عبد البر : لفظ الحديث يدل على أن نفسها في الشتاء غير الشتاء ونفسها في

الصيف غير الصيف. وقال ابن المنير : إن قيل كيف يجمع البرد والحر في النار ؟ والجواب : أن جهنم فيها زوايا فيها نار وزوايا فيها زمهرير، وليست محلا واحدا يستحيل أن يجتمعا فيه. وقال مغلطاي لقائل أن يقول الذي خلق الملك من ثلج ونار قادر على جمع الضددين في محل واحد وأيضا فالنار من أمور الآخرة لا تقاس على أمر الدنيا. وقال ابن العربي : فيه إشارة إلى أن جهنم مطبقة محاط عليها بجسم يكتنفها من جميع نواحيها، والحكمة في التنفيس عنها إعلام الخلق بأنموذج منها هـ.

وفي الطبراني الكبير بسند حسن عن أبي ابن مسعود قال : تطلع الشمس من جهنم في قرن شيطان وبين قرني شيطان فما ترفع من قبضة إلا فتح باب من أبواب النار، فإذا اشتد الحر فتحت أبوابها كلها قال السيوطي : وهذا يدل على أن التنفيس يقع من أبوابها وعلى أن شدة الحر من فيح جهنم هـ.

قوله : (ألف سنة فابيضت) الظاهر أنه أراد بالآلف فيه وفيما بعده التكاثر وأن المراد الزمن الطويل.

قوله : (فهى سوداء كالليل المظلم) قال الطيبي: هذا قريب من قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، أي يوقد الوقود فوق النار، أي النار ذات طبقات توقد كل طبقة فوق أخرى هـ.

وقيل : ما خلق الله النار إلا من كرمه، جعله الله سوطا يسوق به المؤمنين إلى الجنة. وقال بعضهم : النار أربعة نار لها نور بلا حرقه وهي نار موسى عليه السلام ونار لها حرقه ولا نور لها وهي نار جهنم ونار لها حرقه ونور وهي نار الدنيا ونار لا حرقه لها ولا نور وهي نار السحر هـ.

والحديث رواه أيضا الترمذي مرفوعا وموقوفا قال الترمذي :
وقفه أصح، ورواه البيهقي عن أنس قال : تلا رسول الله ﷺ هذه
الآية : ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ ثم ذكره.

قوله : (إغمسوه غمسة في الجنة)، أي أدخلوه فيها ساعة قدر ما
يغمس في الماء ونحوه، فإطلاق الغمس هنا بالمشاكلة ويحتمل أن
المراد الغمس في أنهار الجنة والله أعلم.

قوله : (إن الكافر ليعظم) أي لتكبر جثته في النار (حتى أن
خرسه لأعظم من أحد)، أي حتى يصير أكبر من جبل أحد،
(وفضيلة جسده)، أي زيادته وعظمه (على خرسه) لخ،

أي نسبة زيادة جسد الكافر على خرسه كنسبة زيادة جسد
أحدكم على خرسه، وأمر الآخرة وراء طور العقول فنؤمن بذلك ولا
نبحث عنه، وإذا كان خرسه مثل جبل أحد فجثته مثله سبعين مرة
أو أكثر، وقد استبعد هذا الخبر وما في معناه مما ورد في صفة
الكافر في النار قوم من الذين إتبعوا أهواءهم بغير علم ولا هدى
إعجابا برأيهم وتحكما على السنة بعقول ضعيفة وأنهام سخيفة،
وما دروا أن الله سبحانه وتعالى لم يبين أمور الدنيا على عقول
البشر، بل أمر ونهى بحكمته ووعد واحد بمشيئته ولو كان كل ما
لا تدركه العقول غير مقبول لاستحالت أكثر واجبات الشرع، وذلك
باب واسع يطول تتبعه، وإذا كان ذلك في أمور الدنيا فما بالك بأمر
الآخرة التي ليس منها شيء على نمط ما في الدنيا ولا يشبهه إلا في
مجرد الاسم والله أعلم. والحديث في إسناده عطية العوفي وتقدم أنه
ضعيف وكذا الراوي عنه ضعيف أيضا، وقد روى مسلم في
صحيحه والترمذي بعضه من حديث أبي هريرة.

قوله : (إن من أمتي) قيل : تحمل الأمة أولا على أمة الإجابة وثانيها على أمة الدعوة، ويحتمل أن يحمل في الموضعين على أمة الدعوة بناء على أنها تعم أمة الإجابة دون العكس. والحديث قال في الزوائد : في إسناده عبد الله بن أقيس النخعي ذكره ابن حبان في الثقات وقال : أحسبه الذي روى عنه أبو إسحاق عن ابن عباس وقال : لم يرو عنه غير داوود بن هند وليس إسناده بالصافي هـ.

قوله : (كهيفة الأخدود لو أرسلت فيه السفن لجرت)، أي لعظمته. والحديث في إسناده يزيد ابن أبان الرقاشي وتقدم أنه ضعيف.

قوله : (من الزقوم) شجرة خبيثة كريهة الطعم والريح، ويكره أهل النار على تناولها.

قوله : (فكيف بمن ليس له طعام غيره ؟) قال أبو الدرداء : يلقي عليهم الجوع حتى يعدل ما بهم من العذاب، فيستغيثون فيغاثون بطعم ذي غصة وعذاب أليم. والحديث رواه أيضا أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم قال الترمذي : حسن صحيح.

قوله : (إلا أثر السجود)، أي من الأعضاء السبعة المأمور بالسجود عليها، (حرم الله عز وجل على النار أن تاكل أثر السجود) إكراما للمصلين وإظهارا لفضلهم.

قوله : (يؤتى بالموت يوم القيامة) وفي رواية لمسلم : يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح زاد أبو كريب فيوقف بين الجنة والنار.

قوله : (فيذبح) لم يذكر الذابح فقليل : فيما نقله القرطبي عن بعض الصوفية أنه يحيى ابن زكرياء بحضرة النبي ﷺ إشارة إلى دوار الحياة وعن بعض التصانيف قال في الفتح وهو تفسير إسماعيل بن أبي زياد الشامي أحد الضعفاء في آخر حديث الطور الطويل أنه جبريل عليه السلام قال في المصابيح، على تقدير كونه يحيى، ففي إختصاصه من بين الأنبياء، بذلك لطيفة وهي مناسبة إسمه لإعدام الموت، وليس فيهم من إسمه يحيى غيره، فالمناسبة فيه ظاهرة وعلى تقدير كونه جبريل، فالمناسبة لاختصاصه بذلك لائحة أيضا من حيث هو معروف بالروح الأمين، وليس في الملائكة من يطلق ذلك عليه غيره، فجعل أمينا على هذه القضية المهمة وتولى الذبح فكان في ذبح الروح للموت المضاد لها مناسبة حسنة يمكن رعايتها، والإشارة بها إلى بقاء كل روح من غير طر والموت عليها بشارة للمؤمنين وحسرة على الكافرين والله تعالى أعلم.

باب صفة الجنة

آخرها ليكون ختم الكتاب بها تفاؤلا بحسن الخاتمة رزقنا الله إياها بفضله وكرمه.

قوله : (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت) قال في شرح المشكاة : ما هنا إما موصولة أو موصوفة، وعين وقعت في سياق النفي فأفاد الإستغراق والمعنى : ما رأت العيون كلهن ولا عين واحدة منهن، والأسلوب من باب قوله تعالى : ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾، فيحتمل نفي الرؤية والعين معا، أو نفي

الرؤية فحسب أي لا رؤية ولا عين، أو لا رؤية وعلى الأول الغرض منه نفي العين وإنما ضمت إليه الرؤية ليؤذن أن إنتفاء الموصوف أمر محقق لا نزاع فيه، وبلغ في تحقيقه إلى أن صار كالشاهد على نفي الصفة وعكسه ومثله قوله : (ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)، من باب قوله تعالى : ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ﴾، أي لا قلب ولا خطور أو لا خطور، فعلى الأول ليس لهم قلب يخطر فجعل إنتفاء الصفة دليلاً على إنتفاء الذات، أي إذا لم تحصل ثمرة القلب وهو الإخطار فلا قلب كقوله تعالى : ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ وخص البشر هنا دون القرينتين السابقتين، لأنهم الذين يشفعون بما أعد لهم ويهتمون لشأنه ببالهم بخلاف الملائكة. قال المناوي : ومعنى الحديث أنه تعالى إدخر في الجنة من النعيم والخيرات واللذات ما لم يطلع عليه أحد من الخلق بطريق من الطرق، فذكر الرؤية والسمع، لأن أكثر المحسوسات تدرك بهما، والإدراك ببقية الحواس أقل، ولا يكون غالباً إلا بعد تقدم رؤية أو سماع، ثم زاد أنه لم يجعل لأحد طريقاً إلى توهمها بذكر وخطور على قلب فقد جلت عن أن يدركها فكر وخاطر واستشكاله بأن جبريل رآها في عدة أخبار وأجيب : بأنه تعالى خلق ذلك فيها بعد رؤيتها، وبأن المراد عين البشر وآذانهم، وبأن ذلك يتجدد لهم في الجنة كل وقت وبأن جبريل إنما ينظر ما أعد لعامتهم، ولهذا قال بعض العارفين : المراد هنا التجليات الإلهية التي يتفضل بها الحق في الآخرة على خواصه لأنها نعم خالقيات، وأما النعم الخلقيات التي أخبر بها النبي ﷺ في جنة النعيم فقد رأتها الأعين وسمعتها الآذان وخطرت على قلوب البشر، وإلا لما أخبرها أحد، وأما التجليات الإلهية التي يتفضل بها الحق في

الآخرة على خواصه، فما رأتها عين ولا سمعت حقيقتها أذن ولاخطرت على قلب بشر، إذ كل ما يخطر بالبال أو يمر بالخيال فإله بخلافه بكل حال هـ.

قال أبو هريرة : (ومن بله ما قد أطلعكم الله عليه)، بله بفتح الموحدة وسكون اللام وفتح الهاء قيل : معناه دع ما أطلعكم عليه، فإن الذي لم نطلعكم عليه أعظم، فكأنه أضرب عن المعلوم منه إستقلالا له في جنب ما لم يعلم وقيل : معناه غير وقيل : كيف، (إقرأوا إن شأتم فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) جزاء مفعول له، أي أخفي للجزاء فإن إخفاءه لعلو شأنه أو مصدر مؤكد لمعنى الجملة قبله، أي جزوا جزاء وقول الزمخشري : فحسم إطماع المتمنين يعني بقوله جزاء بما كانوا يعملون عنه نزغة إعتزالية ومراده بالمتمنين أهل السنة القائلين بأن المؤمن العاصي موعود بالجنة لا بد له منها وفاء بعهده تعالى، لأنه وعده بها ووعدده حق، لصدق الوعد في النفوس وتصويره بصورة المستحق بالعمل كالأجرة من مجاز التشبيه والله تعالى أعلم.

قوله : (لشبر في الجنة خير من الدنيا وما فيها)، أي لأن محل الشبر باق والدنيا فانية والباقي وإن قل خير من الفاني وإن كثر. والحديث في إسناده حجاج بن أرطاة وعطية العوفي وتقدم أنهما ضعيفان، ورواه أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود ورمز الحافظ السيوطي في الجامع الصغير لحسنه والله أعلم.

قوله : (موضع سوط في الجنة)، أي أدنى مكان وأقله وخص السوط بالذكر لأن من شأن الراكب إذا أراد النزول في منزل أن يلقي سوطه قبل أن ينزل معلماً بذلك المكان الذي يريده ليلا يسبقه إليه أحد (خير من الدنيا وما فيها)، لأن الجنة مع نعيمها لا انقضاء

لها والدنيا وما فيها لها زوال وانقضاء وهذا محل السوط، فما الظن بأعلى ما فيها وهو التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم الذي ينسي في لذته كل نعيم والله أعلم.

قوله : (الجنة مائة درجة كل درجة منها)، وفي رواية البخاري: كل درجتين، وفي رواية له أيضا : ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض. وفي رواية الترمذي : إنه مائة عام وفي الطبراني : خمسمائة عام وعند ابن خزيمة في التوحيد من صحيحه وابن أبي عاصم في كتاب السنة عن ابن مسعود : بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام. وفي رواية : وغلظ كل سماء مسيرة خمسمائة عام، والعرش، فوق الماء والله فوق العرش، أي ملكه وعظمته وجلاله، ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم، (وإن أعلاها الفردوس وإن أوسطها الفردوس). قال ابن حبان : المراد بالأوسط السعة وبالأعلى الفوقية هـ.

وقيل : الأوسط الأفضل فلا منافاة بين قوله أعلى وأوسط. وقال السيوطي في حاشية الترمذي قال ابن القيم في كتابه : نكتب شتى وفرائد حسان أنزه الموجودات وأظهرها وأنورها وأشرفها وأعلاها ذاتا وقدرًا وأوسطها عرش الرحمان جل جلاله، وكل ما كان أقرب إلى العرش كان أنور وأزهر وأشرف مما بعد عنه، ولهذا كانت جنة الفردوس أعلى الجنان وأشرفها وأنورها وأجلها لقربها من العرش إذ هو سقفها وكلما بعد عنه كان أظلم وأضيق، ولهذا كان أسفل سافلين شر الأمكنة وأضيقها وأبعدها من كل خير هـ.

(منها تفجر أنهار الجنة) أي الأربعة في قوله تعالى : ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ الآية، وأصل تفجر تتفجر فحذفت إحدى التاءين تخفيفا وقيل : الفردوس مستنزه أهل الجنة. وفي الترمذي :

هو ربوة الجنة (فإذا سألتم الله)، أي أردتم سؤاله (فاسألوه الفردوس). قال المناوي : واستشكل بخبر أحمد عن أبي هريرة مرفوعا : إذا صليتم علي فاسألوا الله لي الوسيلة أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا هو. وفي حديث آخر : الوسيلة درجة عند الله ليس فوقها درجة فاسألوا الله لي الوسيلة فقضيته أن الوسيلة أعلى درجات الجنة، وهي خاصة به فهي أعلى الفردوس وجمع بأن الفردوس أعلى الجنة، وفيه درجات أعلاها الوسيلة ولا مانع من انقسام الدرجة الواحدة إلى درجات بعضها أعلى من بعض ثم إن ما ذكر من الأمر بسؤال الفردوس لا يعارضه خبر : إذا سألتم الله فاسألوه العفو والعافية، لأن المراد السؤال لكل مطلوب، لكن الأول أخروي والثاني عام هـ.

قوله : (الا مشمر للجنة)، من التشمير أي ألا فيكم ساع لها غاية السعي طالب لها عن صدق رغبة، (فإن الجنة لا خطر لها). قال السيوطي : أي لا مثل لها ولا يقال إلا في الشيء الذي له قدر ومزية هـ.

وعلى هذا هو بخاء معجمة وطاء مهملة مفتوحتين من قولهم هذا خطر لهذا، أي مثل له في القدر، ويحتمل أن يكون بحاء مهملة مفتوحة وطاء معجمة ساكنة، أي لا منع لها من أن تطلب أي أنها من الأمور التي يمكن طلبها وحصولها وهي من الخير بمكان فكيف الغفلة عنها ؟ (هي ورب الكعبة نور يتلأأ وريحانة تهتز)، أي تتحرك بهبوب الرياح عليها.

قوله : (ونهر مطرد) بضم الميم وفتح الطاء المشددة وكسر الراء، أي جار عليها من اطرد الشيء، أي تبع بعضه وجرى.

قوله : (في حبرة) بفتح الحاء المهملة وسكون الموحدة، أي نعمة وسعة عيش، (ونضرة) هي حسن الوجه وجماله، والحديث قال الحافظ المنذري : رواه ابن ماجة وابن أبي الدنيا والبزار وابن حبان في صحيحه والبيهقي، كلهم من رواية محمد بن مهاجر عن الضحاك المغافري عن سليمان بن موسى عنه، ورواه ابن أبي الدنيا أيضا مختصرا قال : عن محمد بن مهاجر الأنصاري : حدثني سليمان بن موسى كذا في أصول معتمدة : لم يذكر فيه الضحاك وقال البزار : لا نعلم من رواه عن الضحاك إلا هذا الرجل محمد بن مهاجر. قال المنذري : محمد بن مهاجر وهو الأنصاري ثقة احتج به مسلم وغيره، والضحاك لم يخرج له من أصحاب الكتب الستة أحد غير ابن ماجة ولم أقف فيه على جرح ولا تعديل لغير ابن حبان، بل هو في عداد المجهولين وسليمان بن موسى هو الأشدق وثق وقال النسائي : ليس بالقوي وقال البخاري : عنده مناكير هـ.

قوله : (أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر)، أي في الإضاءة والحسن (ثم الذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري)، بضم الدال وكسرهما وراء وياء مشددتين، أي مضيء متلألاً كالزهرة في صفائها وزهرتها منسوب إلى الدرر أو فعيل من الدرء بالهمزة فإنه يدفع الظلام بضوئه (في السماء). قال المحقق أبو زرعة ورد في هذا المعنى ما يقتضي ما هو أبلغ من صورة القمر، فروى الترمذي مرفوعا : لو أن رجلا من أهل الجنة أطلع فبدت أساوره لطمست ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم، وقد يقال إنهم يكونون على صورة القمر عند دخولهم الجنة، ثم يزداد إشراق نورهم فيها بدليل قوله : لو أن رجلا لخ أو يقال

المذكور هنا إشراق وجوههم من غير حلي والمذكور ثم إشراق حليهم بدليل قوله : فبدت أساوره، فالزيادة للحلي لا للوجوه هـ.

وقال الأبي في شرح مسلم : الأظهر عدم إنحصار الداخلين في زمرتين وهو دليل وسبق الذين إتقوا ربهم إلى الجنة زمرا هـ.

(لا يولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون). قال القرطبي : هذه فضلات مستقدرة ولا مستقدر في الجنة، ولما كانت أغذية أهل الجنة في غاية اللطافة والاعتدال، لم يكن لها فضلة مستقدرة بل تستطاب وتستلذ وهي التي عبر عنها بالمسك في قوله : (ورشحهم المسك). وقد جاء في لفظ آخر : لا يولون ولا يتغوطون، وإنما هو عرق يجري من أعراضهم مثل المسك، يعني من أبدانهم هـ.

(ولا يتفلون) هو بكسر الفاء وضمها، وأما تفل بالكسر يتفل فهو نتن الرائحة، ولو روى هنا بالفتح لصح معناه (أمشاطهم الذهب)، وفي رواية البخاري : أمشاطهم الذهب والفضة، أي يتمشطون بها لا لإتساخ شعورهم بل للتلذذ (ورشحهم المسك) أي عرقهم كالمرهم في طيب ريحه (ومجامرهم) بفتح الميم الأولى (الألوة) بفتح الهمزة وتضم، وبضم اللام وتشديد الواو، وحكي كسر الهمزة وتخفيف الواو. وفي اليونانية وتسكن اللام. قال الأصمعي : أراها فارسية عربت العود الهندي الذي يتبخر به، أو المراد عود مجامرهم الألوة ويؤيده رواية البخاري : وقود مجارهم الألوة، لأن المراد الجمر الذي يطرح عليه، واستشكل بأن العود إنما يقوم ريحه بوضعه في النار والجنة لا نار فيها. وأجيب : باحتمال أن يكون في الجنة نار لا تسلط لها على الإحراق إلا إحراق ما يتبخر به خاصة، ولم يخلق الله فيها قوة يتأذى بها من يمسخها أصلا، أو باحتمال أن يشتعل بغير نار بل بقول كن، وإنما سميت مجمرة باعتبار ما كان في

الأصل أو يقوم بغير استعمال والله أعلم. (أخلاقهم في خلق رجل واحد). روي بفتح الخاء وسكون اللام وهذا أنسب بقوله : على صورة أبيهم آدم وبضمها، وهذا أنسب بقوله : أخلاقهم وقد رجح الوجه الثاني بأن يجعل قوله على صورة أبيهم آدم كلاما مستأنفا ولا يجعل بدلا من قوله : على خلق رجل واحد، أي هم على صورة أبيهم قيل : وهذا أيضا أبلغ لما فيه من بيان والخلق جميعا والأول لا يناسب قوله : أخلاقهم أصلا وتكثر فوائد صاحب الشرع أرجح، والأظهر في الذراع أنه المعروف، لأن الإحالة إنما تكون على معلوم والله أعلم.

قوله : (الكوثر : فوعل من الكثرة المفرطة. (نهر في الجنة حافظاه من ذهب) يحتل مثل الذهب في النضارة والضياء ويحتل الحقيقة وأخذ بها جمع مفسرون فرجحوا أنه نهر في الجنة ورجح آخرون أنه حوض في القيامة لخبر مسلم ولكل وجهة هو موليها. (مجره على الياقوت والدر) أي اللؤلؤ لا يعارضه ما في رواية أن طينه مسك بجواز أن المسك تحت اللؤلؤ والياقوت كما يدل له قوله : (تربته أطيب من المسك وماؤه أحلى من العسل وأشد بياضا من الثلج) ولا يلزم من ذلك الاستغناء عن أنهار العسل كما توهم لأنها ليست للشرب. والحديث رواه أحمد أيضا والترمذي ورمز السيوطي في جامعه لحسنه. وروى ابن أبي الدنيا عن ابن عباس مرفوعا في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ هو نهر في الجنة عمقه سبعون ألف فرسخ، ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل، شاطئه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت خص الله به نبيه قبل الأنبياء.

قوله : (إن في الجنة شجرة) قيل : هي شجرة طوبى ويحتاج لتوقيف، والشجر من النبات ما قام على ساق (يسير الراكب). زاد

في رواية الجواد بالتخفيف، أي الفائق أو السابق الحيد المضر
بضاء معجمة مفتوحة وميم مشددة، أي الذي قلل علفه تدريجيا
ليشتد جريه (في ظلها)، أي ناحيتها وأشار بذلك إلى امتدادها إذ
الجنة لا شمس فيها ولا أذى (مائة سنة). وفي رواية سبعين ولا
تعارض لأن المراد التكثر لا التحديد أو أن بعض أغصانها سبعين
وبعضها مائة (ولا يقطعها). زاد أحمد وهي شجرة الخلد، والجملة
حال من فاعل يسير يعني لا يقطع الراكب المواقع التي تسترها
أغصان الشجرة، وفي ذكر كبر الشجرة رمز إلى كبر التمرة ومن ثم
ورد أن نبقها كقلال هجر وذا أبين لفضل المؤمن وأجلب لمسرتة.

قوله : (في سوق الجنة) قال عياض : المراد بالسوق هنا موضع
يجتمعون فيه كما يجتمعون في الدنيا، وسميت السوق سوقا لسوق
الناس إليها بضائعهم هـ.

وقال القرطبي : يحتمل هذا السوق أنه موضع يجتمعون فيه
للتزاور، لأن أهل الجنة لا يفقدون شيئا حتى يحتاجون إلى شرائه
من السوق، ويحتمل أنها سوق تشتمل على المشتريات كما أن
الأسواق في الدنيا كذلك حتى إذا جاء أهل الجنة ورأوا ما فيها من
المشتريات أخذ كل ما يشتهي بغير عوض هـ.

قوله : (في مقدار يوم الجمعة)، أي في مقدار الأسبوع والظاهر
أن المراد يوم الجمعة فقد ورد في فضائل يوم الجمعة أنه يكون في
الجنة يوم جمعة كما كان في الدنيا.

قوله : (ويجلس أدناهم)، المراد أدناهم مرتبة وأقلهم درجة
بالنسبة إلى من عداه، وليس المراد من قوله : أدناهم أخسهم من
الدناءة بمعنى الخسة، ولدفع هذا التوهم قال : وما فيهم دنىء أي
خسيس.

قوله : (ولا يبقى في ذلك المجلس أحد إلا حاضره الله) محاضرة بجاء مهملة وضاء معجمة هي الكلام مشافهة، والمراد هنا كشف الحجاب والمقاربة بلا واسطة وترجمان كما كان لموسى عليه السلام.

قوله : (يذكر بعض غدراته) بفتحات جمع غدره، وهو ترك الوفاء، والمراد ارتكاب المعاصي الذي فيه نقض عهد الربوبية وترك الوفاء بحقوقها.

قوله : (فيروعه ما يرى عليه) الضمير المجرور إلى الرجل ذي المنزلة، فالروع بمعنى الإعجاب، أي يعجبه حسنه فيدخل في روعه أن يتمنى مثل ذلك لنفسه يدل عليه قوله : (فما ينقضي آخر حديثه)، أي ما ألقى في روعه من الحديث حتى يتمثل له عليه أحسن منه لـخ. والحديث رواه الترمذي أيضا كالمؤلف كلاهما من رواية عبد الحميد بن حبيب بن أبي العشرين عن الأوزاعي عن حسان بن عطية عن سعيد وقال الترمذي : حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. قال المنذري وعبد الحميد : هو كاتب الأوزاعي مختلف فيه ضعفه دحيم. وقال النسائي : ليس بالقوى ووقفه أحمد وأبو حاتم وبقية رواة الإسناد ثقات، وقد رواه ابن أبي الدنيا عن هقل بن زياد كاتب الأوزاعي أيضا واسمه محمد وقيل : عبد الله وهو ثقة ثبت أحتج به مسلم وغيره من الأوزاعي قال : نبئت أن سعيد بن المسيب لقي أبا هريرة فذكر الحديث هـ.

قوله : (ما من أحد يدخله الله الجنة، إلا زوجه ثنتين وسبعين زوجة)، أي جعلهن زوجات له وقيل : قرنه بهن من غير عقد تزويج (ثنتين من الحور العين وسبعين من ميراثه من أهل النار). قال هشام أحد رواة كما عند المؤلف يعني رجالا دخلوا النار

فوررث أهل الجنة نساءهم كما ورثت امرأة فرعون. قال المناوي : وأخذ منه أن الله تعالى أعد لكل واحد من الخلق زوجتين، فمن حرم ذلك بدخوله النار من أهلها وزعت زوجاتهم على أهل الجنة، كما توزع المنازل التي أعدت في الجنة لمن دخل النار من أهلها كما يوضحه خبر وهو ما ختم به المؤلف كتابه هذا، ما من أحد إلا وله منزلان الحديث، وظاهره استواء أهل الجنة في هذا العدد من الزوجات إثنتين منهن بطريق الأصالة وسبعين بطريق الوراثة عن أهل النار فيستنبط منه أن نسبة رجال أهل الجنة إلى رجال أهل النار كنسبة سدس سدسهم، وهو نسبة الإثنتين إلى جملة إثنين وسبعين، لأن سدسها إثنى عشر، وظاهره أيضا أن هذه الزوجات كلهن من الحور، لأن إثنتين اللتين لكل واحد بطريق الأصالة منهن، فاللاتي بطريق الإرث كذلك فهن غير الزوجات من الإنس وقد جاء مصرحا به في خبر أحمد أن أدنى أهل الجنة منزلة من له سبع درجات وهو على السادسة وفوقه السابعة إلى أن قال : وله من الحور العين إثنتين وسبعين زوجة سوى أزواجه من الدنيا، وقضية هذا الخبر استواء أهل الجنة في ذلك وأنه لا يزداد على هذا العدد ولو للبعض، وعورض بخبر الترمذي أن أدنى أهل الجنة منزلة الذي له تمانون ألف خادم وإثنتان وسبعون زوجة. وأجيب : بحمل ذلك على الآدميات وذا على الحور. وقال ابن حجر : ما ذكر من العدد قد ورد في أخبار آخر أقل منه وأكثر ما وقفت عليه ما أخرجه أبو الشيخ في العظمة والبيهقي في البعث من حديث ابن أبي أوفى رفعه أن الرجل من أهل الجنة ليزوج خمسمائة حوراء وأنه ليفضي إلى أربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب، وفيه راو لم يسم. وفي الطبراني : أن الرجل من أهل الجنة ليفضي إلى مائة عذراء قال

ابن القيم : ليس في الأخبار الصحيحة زيادة على زوجتين سوى ما في حديث أبي موسى أن في الجنة لخيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلا في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمن، واستدل أبو هريرة بهذا الحديث ونحوه على أن النساء في الجنة أكثر من الرجال كما خرج مسلم وغيره.

قوله : (ما منهن واحدة إلا لها قبل شهى وله ذكر لا ينتني)، أي وإن توالى جماعه وكثر فإن قيل : فائدة المنكوح التوالد وحفظ النوع وهو مستغنى عنه في الجنة قيل : مناكح الجنة وسائر أحوالها إنما تشارك نظائرها الدنيوية في بعض الصفات والإعتبارات، لا في تمام حقيقتها حتى يستلزم جميع ما يلزمها ويفيد عين فائدتها والله أعلم.

والحديث قال الدميري : انفرد به ابن ماجة أي وفيه خالد بن يزيد وهاه ابن معين مرة وكذبه أخرى وساق الذهبي من مناكيره هذا الخبر. وقال ابن حجر : سنده ضعيف جدا هـ.

قوله : (المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة)، أي حدوثه له (كان حمله ووضع وسنه في ساعة واحدة كما يشتهي)، أي من جهة القدر والشكل والهيئة وغيرها والمراد أن ذلك يكون إن اشتهى كونه، لكنه لا يشتهي ذلك فلا يولد فلا تعارض بينه وبين خبر العقيلي بسند صحيح أن الجنة لا يكون فيها ولد قال الترمذي بعد روايته الحديث الباب قد اختلف أهل العلم في هذا فقال بعضهم : في الجنة جماع ولا يكون ولد، وهكذا يروى عن طاوس ومجاهد وإبراهيم النخعي وقال محمد وإسحاق بن إبراهيم في حديث النبي ﷺ : إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة، هذا إذا إشتهى ولكن لا يشتهي هـ.

قوله : (إني أعلم آخر أهل النار)، أي من العصاراة (خروجاً منها)، أي من النار نفسها أو من مروره على الصراط المنسوب عليها (وآخر أهل الجنة دخولا الجنة رجل يخرج من النار حبوا) بفتح الحاء وسكون الموحدة وهو المشي على اليدين والرجلين أو الركبتين أو المقعدة. وفي رواية أنس عن ابن مسعود عند مسلم : آخر من يدخل الجنة رجل فهو يمشي مرة ويكبوا مرة وتسفعه النار مرة فإذا جاوزها التفت إليها فقال تبارك الذي نجاني منك (فيقال له). وفي رواية : فيقول الله تعالى : (إذهب فادخل الجنة فيأتيتها فيخيل إليه أنها ملأى)، بفتح الميم والهمزة بينهما لام ساكنة كأنه تعالى يخفي عليه منزله فيخيل إليه من كثرة الأهل أنه ما بقي فيها منزل.

قوله : (فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها) قال الأبى : أظهر أنه يعني بالدنيا المعمور من الأرض لتقديره في بعض الطرق بملك ملك، وإنما يملك منها المعمور هـ.

(أو أن لك مثل عشرة أمثال الدنيا فيقول : أتسخر بي أو تضحك بي وأنت الملك ؟) أي العظيم الشأن استبعد أن يكون له هذا النعيم العظيم بعد أن كان في عذاب الجحيم ولم ير نفسه أهلاً لذلك. قال عياض : أسخفه الفرح بما أعطي وقال ذلك وهو غير ضابط لما يقول كما جاء في الذي وجد ضالة بعد أن أشرف على الهلاك من العطش اللهم أنت، عبيدي وأنا ربك فقال النبي ﷺ : أخطأ من شدة الفرح.

قوله : (ضحك حتى بدت نواجذه) بالذال المعجمة قال المازري : هي الضواحك أي الثنايا، لأن ضحكه ﷺ كان التبسم. الأصمعي هي الأضراس، ثعلب هي الأنياب، النووي : والمشهور لغة الأضراس،

وإنما ضحك ﷺ استعجاباً وسروراً بما رأى من كمال رحمته سبحانه وتعالى ولطفه على عبده المذنب، وكمال الرضى عنه والله أعلم.

قوله : (من سأل الجنة)، أي دخولها بصدق وإيقان وحسن نية (ثلاث مرات قالت الجنة : اللهم أدخله الجنة ومن استجار من النار ثلاث مرات قالت النار : اللهم أجره من النار). قال المناوي : هذا القول يحتمل كونه بلسان المقال بأن يخلق الله فيها الحياة والنطق وهو على كل شيء قدير أو بلسان الحال وتقديره قالت خزنة الجنة من قبيل قوله تعالى : ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾ ويؤيده ذكر الجنة في قوله : اللهم ادخله الجنة، وإلا لقالت : اللهم أدخله إياي، ويحتمل كونه إلتفات من التكلم إلى الغيبة وكذا الكلام في قوله : قالت النار. وجاء في رواية ذكر العدد في الاستجارة من النار ثلاثاً وحذفه في سؤال الجنة، وهو تنبيه على أن الرحمة تغلب الغضب، وعلى أن عذابه شديد إن الله شديد العقاب، فيكفي في طلب الجنة السؤال الواحد بخلاف الإستجارة من النار. قال السمهودي : لك أن تقول ما الحكمة في تخصيص الثلاث مع أن الحسن ابن سفيان روى عن أبي هريرة مرفوعاً، ما سأل الله عز وجل عبد الجنة في يوم سبع مرات، إلا قالت الجنة : يا رب إن عبدك فلانا سألني فأدخله في. وفي رواية لأبي يعلى بإسناد على شرط الشيخين : ما استجار عبد من النار سبع مرات إلا قالت النار : يارب إن عبدك فلانا استعاز بك مني فأعذه وأدخله الجنة. وفي رواية للطيالسي : من قال أسأل الله الجنة سبعاً قالت الجنة : اللهم أدخله الجنة. وفي رواية : أن العبد إذا أكثر مساءلة الله الجنة قالت الجنة : يارب إن عبدك هذا سألنيك فأسكنه إياي، الحديث وأجيب : بأنه خص

الثلاث في هذا الحديث، لأنها أول مراتب الكثرة والسبعة في غيرها، لأنها أول مراتب النهاية في الكثرة لاشتمالها على أن أقل الجمع من الأفراد وأقل الجمع من الأزواج. والحديث رواه الترمذي أيضا والنسائي والحاكم وقال : صحيح، وسكت عليه الذهبي، وقد رواه ابن حبان في صحيحه بهذا اللفظ من هذا الوجه، وفيه حث على كثرة سؤال الجنة والتعوذ من النار : اللهم أجرنا من النار بعفوك وأدخلنا الجنة برحمتك يا عفو يا رحيم.

قوله : (ما منكم من أحد إلا له منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله)، فذلك قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾، فكل إنسان من مؤمن وكافر قابل إن يكون من أهل الجنة ومن أهل النار، فإذا دخل الجنة خلفه الكافر في منزله من النار، والذي كان قابلا أن يكون فيه وقيل : معنى الوراثة في الآية هو أن يؤول أمرهم إلى الجنة وينالوها كما يؤول أمر الميراث إلى الوارث والله أعلم.

اللهم أرزقنا نصيبا من هذه الوراثة واختم لنا بالسعادة التي ختمت بها لأوليائك واجعل خير أيامنا وأسعدها يوم لقائك، ونعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع وعمل لا يرفع ودعاء لا يسمع، وقد آن أن أثني عنان القلم، وأستغفر الله مما زلت به القدم ووقع لي من الزلل والخطئ ملتصبا من وقف عليه من الفضلاء أن يسد بسداد فضله ما عثر عليه من الخل، فقلما يخلو مصنف من الهفوات أو ينجوا مؤلف من العثرات، وأسأله سبحانه أن يجعله وسلة إلى رضاه والجنة وكما من به يتم بالقبول تلك المنة أنه جواد رحيم كريم.

هذا وقد ورد في ختم المجلس أحاديث منها ما أخرجه الترمذي وغيره عن أبي هريرة رفعه ما جلس أحد في مجلس فكثرت فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. إلا غفر له فيما كان في مجلسه ذلك. وفي رواية للنسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما جلس رسول الله ﷺ مجلسا ولا تلا قرآنا ولا صلى صلاة إلا ختم ذلك بكلمات فقلت : يارسول الله أراك ما تجلس مجلسا ولا تتلوا قرآنا ولا تصلي صلاة إلا ختمت بهؤلاء الكلمات : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك قال : نعم من قال خيرا كن طابعا له على ذلك الخير، ومن قال شرا كن كفارة له. وروى أبو داود عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : كلمات لا يتكلم بها أحد في مجلس لهو عند قيامه ثلاث مرات إلا كفرن عنه ولا يقولهن في مجلس خير ومجلس ذكر إلا ختم له بهن عليه كما يختم بالخاتم على الصحيفة : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك. وروى البغوي عن سيدنا علي كرم الله وجهه قال : من أراد أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه : سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين. يقول مقيدة أفقر الخلق إلى الله وأحوجهم إلى رحمته محمد الحفيد بن عبد الصمد بن محمد التهامي بن محمد المدني الكنوني الحسني الإدريسي غفر الله ذنوبه وستر بمنه وكرمه عيوبه كان الفراغ من إخراجه من مبيضته يوم الإثنين العشرين من شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وألف. رزقنا الله خيره وخير ما بعده ووقانا شره وشر ما بعده آمين والحمد لله رب العالمين.

إنتهى هـ عام 1373هـ

الفهرس

3	أبواب الفتن.....
5	باب الكف عمن قال لا إله إلا الله.....
7	باب حرمة دم المؤمن وماله.....
8	باب النهي عن النهبة.....
9	باب سباب المسلم فسوق وقتاله كفر.....
10	باب لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض.....
12	باب المسلمون في ذمة الله.....
13	باب العصية.....
13	باب السواد الأعظم.....
14	باب ما يكون من الفتن.....
22	باب التثبت في الفتنة.....
25	باب إذا التقى المسلمان بسيفيهما.....
27	باب كف اللسان في الفتنة.....
37	باب العزلة.....
43	باب الوقوف عند الشبهات.....
47	باب بدأ الإسلام غريبا.....
49	باب من ترجى له السلامة من الفتن.....
51	باب افتراق الأمم.....
54	باب فتنة المال.....
58	باب فتنة النساء.....
62	باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.....
67	باب قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾.....
71	باب العقوبات.....
72	باب الصبر على البلاء.....
83	باب شدة الزمان.....
86	باب أشرط الساعة.....
90	باب زهاب القرآن والعلم.....
92	باب زهاب الأمانة.....
96	باب الآيات.....

99	 باب الخسوف
100	 باب جيش البيداء
100	 باب دابة الأرض
101	 باب طلوع الشمس من مغربها
103	 باب فتنة الدجال وخروج عيسى ابن مريم وخروج ياجوج وماجوج
118	 باب خروج المهدي
120	 باب الملاحم
123	 باب الترك
125	 أبواب الزهد
127	 باب الزهد في الدنيا
131	 باب الهم بالدنيا
131	 باب مثل الدنيا
135	 باب من لا يوبه له
139	 باب فضل الفقراء
140	 باب منزلة الفقراء
141	 باب مجالسة الفقراء
143	 باب في المكثرين
147	 باب القناعة
151	 باب معيشة آل محمد ﷺ
153	 باب ضجاع آل محمد ﷺ
154	 باب معيشة أصحاب النبي ﷺ
156	 باب في البناء والخراب
157	 باب التوكل واليقين
160	 باب الحكمة
163	 باب البراءة من الكبر وفضل التواضع
168	 باب الحياء
172	 باب الجلم
174	 باب الحزن والبكاء
179	 باب التوقى على العمل
181	 باب الرياء والسמعة

183	 باب الحسد
187	 باب البغي
188	 باب الورع والتقوى
191	 باب الثناء الحسن
193	 باب النية
198	 باب الأمل والأجل
201	 باب المداومة على العمل
205	 باب ذكر الذنوب
207	 باب ذكر التوبة
217	 باب ذكر الموت والاستعداد له
222	 باب ذكر القبر والبلا
226	 باب ذكر البعث
237	 باب صفة أمة محمد ﷺ
241	 باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة
246	 باب ذكر الحوض
253	 باب ذكر الشفاعة
264	 باب صفة النار
269	 باب صفة الجنة
285	 فهرسة الموضوعات



